دراسات أخلاقية

في ضوء الكتاب والسنة

(الجزء الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١٢

ر ٢٩٦ الربيعي، جميل

دراسات أخلاقية في ضوء الكتاب والسنة/ جميل الربيعي

ط٣- النّجف: مكتبة الأبرار ، ٢٠٢٤

ج٢ (٣٤٣ص) ؛ ٢٤ سم.

١. الأخلاق الإسلامية- أ- العنوان.

المكتبة الوطنية الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٩٩٨) لسنة (٢٠٢٤)

الرقم الدولي (ISBN) 978-9922-734-26-2

هويّة الكتاب

عنوان الكتاب ....**دراسات أخلاقية في ضوء الكتاب والسنة/ج٢**

المؤلّف .... **الشيخ جميل الربيعيّ**

النّاشر...**مكتبة الأبرار- النجف الأشرف**

الطّبعة .... **الثالثة**

سنة الطّبع **١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

دراسات أخلاقية

في ضوء الكتاب والسنة

(الجزء الثاني)

الشيخ جميل الربيعي

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

وَحَلِّني بِحِلْيَةِ الصّالِحِينَ وَألْبِسْني زينَةَ الْمُتَّقينَ

وَهَبْ لِي مَعاليَ الأَخْلاقِ

دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام

(الْبَحْثُ الْحادي عَشَر)

الْحِلْمُ

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

الكظم لغةً: هو شدّ رأس القربة إذا ملئت ماء، واستعير للإنسان إذا امتلأ حزناً، أو غضباً، وانفعالاً، ولم يظهره، بل حبسه في صدره[٢].

والغيظ: هو انفعال شديد، وهيجان الطبع للانتقام[٣]...

وأما اصطلاحاً؛ فالكظم: هو ضبط النّفس وتوازنها، وثباتها عند تعرّضها للاستفزازات المثيرة، بحيث لا يخرج الإنسان عن حدّ الوسط، وهو أعلى درجات الحلم؛ يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَفْضَلُ الْحِلْمِ كَظْمُ الْغَيْظِ، وَمِلْكُ النَّفْسِ مَعَ الْقُدْرَةِ**»[٤]؛ فقوله عليه السلام: «**مِلْكُ النَّفْسِ**» تفسيرٌ لكظم الغيظ، إي إنّ المرء عندما يثار يجب أن يملك نفسه، وفرقٌ كبيرٌ بين من يملك نفسه أي يسيطر على انفعالاته (يفرض ويرفض في هدوء وثبات وإصرار)... وبين من تملكه نفسه، أي يندفع مع أهوائه وميوله، وما يثيره بقوّة دون تعقّل.

فالحِلْمُ إذن هو الأناة، والعقل، والتّثبّت[٥] في مواجهة المثيرات، وعلامته

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) ينظر: الشّيخ الطّوسي، التّبيان في تفسير القرآن: ٢/٥٩٣-٥٩٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

(٤) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٦، ح/٦٤١٠.

(٥) ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ١٢/١٤٦، باب (حلم).

ضبط النّفس أمام المثيرات والمزعجات؛ وبعبارة أخرى: هو القدرة على ضبط النّفس في المواقف المثيرة، (والقدرة على تغليب الأهداف البعيدة على الأهداف القريبة)، وهو دلالة على رفعة النّفس وسموّها، ونضجها الانفعالي، وتحرّرها من الميول الدّانية: كالأنانيّة، والاتّكال على الغير، والخوف من تحمّل المسؤولية، والتّصرّف المنفعل وغير المتَّزن في المواقف المثيرة؛ ولذلك عدّ علماءُ الأخلاقِ الحلمَ من أشرف الكمالات النّفسيّة بعد العلم؛ لأنَّ العلم إذا لم يلازمه الحلم لا ينفع، وفيه تبرز النَّفس الكبيرة المطمئنة التي لا تستفزّها المثيرات بسهولة، حتى أنَّك تستطيع أن تعرف حجم الشَّخص، ودرجة سموّه من حجم الأشياء التي تثيره، وبعبارة أخرى: الحلم هو التّصرّف بتعقّل، وتأنٍّ، وقوّةٍ، ورزانةٍ، واعتدالٍ في المواقف المثيرة، والردّ عليها بما يدفع الشّرّ، ويجلب الخير؛ يقول تعالى في وصف عباده المخلصين: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾[1].

وهو أيضاً حالة إعراض، وصفح، وعفو عن سفاهات الجاهلين؛ يقول تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2]؛ فقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ هو تعبير عن وجوب ملازمة العفو والصفح، أي إنَّ المؤمن ينبغي له أن يتّصف بالسّماح، والتّغاضي عن هفوات الآخرين الّذين يرجو إصلاحهم، ومعنى الآية (أنَّه أمره بالتّساهل، وترك الاستقصاء في القضاء والاقتضاء، وهذا يكون في الحقوق الواجبة لله، وللنّاس وفي غيرها، وهو في معنى الخبر المرفوع: «أَحَبَّ اللهُ

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

عَبْداً سَمحاً، بائِعاً وَمُشْتَرِياً، وَقاضِياً، وَمُقْتَضِياً»، وقيل: هو العفو في قبول العذر من المعتذر، وترك المؤاخذة بالإساءة، ورُوِيَ أنَّه لما نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ جبرائيل عن ذلك، فقال: **لا أَدْري حَتّى أَسْأَل الْعالِمَ**، ثمّ أتاه، فقال: **يا محمّد، إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ**)[١].

وخلاصة الكلام: إنَّ الحلمَ ملكةٌ نفسيّةٌ، تحفظ للإنسان توازنَهُ، وتماسكَ شخصيّتِهِ أمام المثيرات، وهي من أسمى مكارم الأخلاق؛ قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**ثَلاثٌ مِنْ مَكارِمِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ: تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَحْلُمُ إِذا جُهِلَ عَلَيْكَ**»[٢].

لكن ينبغي أن نشير، أنَّه ليس كلّ إعراضٍ وعفوٍ هو حلم، بل الحلم هو: الصّفح، والعفو، وكظم الغيظ مع القدرة على الانتقام، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَيْسَ الْحَليمُ مَنْ عَجَزَ فَهَجَمَ، وَإِذا قَدَرَ انْتَقَمَ، إِنَّما الْحَليمُ مَنْ إِذا قَدَرَ عَفا، وَكانَ الْحِلْمُ غالِباً عَلى كُلّ أَمْرِهِ**»[٣].

دَواعِيُ الْحِلْمِ:

للحلم دواعٍ يصدر عنها الحليم منها:

١- سموُّ النّفس ورفعتها، بحيث إنّها تترفّع أن تقابل الإساءة بالإساءة، والسّفه بمثله، يقول تعالى في وصف عباده الصّالحين: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ

---

(١) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان: ٧٨٧/٤.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٧٨/٣، ح/١٧٩٠.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٦، ح/٦٤٣٧.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(١)].

٢- الرّحمة بالجاهل مع القدرة على العقوبة: النّفوس الكبيرة تترفّع عن الانتقام من الجاهلين؛ ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله مع أذيّة قومه له يقول: «**اللّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ**»[(٢)].

من مصاديق حلم رسول الله صلى الله عليه وآله ما وقع له مع أحد أعدائه، وأراد قتله؛ ففي أحد غزوات النّبي صلى الله عليه وآله جاءه على غفلة من المسلمين أحد أعدائه وهو غورث بن الحارث، حتى قام على رأسه صلى الله عليه وآله، فقال: «من يمنعك منّي؟» فقال صلى الله عليه وآله: «**اللهُ عزَّ وَجَلَّ**»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنّي؟**» قال: «كن كخير آخذ»، قال: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لا إِلـهَ إِلا اللهُ؟**»، قال: «لا ولكنّي أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلون»، فخلّى سبيله، فذهب الرّجل إلى أصحابه وقال: «جئتكم من عند خير النّاس»[(٣)].

وفي يوم خيبر لما قسّم الغنائم، قال له بعض أصحابه: «يا رسول الله، اعدِل»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَيْحَكَ! فَمَنْ يَعْدِلُ إذا لَمْ أعْدِلْ، فَقَدْ خِبْتُ إِذَنْ وَخَسِرْتُ إِنْ كُنْتُ لا أَعْدِلُ**»، وأراد بعض الصّحابة قتله، فنهاه النّبي صلى الله عليه وآله، وقال: «**معاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النّاسُ أَنّي أَقْتُلُ أَصْحابي**»[(٤)].

ويروي لنا التّأريخ عمّن سادوا أقوامهم بالحلم، ومنهم الأحنف بن قيس الذي كان معروفاً بهذه الصّفة، وكان يقول: «ما آذاني أحدٌ إلا أخذتُ في أمره

(١) القصص: ٥٤.

(٢) المتّقي الهندي، كنز العمّال: ٣٧٩/١٠، ح/٢٩٨٨٣.

(٣) مسند أحمد: ٣٦٥/٣، من مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) الغزالي، إحياء علوم الدين: ٢.

بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفتُ له فضلَهُ، وإن كان مثلي تفضَّلْتُ عَلَيْـهِ، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه»(١).

وقيل: «من عادة الكريم: إذا قدر غفر، وإذا رأى زَلَّةً ستر»(٢).

وقالوا: «ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام»(٣).

٣- حبّ الائتلاف والجذب؛ لأجل التّغيير من حال إلى حال؛ فإنّ كثيراً من النّاس يؤثّر فيهم الصَّفح، وخصوصاً ذوي النّفوس غير الملوّثة بأدران الذّنوب ومذامّ الأخلاق.

٤- رعاية حقّ الصّحبة، والصّداقة القديمة، وذكر الإحسان السّابق.

فَوائِدُ الْحِلْمِ:

الحلم صفة إلهيّة ورساليّة وصف الله تعالى بها نفسه، وقرنها بصفاته العظيمة كقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٤).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٥).

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(٦).

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٧).

---

(١) الأبشيهي، المستطرف في كلّ فن مستظرف: ٥٧١/١.

(٢) المستطرف في كلّ فن مستظرف: ٥٧١/١.

(٣) المصدر نفسه: ٥٧٢/١.

(٤) البقرة: ٢٢٥.

(٥) البقرة: ٢٣٥.

(٦) البقرة: ٢٦٣.

(٧) آل عمران: ١٥٥.

﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[(١)].

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[(٢)].

كما مدح الله بعض رسله لاتّصافهم بصفة الحلم، يقول تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[(٣)].

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾[(٤)].

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[(٥)].

ومعلوم أنّ الله تعالى إذا وصف نفسه بصفة وقرنها بأعظم صفاته فهذا دليلٌ على عظمة تلك الصّفة؛ ولعلَّ المراد منها تحبيب تلك الصّفات لنفوس عباده لما فيها من تخلّق بأخلاقه تعالى، ولما لها من فوائد عظيمة نذكر منها:

١- لما كان الحلمُ عبارةً عن كظم الغيظ، والصّفح، والعفو عند شدّة الغضب مع القدرة على الانتقام، فلا شكَّ أن من كظم غيظه عند الغضب، وعفا، وهو قادر على البطش والعقاب، فإنَّ الله تعالى يؤمنه من غضبه يوم القيامة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْحِلْمُ عِنْدَ شِدَّةِ الْغَضَبِ يُؤْمِنُ غَضَبَ الْجَبّارِ**»[(٦)].

٢- كسب الأنصار: إنَّ من أقوى عوامل كسب نصرة أصحاب النَّفوس الزّكيّة هو الحلم؛ لما له من أثرٍ طيّبٍ في النَّفس؛ ولما له من أثر في إبراز

(١) التغابن: ١٧.

(٢) الإسراء: ٤٤.

(٣) التّوبة: ١١٤.

(٤) هود: ٧٥.

(٥) الصّافات: ١٠١.

(٦) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٧، ح/٦٤٤٦.

الشّخصيّة القويّة، النّاضحة المتحكّمة في ميولها، وغرائزها، وانفعالاتها... فقوّة الشّخصيّة تبرز في قوّة تحمّلها، وصبرها، وثباتها أمام الإثارات... يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«بِالْحِلْمِ تَكْثُرُ الأَنْصارُ».

«أَوَّلُ عِوَضِ الْحَليمِ عَنْ حِلْمِهِ أَنَّ النّاسَ كُلَّهُمُ أَنْصارُهُ عَلى خَصْمِهِ».

«الْحِلْمُ عَشيرَةٌ».

«لا ظَهيرَ كَالْحِلْمِ».

«وَجَدْتُ الْحِلْمَ وَالاحْتِمالَ أَنْصَرَ لي مِنْ شُجْعانِ الرِّجالِ».

«بِالاحْتِمالِ وَالْحِلْمِ يَكونُ لَكَ النَّاسُ أَنْصاراً وَأَعْواناً»[١].

٣- نيل الكرامة والاحترام: ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسان عندما يحلم ويترفّع عن مجابهة المسيء، ويعرض عنه، أو يكظم غيظه، ويملك نفسه في مواجهة المعتدي، يرتفع مقامه وقدره عند النّاس، فينال الإكرام والوقار، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«احْلُمْ تُكْرَمْ».**

«مَنْ حَلُمَ أُكْرِمَ».

«احْلُمْ تُوَقَّرْ».

«سَبَبُ الْوَقارِ الْحِلْمُ»[٢].

٤- وهو أفضل جواب للسّفيه والجاهل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٥-٢٨٧، ح/٦٤٤٨-٦٤٤٧-٦٣٧٩-٦٤٠٣-٦٤٦٧- ٦٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٧، ح/٦٤٥١-٦٤٥٢-٦٤٥٣-٦٤٥٨.

«**الْحِلْمُ فِدامُ[1] السَّفيهِ**».

«**إذا حَلُمْتَ عَنِ السَّفيهِ غَمَّمْتَهُ، فَزِدْهُ غَمّاً بِحِلْمِكَ عَنْهُ**».

«**إذا حَلُمْتَ عَنِ الْجاهِلِ فَقَدْ أَوْسَعْتَهُ جَواباً**».

«**وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكُمْ جاهِلٌ فَلْيَسَعْهُ حِلْمُكُمْ**».

«**مَنْ غاظَكَ بِقُبْحِ السَّفَهِ عَلَيْكَ، فَغِظْهُ بِحُسْنِ الْحِلْمِ عَنْهُ**»[2].

٥- يستر عيوب الإنسان وضعفه: يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْحِلْمُ غِطاءٌ ساتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسامٌ قاطِعٌ؛ فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقاتِلْ هَواكَ بِعَقْلِكَ**»[3].

«**احْتَمِلْ ما يَمُرُّ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الاحْتِمالَ سَتْرُ الْعُيوبِ، وَإِنَّ الْعاقِلَ نِصْفُهُ احْتِمالٌ وَنِصْفُهُ تَغافُلٌ**»[4].

٦ - الحلم يُبرز للناس الشخصية القوية، العالية الهمة الفاضلة الملكات يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْحِلْمُ عُنْوانُ الْفَضْلِ (النُّبْلِ)**».

«**جَمالُ الرَّجُلِ حِلْمُهُ**».

«**لا شَرَفَ أَعْلى مِنَ الْحِلْمِ**»[5].

---

(١) الفِدام: ما يشدُّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشّراب الّذي فيه، ومعنى الحديث: الحلم عن السفيه يغطّي فاه، ويسكته عن سفهه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٤٢١/٥، باب (فدم).

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٥-٢٨٧، ح/٦٤٤٥-٦٣٨٩-٦٣٩١-٦٤٠١-٦٤٠٠.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٦، قصار الحكم: ٤١٢.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٤، ح/٦٣٦١.

(٥) المصدر نفسه: ٢٨٥، ح/٦٣٨١-٦٣٩٢-٦٤٠٤.

الْحِلْمُ دَلالَةُ الْعَقْلِ:

إنَّ أفضل ما منح اللهُ الإنسانَ هو العقل، وهو المزية الأساسيّة بين الإنسان والحيوان، وبه يثاب، وعليه يعاقب؛ والحلم إحدى دلالات رجاحة العقل، فلا يمكن أن يكون الإنسان حليماً إذا لم يكن متين العقل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْحِلْمُ تَمامُ الْعَقْلِ».
«مَعَ الْعَقْلِ يَتَوَفَّرُ الْحِلْمُ».
«الْحِلْمُ (الْحِكْمَةُ) نورٌ جَوْهَرُهُ الْعَقْلُ».
«لا خَيْرَ في عَقْلٍ لا يُقارِنُهُ الْحِلْمُ»(١).

التَّلازُمُ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْعِلْمِ:

إنَّ العلمَ نورٌ يُضيء الدربَ للإنسان، ويسمو به إلى معارج الكمال، ويبني شخصيّته على أسس قويمة... ومن أبرز ثمار العلم هو الحلم؛ فمن لم يكن عالماً بمسارب الحياة، وأهدافها، وغاياتها، ومسالكها، وعارفاً بأسرار النّفس الإنسانيّة، وما فيها من قوى خلاقة... لا يمكن أن يكون حليماً؛ لأنَّ من عرف سنن الله تعالى في التّأريخ، وفي الآفاق، والأنفس يصبح أكثر تحمّلاً، وصبراً، وحلماً؛ ولهذا جاءت الأحاديث الشريفة تؤكد أنَّ:

«الْحِلْمُ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ».
«الْحِلْمُ حِلْيَةُ الْعِلْمِ، وَعِلَّةُ (عِدَّةُ) السِّلْمِ».
«الْحِلْمُ زينَةُ الْعِلْمِ»(٢).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٦، ح/٦٤١١-٦٤١٥-٦٤١٢-٦٤١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٦٤١٨-٦٤٢٢-٦٤٢١.

والرّوايات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام معبّرة بتعبيرات مختلفة لبيان تلك الرّابطة؛ ومن تلك التّعبيرات:

١- حاجةُ العلم إلى الحلم: لأنَّ العالم لا يستطيع أن يؤدّي دوره في المجتمع، ويبلّغ رسالة العلم دون الحلم، فالحلم يمنحه قوّة التّحمّل، والصّبر أمام المثيرات؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«يَحْتاجُ الْعِلْمُ إِلى الْحِلْمِ».

«يَحْتاجُ الْعِلْمُ إِلى الْكَظْمِ»(١).

٢- حاجة الحلم إلى العلم: لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يكون حليماً إذا لم يكن عالماً بالله، وأسمائه، وصفاته، وسننه، وأحكامه، وأخلاق رسله وأوليائه؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«بِالْعِلْمِ تُدْرَكُ دَرَجَةُ الْحِلْمِ».

«الْعِلْمُ قائِدُ الْحِلْمِ»(٢).

فإذن هناك تلازم بين العلم والحلم، لا ينفع أحدهما دون الآخر؛ لأنَّ العلم يشخّص المواقف، وبالحلم ينفّذ المطلوب.

كَيْفَ يَكْتَسِبُ الإِنْسانُ الْحِلْمَ؟

إنَّ الملكات والصّفات الحميدة يمكن أن تكتسب بالمِران، والجدّية في تعلّمها، والصّبر عليها، ومعرفة آثارها، وأبعادها على مستقبل الإنسان في الدّنيا والآخرة؛ ولهذا يمكن للإنسان أن يحصل على هذه الملكة إذا اتّبع الخطوات

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٤، ح/١٢٤-١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ح/ ١١٨-١١٣.

الآتية:

١- أن يعي الإنسان عواقب الحلم، وآثاره على مستقبله في الدُّنيا والآخرة، وعواقب الانفعال غير المتّزن، والرّدّ السّريع من غير تفكير وتأمّل بالعواقب.

٢- التّمرين، والرّياضة النّفسيّة، وتعويد النّفس على التّحمّل، وقد عبّرت الرّوايات عن ذلك بالتَّحَلّم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنْ لَمْ تَكُنْ حَليماً فَتَحَلَّمْ؛ فَإنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ إلا أَوْشَكَ أَنْ يَصيرَ مِنْهُمْ».

«مَنْ لَمْ يَتَحَلَّمْ لَمْ يَحْلُمْ».

«مَنْ تَحَلَّمَ حَلُمَ»[1].

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٦، ح/٦٤٣٥-٦٤٤١-٦٤٣٨.

(الْبَحْثُ الثّاني عَشَر)

الْعَفْوُ

كلّ إنسانٍ مهما بلغ من الكمال والسّموّ النّفسيّ - إلا من عصم الله - معرّضٌ للاشتباه، والخطأ، والتّقصير، ولا يمكن أن يتجنّب ذلك في كلّ حالاته ما دام معرّضاً للغفلة، والنّسيان، أو لغلبة العادة والشّهوة، أو ثوران الغضب والانفعال؛ ولذلك جعل الله تعالى العفو بينه وبين عباده باباً مفتوحاً؛ ليلجوه متى شاءوا، وحثَّ عباده على العفو بينهم؛ لتستقيم حياتهم، وتتمّ سعادتهم بالتّعارف، والتّآلف، والتّعاون، والتّناصح، والتّراشد، والتّعاطف، والتّوادد، والتّكافل... الخ.

والعفوُ صفةٌ إلهيّةٌ وصف الله تعالى بها نفسه، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[1].

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[2].

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[3].

ولا شكَّ أنَّ صفةً يصف الله تعالى نفسه بها لهي من العظمة بمكان لا يُدانى... وكما هي من صفات الله تعالى فهي من صفات أنبيائه، ورسله، وأوليائه، ودعاته، بل هي من أحسن أخلاق كرام بني آدم...

---

(١) النّساء: ٤٣.

(٢) النّساء: ٩٩.

(٣) النّساء: ١٤٩.

والعفو هو التّجاوز عن زلات الآخرين، وعثراتهم، وغفران ذنوبهم، وجرائمهم مع القدرة على معاقبتهم، والانتقام منهم، أمّا إذا كان العفو عن عجز، فلا يسمّى عفواً بل عجزاً.

وقد أوجز الإمام الصّادق عليه السلام فيما نُسِبَ إليه في مصباح الشّريعة معنى العفو بقوله: «**الْعَفْوُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلينَ، وَأَسْرارِ الْمُتَّقينَ، وَتَفْسيرُ الْعَفْوِ: أَلا تُلْزِمَ صاحِبَكَ فيما أَجْرَمَ ظاهِراً، وَتَنْسى مِنَ الأَصْلِ ما أُصيبَ مِنْهُ باطِناً، وَتَزيد عَلى الاخْتِياراتِ إِحْساناً، وَلَنْ تَجِدَ إِلى ذلِكَ سَبيلاً إِلا مَنْ قَدْ عَفا اللهُ عَنْهُ، وَغَفَرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَما تَأَخَّرَ عَنْهُ، وَزَيَّنَهُ بِكَرامَتِهِ، وَأَلْبَسَهُ مِنْ نورِ بَهائِهِ؛ لأَنَّ الْعَفْوَ وَالْغُفْرانَ صِفَتانِ مِنْ صِفاتِ اللهِ تَعالى أَوْدَعَهُما في أَسْرارِ أَصْفِيائِهِ لِيَتَخَلَّقوا مَعَ الْخَلْقِ بِأَخْلاقِ خالِقِهِمْ وَجاعِلِهِمْ؛ لِذلِكَ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]، وَمَنْ لا يَعْفو عَنْ بَشَرٍ مِثْلِهِ كَيْفَ يَرجو عَفْوَ مَلِكٍ جَبَّارٍ...**»[(٢)].

لِماذا أَكَّدَ الإِسْلامُ عَلى الْعَفْوِ؟

والإسلام إنّما أكّد على هذه الخصلة الكريمة؛ ليجعل المؤمن به مناراً يؤمّه المتحيّرون الّذين قست عليهم دنيا النّاس، فأظلمت الدّنيا بأعينهم، فبينما هم في حيرة وانخذال يدخلون رياض الرَّحمة في قلوب العافين لتفيض عليهم من

(١) النّور: ٢٢.

(٢) مصباح الشّريعة: ١٥٨-١٥٩.

الرّقّة، والرّأفة، والشّفقة، فتشعرهم بالأمن والأمان حتى تستقرّ أرواحهم في تلك الظّلال الوارفة، وهذا ما كان يجده التّائهون في ظلمات الجاهليّة في رحاب الدّعاة إلى الله من الأنبياء، والمرسلين، والشّهداء، والصّالحين؛ ولهذا صار العفو عند الله تعالى خير خلائق الدّنيا والآخرة في دار رحمة الله تعالى، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله في خُطْبَتِهِ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلائِقِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ: الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَالإِحْسانُ إِلى مَنْ أَساءَ إِلَيْكَ، وَإِعْطاءُ مَنْ حَرَمَكَ**»[1].

وفي حديث أبي حمزة الثّمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «سمعتُه يقول: **إِذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ جَمَعَ اللهُ - تَبارَكَ وَتَعالى - الأَوَّلينَ وَالآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ، ثُمَّ يُنادي مُنادٍ: أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟** قالَ: **فَيَقومُ عُنُقٌ مِنَ النّاسِ، فَتَلَقّاهُمُ الْمَلائِكَةُ، فَيَقولونَ: وَما كانَ فَضْلُكُمْ؟ فَيَقولونَ: كُنّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنا، وَنُعْطي مَنْ حَرَمَنا، وَنَعْفو عَمَّنْ ظَلَمَنا،** قال: **فَيُقالُ لَهُمْ: صَدَقْتُم، ادْخُلوا الْجَنَّةَ**»[2].

ولما لهذه الخِلّة الكريمة من الفضل العظيم عند الله تعالى، فقد وصفها الإسلام بأنّها «**أَحْسَنُ الإِحْسانِ، وَعُنْوانُ النُّبْلِ، وَتاجُ الْمَكارِمِ، وَمِنْ أَخْلاقِ الْكِرامِ، وَالأَخْذُ بِجَوامِعِ الفَضْلِ**»[3].

كلُّ هذه الفضائل للعفو؛ لأنّه تَخَلُّق بأخلاق الله تبارك تعالى، وتسامٍ إلى

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٧٧/٣، ح/١٧٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٩/٣، ح/١٧٩١.

(٣) ينظر: الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٤-٢٤٥.

عالم الرَّحمة الإلهيّة الّتي وسعت كلّ شيء، وتجاوز للأنانيّة الضّنكة، والإنّيّة المقيتة.

دَلالاتُ الْعَفْوِ:

للعفو دلالاتٌ نفسيّة وأخلاقيّة، تبرز على الشّخصيّة؛ فهو يدلّ على السّموّ، والطّهارة النّفسيّة، والأخلاقيّة العالية، وبعد الأفق، وقوّة الإرادة، وتحرّر من الأنانيّة، ومن أغلال عبوديّة النَّفس، فإذا رأيتَ إنساناً تحلّى بهذه الخلّة فاعلم بأنَّه ممَّن هذّبوا أنفسهم، وزكّوها من الحقد والبغضاء، وتخلّقوا بأخلاق الله تعالى، وتنزّهوا عن الظّلم، واللّؤم، والحقد، وتساموا إلى المجد والكرامة والشرف بأعلى درجاته؛ لأنَّ النّفوس الكبيرة هي وحدها الّتي تعفو، وتصفح، وتغفر، بل تحسن إلى من أساء إليها، وتصل من قطعها، وتعطي من حرمها، وأمّا النّفوس الصّغيرة الصّاغرة فهي الّتي تحمل البغض، والحقد، والانتقام؛ ولذا قيل:

وقيل: «من عادة الكريم: إذا قدر غفر، وإذا رأى زَلَّةً ستر»[١].

وقالوا: «ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام»[٢].

وقيل: «من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقَّهُ، فلم يجب شكره، ولم يحمد في العالمين ذكره»[٣].

والعرب تقول: «لا سُؤْدَدَ مع الانتقام»[٤].

وقيل لبعضهم: «هل لك في الإنصاف، أو ما هو خير من الإنصاف؟»، قال:

---

(١) الأبشيهي، المستطرف في كلّ فن مستظرف: ٥٧١/١.

(٢) المصدر نفسه: ٥٧٢/١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

«وأيّ شيء خير من الإنصاف؟»، قال: «العفو، فالإنصاف ثقيل»[١].

وقيل: «من كرم الأخلاق أن تغفر الذّنب. من شكر الموهوب العفو عن الذنوب»[٢].

وقال البحتريّ[٣]: [من الطّويل]

إذا أنتَ لم تُضْرِبْ عن الحقدِ لم تفزْ   بذكرٍ، ولم تَسْعَدْ بتقريظ مادحِ

آثارُ الْعَفْوِ:

للعفو آثار إيجابيّة على العافي وعلى المعفوّ عنه... أما على العافي ذاته؛ فيمنحه لذّة نفسيّة عالية لا سيّما إذا كان من ذوي النّفوس الصّافية؛ ولهذا قيل: «لذّة العفو أطيب من لذّة التّشفّي؛ لأنَّ لذّة العفو يتبعها حمد العاقبة، ولذّة التّشفّي يتبعها غمّ الندامة»[٤]، وقيل للإسكندر: «أيّ شيء أنت به أسَرّ ممّا ملكت؟»، قال: «مكافأة من أحْسَنَ إليَّ بأكثر من إحسانه، وعفوي عمّن أساء بعد قدرتي عليه»[٥].

وكما يمنحه لذّة فإنّه يكسبه عزّاً ومجداً اجتماعيّاً، وذكراً طيّباً؛ فعن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ؛ فَإنَّ الْعَفْوَ لا يَزيدُ الْعَبْدَ إلا عِزّاً، فَتَعافَوْا يُعِزَّكُمُ الله**»[٦].

(١) الرّاغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء: ٢٢٦/١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ديوان البحتري: ٤٦٧/١.

(٤) محاضرات الأدباء: ٢٢٦/١.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الكافي: ٢٧٩/٣، ح/١٧٩٢.

وعن ابن فَضّال قال: «سمعتُ أبا الحسن عليه السلام يقول: **ما الْتَقَتْ فِئَتانِ قَطُّ إلا نُصِرَ أَعْظَمُهُما عَفْواً**»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ثَلاثٌ لا يَزِيدُ اللهُ بِهِنّ الْمَرْءَ إلا عِزّاً: الصَّفْحُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَإِعْطاءُ مَنْ حَرَمَهُ، وَالصِّلَةُ لِمَنْ قَطَعَهُ**»(٢).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْعَفْوُ يوجِبُ الْمَجْدَ**».

«**الْعَفْوُ يوجِبُ الْحَمْدَ**».

«**تَجاوَزْ عَنِ الزَّلَلِ، وَأَقِلِ الْعَثَراتِ، تُرْفَعُ لَكَ الدَّرَجاتُ**»(٣).

هذا عند النّاس، وأما عند الله تعالى فهو الأعظم، وهو الفوز العظيم، وقد ورد في الأحاديث الشّريفة أنَّ من يعفو عن النّاس رجاء رحمة الله تعالى فإنَّ الله تعالى يعفو عنه، ويغفر ذنوبه، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ أَقالَ أَخاهُ الْمُؤْمِنَ عَثْرَتَهُ في الدُّنْيا أَقالَ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»(٤)، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله: «**فَاعْفُوا يَعْفُ اللهُ عَنْكُمْ**»(٥).

وأما آثاره على المعفوّ عنه فيختلف باختلاف النّفوس، ودرجة تزكيتها، وتهذيبها؛ فمن كانت نفسه زكيّة سليمة من ذمائم الأخلاق، وأدران الذّنوب كان للعفو عنه أثرٌ طيّبٌ في نفسه لا ينساه، بل يلقّنه درساً يربّيه، ويرفعه، ويعلّمه

(١) الكافي: ٢٨١/٣، ح/١٧٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨١/٣-٢٨٢، ح/١٧٩٧.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٦، ح/٥٠٤٧-٥٠٤٨-٥٠٥٥.

(٤) المتّقي الهندي، كنز العمال: ٣٧٦/٣، ح/٧٠٢٠.

(٥) المصدر نفسه: ح/٧٠٢٢.

الأخلاق الطّيّبة، والعفو في النّفوس الزّكيّة كالماء في الأرض الخصبة إذا نزل عليها اخضرّت، وأزهرت، وأثمرت.

وأما النّفوس الوضيعة الخبيثة الملوّثة بالأدران فللعفو عليها أثرٌ سلبي قد لا يزيدها إلا ضعّة وخسّة، ومثله كمثل الماء العذب في الأرض السّبخة، لا تزيدها عذوبة الماء إلا عفونة وخشونة؛ ولذلك حذَّر أمير المؤمنين عليه السلام ولده الحسن عليه السلام في وصيّته أن لا يضع ذلك في غير أهله، يقول عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدودِهِ عَلى اللَّطَفِ وَالْمُقارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمودِهِ عَلى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَباعُدِهِ عَلى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلى اللّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلى الْعُذْرِ، حَتّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وَإِيّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ**»[1].

ولذلك ينبغي لمن أراد أن يعفو عن مسيء له أن يعرف طبيعة نفسه كي يتعامل معها بحكمة ورويّة.

(١) نهج البلاغة: ٤٢٦، كتاب: ٣١.

(الْبَحْثُ الثَّالِثُ عَشَر)

الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ

وَالْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ

الكلمة مفتاح التَّعامل الإنساني، والباب الواسع لولوج المجتمع وتغييره، ودلالة العقل وثمرته؛ بها قام الوجود، واستقرَّت دعائمه، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وفي آية أخرى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

وبالكلمة عَرّفَ الله تعالى نفسه لعباده، وفيها أرسل رسله، وأمرهم بتبليغها؛ فعن هارون بن مسلم، عن مَسْعَدَة، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال لرجل وقد كَلَّمَهُ بكلام كثير، فقال: «**أَيُّها الرَّجُلُ، تَحْتَقِرُ الْكَلامَ وَتَسْتَصْغِرُهُ، اعْلَمْ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يَبْعَثْ رُسُلَهُ حَيْثُ بَعَثَها وَمَعَها ذَهَبٌ وَلا فِضَّةٌ، ولَكِنْ بَعَثَها بِالْكَلامِ، وَإِنَّما عَرَّفَ اللهُ نَفْسَهُ إِلى خَلْقِهِ بِالْكَلامِ وَالدَّلالاتِ عَلَيْهِ**

(١) النَّحل: ٤٠.

(٢) البقرة: ١١٧.

(٣) آل عمران: ٤٧.

والأَعْلامِ»[١].

وبالكلمة تشخَّصت إنسانيّة الإنسان، وبرزت كرامته على غيره من المخلوقات، وبها يُعَرِّف الإنسان نفسه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**تكَلَّموا تُعْرَفوا؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ**»[٢].

وبها علَت الحقيقةُ، وبانت، وحقَّ الحقُّ: ﴿**وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿**وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾[٤].

وبها يثبّت الله الذين آمنوا في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾[٥].

وبالكلمة يُعبّر الإنسان عن أفكاره، وأحاسيسه، ومشاعره، وأهدافه؛ لذلك قال الحكماء: «النُّطق أشرف ما خُصَّ به الإنسانُ؛ لأنَّه صورته المعقولة التي باين بها سائر الحيوانات»[٦]؛ وإن كان الحكماء يقصدون بالنّطق التّفكير إلا أنَّ التّفكير لا يتجلّى على الإنسان، ولا تظهر نتائجه إلا بالكلمة والبيان؛ (ولذلك قال سبحانه:

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣٥٧/١٥، ح/١٤٩٤٣، والحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٥٣٣/٨.

(٢) نهج البلاغة: ٥٥١، قصار الحكم: ٣٨١.

(٣) يونس: ٨٢.

(٤) الأنفال: ٧.

(٥) إبراهيم: ٢٧.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٩٦/١٨.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[(١)]، ولم يقل: «وعَلَّمَهَ» بالواو؛ لأنّه سبحانه جعل قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ تفسيراً لقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ لا عطفاً عليه؛ تنبيهاً على أنَّ خلقه له، وتخصيصه بالبيان الذي لو تُوُهّم مرتفعاً لارتفعت إنسانيّته؛ ولذلك قيل: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمةٌ مهمَلةٌ، أو صورةٌ ممثَّلَةٌ)[(٢)].

وقال زهير بن أبي سلمى[(٣)]: [من الطّويل]

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ   فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

وقال العلامة الطّباطبائي: «ولا يتمّ للإنسان اجتماعه المدني، ولا تقدّم في حياته هذا التّقدّم الباهر إلا بتنبّهه لوضع الكلام، وفتحه بذلك باب التّفهيم والتّفهّم، ولولا ذلك لكان هو والحيوان العجم سواء في جمود الحياة وركودها...

وبالجملة البيان من أعظم النّعم والآلاء الرّبانيّة الّتي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنسانيّ، وتهديه إلى كلّ خير»[(٤)].

إنّ الله جعل في الإنسان (سرَّ النُّطق الّذي يُعَبّرُ به عمّا في عقله وقلبه وشعوره، ممّا يفكّر فيه، ويحسّ به، كما يستخدمه في تدبير شؤونه الخاصّة والعامّة، وتلبية حاجاته، ويحقّق من خلاله التّواصل مع أفراد مجتمعه في كلّ ما يحتاج فيه إليهم من قضاياه اذلخاصّة، أو في حاجته إلى التّكامل معهم لما يريد إنجازه من قضايا عامّة قد تختلف فيها المواقف، وتضطرب فيه الآراء، فيكون البيان الّذي يركّز قاعدة الفكرة، ويوضّح حركة المشكلة، ويدير عمليّة الحوار،

---

(١) الرَّحمن: ٣-٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٩٦/١٨.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى: ١١٢.

(٤) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٩٥/١٩-٩٦.

هو الذي يحقّق ذلك)[١].

هذا بيانٌ مقتضبٌ لأهميّة الكلمة في حياة الإنسان التي لا يمكن أن نحيط بها في هذه الوُرَيْقات، وبالتّالي فالكلمة مظهرٌ حضاريٌّ مهمٌّ تبرز فيها سموّ الحضارة ورقيّها، أو انحطاطها وتسافلها.

تلك هي الكلمة بقطبيها المتنافرين، وبطرفيها المتعاكسين في الحركة والاتجاه، وبدافعيها المختلفين في الشّكل والمضمون، والوسيلة والهدف، والمقدّمة والنّتيجة؛ فهي إفراز ذات مذاقين لنمطين من العقول والنّفوس، والأمزجة والقرائح، وهما الطيّب والخبيث، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[٢].

إنَّ النّفوس الزّكيّة، والقلوب السّليمة تنجذب للطّيّب من القول والعمل والأشياء، بل تفتّش عنه عند من كان، وأين ما كان، وتنفر من الخبث، وتشمئزّ منه، ولا تقبله بحال؛ لأنَّ الأوّل ملائم للفطرة، والثّاني مخالف لها؛ والأول أصيل دائم، والثّاني طارئ زائل، وأروع تشبيه وأبدعه في أخصر عبارة وأروعها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[٣].

---

(١) السّيّد محمّد حسين فضل الله، من وحي القرآن: ٢١/٣٥٥.

(٢) الأعراف: ٥٨.

(٣) إبراهيم: ٢٤-٢٦.

يا له من تشبيهٍ رائعٍ عجيبٍ له أبعاد عميقة الغور في عمق الوجود، يوضّح ثبات الكلمة الطّيّبة النّابعة عن عقيدة حقّة، ويرسم لنا لوحةً ناطقةً نميّز فيها الأصيل من الدخيل، وما لكلّ منهما من امتداد طبيعيّ ثابت دائم الوجود، أو حادث طارئ متزلزل بمثال يثير الحسّ، ويوقظ الضّمير والوجدان؛ ليشرح النّفس ويدفعها نحو ميدان الحياة الأصليّة، ويردعها عن آخر دخيل عليها، مثيراً فيها نوعين من الإحساس: الأوّل يدفعها إلى الرّوضة الطّيّبة، والثّاني يردعها عن الوقوع في مستنقع الخباثة؛ ليتحوّل هذا الإحساس إلى قوّة توقد شعلةً روحيّةً في الضَّمير يمزّق ظلام الحجب المعتمة لـ(شاشة) النّفس، فيجعلها صقيلة شفّافة، تتلقّى النّور وتعكسه، ويبعث فيها روح الحياة المستقيمة المطمئنّة لسلامة مسيرتها، وبذلك ترتقي سلّم الكمال درجةً درجة.

تلك هي المعطية الأساسيّة من معطيات الكلمة الطّيّبة، وهي تطهير النّفس من كلّ ما علق فيها من أدران؛ لتكون شفّافةً حيّةً مشعّةً منيرةً ذات أرضيةٍ خصبةٍ تستقبل النّور، وتستوعبه، ثمّ تحوّله إلى حركة معطاء تدرّ على البشريّة: الخير، والصّلاح، والكمال.

فإذن لا بدّ من عملية تطهير للنّفس أوّلاً، ثم غرسها بأفكار الرّسالة ثانياً؛ فإنَّ النَّفس كالأرض، إن كانت طيّبةً خصبةً طاهرةً من الأملاح وجذور الأشواك فسوف تستقبل الماء، وتخرج ما أودع الله فيها من كنوز: أشجار، وأزهار، وأثمار، وأمّا إن كانت سبخة فلا يزيدها الماء إلا عفونة وخشونة تقتل ما يلقى فيها من بذور، وإذا أنبتت أنبتت شوكاً يضرّ ولا ينفع.

يصوّر لنا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة بأدقّ صورة تمثيليّة بقوله صلى الله عليه وآله:

«مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثيرِ أَصابَ أَرْضاً، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ قَبلَتِ الْماءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثيرَ، وَكانَتْ مِنْها أَجادِبُ أَمْسَكَتْ الْماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِها النّاسَ، فَشَرِبوا وَسَقَوْا وَزَرَعوا، وَأَصابَ مِنْها طائِفَةً أُخْرى إِنَّما هِيَ قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ في دينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنيَ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدى اللهِ الّذي أُرْسِلْتُ بِهِ»[(١)].

إنَّ الإنسانيّة الحقّة منذ نشأتها ما زالت تكدح باستمرار؛ لتربط خيوطها بنسيج الكلمة الطّيّبة؛ كي ترتقي سلّم الكمال العرفاني الّذي يوقفها على جوهر وجودها وعلّة إيجادها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٢)].

ولهذا نجد أنَّ أبا البشر عليه السلام رجع إلى ربّه بكلمات تلقّاها منه تعالى، وأصبح مؤهّلاً لعبوديّته تعالى، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(٣)].

إنَّ تشبيه الكلمة الطّيّبة بالشّجرة الطّيّبة له دلالات ضخمة جداً، وهي: إنَّ إعمار الأرض، وجمالها، وقيمتها ينبع من وجود الحياة فيها، والشّجرة رمز الحياة ودلالتها، ولها الأثر الكبير في استمراريّتها ودوامها، فالأرضُ بلا شجرٍ قاحلةٌ مجدبةٌ، معدومةُ القيمة؛ كذلك الإنسان المجدب من الكلمة الطّيّبة لا قيمة له؛ لأنّ الكلمة الطّيّبة شجرةُ الحياة وأصلها، جذورها راسخة في عمق التّأريخ البشريّ، وفروعها صاعدة به إلى أوج كماله ورقيّه.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٨/١.

(٢) الذّاريات: ٥٦.

(٣) البقرة: ٣٧.

وبالكلمة الطّيّبة ارتبط العالَمانِ العلويّ والسّفليّ، السّماويّ والأرضيّ، الماديّ والمعنويّ، وبها ارتبط الإنسان بخالقه حيث غمرته كلمة السّماء بفيض النّعمة والرّضوان، وباللّطف الإلهي يرفع أثمارها بعد ذلك طيّبة زاكية مقبولة عند الله تعالى، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[١].

من هنا كانت الأولويّة للكلمة الطّيّبة في عالم التّكوين، فالسّماء وما فيها والأرض وما عليها، أقامها الله عزَّت قدرتُهُ بكلمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، والحياة الإنسانيّة في كلّ جوانبها الفكريّة والعمليّة تبدأ بكلمة، وتتحوّل إلى حركة، وعمل، ووجود؛ فهي إذن سرٌّ من أسرار وجود الإنسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٢].

إنّنا لو رجعنا إلى تأريخ الرّسالات لوجدنا أنّ جميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام دعوا إلى الله بالكلمة الطّيّبة، وبها أقاموا صرح دين الله، من أبي البشر عليه السلام إلى خاتم الرّسل صلى الله عليه وآله، جاء في حديث الإمام السّجّاد عليه السلام: **«لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ما بَعَثَ الأَنْبياءَ وَالأَوْصياءَ بِالسُّكوتِ، إِنَّما يَبْعَثُهُمْ بِالْكَلامِ»**[٣].

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٤].

فتبيان الحقيقة لا يتمّ إلا بالكلمة الطّيّبة، كما أنّها هي الّتي تحيي القلوب،

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) الرَّحمن: ٣-٤.

(٣) الطّبرسي، الاحتجاج: ٢/٣٥٩.

(٤) إبراهيم: ٤.

وتنعش الضّمائر، وتوقظ الأرواح من سباتها، وهكذا تنبعث روح الحياة في المجتمع البشريّ، وتعمر البلاد، ويتكامل سموّ العباد.

وخلاصة القول: الكلمة الطّيّبة مطلع كلّ خير، وبداية كلّ بناء بشريّ سامٍ في كلّ الحضارات.

خَصائِصُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ:

لقد حدَّد القرآن الكريم خصائص وسمات الكلمة الطّيّبة تحديداً دقيقاً شخَّص فيه: سماتها، وأبعادها، وطريقة أدائها؛ جاء هذا بصيغة أوامر حثَّ الإسلام دعاته على الالتزام بها، والتّحلّي فيها: فكراً، وطبعاً، وسلوكاً مع كلّ أحد عند تبليغ الرّسالة، بل في كلّ حالة؛ رُوِيَ أنَّ عيسى عليه السلام قال لرجل لا يستحقّ: «**حَفَظَكَ اللهُ**»، فقيل له: «أتقول هذا لمثل هذا؟»، فقال: «**لِسانٌ عُوِّدَ الْخَيْرَ فَهُوَ يَنْطقُ بِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ**»[1].

وهكذا إذا عوّد الإنسان لسانه على النّطق بالكلمة الطّيّبة حتى تكون ملكةً لا يستطيع خلافها؛ لأنَّها تصبح سيرةً مطبوعاً عليها، وهذا ما يريدُ الإسلامُ تحقيقَهُ في الإنسان المؤمن.

وهذا لا يتحقّق إلا عندما ترسخ شجرة الإيمان في القلب، وتبقى خضراء مزهرة، فوّاحة بالطّيب، تمدّه بالحسن، والجمال، والوداد، والطمأنينة، والرّسالة بالديمومة، والاستمرار.

وأهم خصائص الكلمة بإيجاز هي:

---

(١) الآبي، نثر الدّرّ: ٦/٧.

الْحُسْنُ وَالْجَمالُ:

يقول الشّهيد مطهّري قُدِّسَ سِرُّهُ: «أحد الأبعاد المعنويّة في الإنسان علاقته بالجمال، حيث يشكّل قسماً مهمّاً من حياته، ويدخل في كلّ شأن من شؤونها... يلبس الثّياب لأجل البرد والحرّ، وبهذا المقدار أهميّة اللّون والخياط، ويبني البيت لأجل السّكن، ويتوجّه للجمال حتّى المائدة الّتي يعدّها للطعام والظّرف الّذي يضعه فيه وفق الأصول الجماليّة، ويحبّ كذلك جمال قيافته واسمه، ولباسه، وخطّه، وشارعه، ومدينته، والمناظر التي أمامه... ومختصر القول: الإنسان يريد أن يحيط الجمال بتمام شؤون حياته»(١).

إنَّ حبَّ الجمال أحد الأبعاد الفطريّة في الإنسان؛ ولذلك فإنَّ النّفوس البشريّة بمقدار ما تنفر وتشمئزّ من قبح المنظر؛ فهي تنجذب لحسنه وجماله، وإذا كان لقبح المنظر علاجٌ بصرف النّظر عنه فإنَّ قبح الكلمة، وخبثها لا علاج له؛ لأنَّه يجرح العواطف، ويؤزّم النّفوس، ويثير الأحقاد، ويغلق القلوب كما قال الشّاعر(٢): [من الوافر]

وجرح السّيفِ تأسوه فيبرا ... وجرح الدّهر ما جرح اللّسان

جراحات الطّعان لها التئامٌ ... ولا يلتام ما جرح اللّسانُ

لأنَّ جرح السّيف في البدن، وجرح اللّسان في القلب والرّوح؛ ولهذا أكّدت تعاليم السّماء على وجوب تجنّب هذا المسلك الوخيم من خلال الحثّ المتواصل على التّعامل الحسن الطّيّب مع النّاس بالكلمة الحسنة الجميلة؛ لأنّها

---

(١) مترجم عن كتاب (جهان بيني إسلامي) باللّغة الفارسيّة للشّهيد مرتضى مطهّري.

(٢) الجاحظ، المحاسن والأضداد: ١٧.

تسرّ النّفس، وتشرح الصّدر، وتثير العواطف النّبيلة، وتمهّد أرضيّة النَّفس لقبول الفيض الإلهيّ، يقول تعالى:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[(١)].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[(٢)].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[(٣)].

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[(٤)].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[(٥)].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[(٦)].

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[(٧)].

وأما ما ورد في الأحاديث الشّريفة فكثير جداً، أذكر نماذج منها:

عن أبي جعفر عليه السلام: «**قولوا لِلنّاسِ أَحْسَنَ ما تُحِبّونَ أَنْ يُقالَ فيكُمْ**»[(٨)].

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) النَّحل: ١٢٥.

(٣) النّساء: ٨٦.

(٤) الإسراء: ٥٣.

(٥) الزّمر: ٢٣.

(٦) المؤمنون: ٩٦.

(٧) الزّمر: ١٨.

(٨) الكافي: ٤٢١/٢، ح/٢٠٣٧، وورد «أن يُقالَ لَكُمْ» في تفسير العيّاشي: ٦٦/١، وبحار الأنوار: ٣٠٩/٧١-٣١٠.

وعن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «**الْقَوْلُ الْحَسِنُ يُثري الْمالَ، وَيُنْمي الرِّزْقَ، وَيَنْسأ في الأَجَلَ، وَيُحَبِّبُ إلى الأَهْلِ، وَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ**»(١).

وسُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله، أيّ الأعمال أفضل؟»، فقال: «**إطْعامُ الطَّعامِ، وَإطْيابُ الْكَلامِ**»(٢)؛ وذلك لأنَّ الطعام غذاء البدن، والكلام الطّيّب غذاء الرّوح، ولا بدّ للإنسان من الغذاءين بدرجة واحدة.

وعن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: «**قالَ رَسولُ الله: مَنْ أَكْرَمَ أَخاهُ الْمُؤْمِنَ بِكَلِمَةٍ يُلَطِّفُهُ بها، أَوْ قَضى لَهُ حاجَةً، أَوْ فَرَّجَ عَنْهُ كُرْبَةً لَمْ تَزَلِ الرَّحْمَةُ ظِلاً عَلَيْهِ مَمْدوداً ما كانَ في ذلِكَ مِنَ النَّظَرِ في حاجَتِهِ**»(٣).

وقال صلى الله عليه وآله في وصيّته لأبي ذر: «**يا أَبا ذَر، الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»(٤).

إذا تأمَّلْنا بمجل ما تقدَّم من الآيات والرّوايات يتبيّن لنا أهميّة الكلمة الطّيّبة في الحياة الاجتماعيّة، ودورها في بناء المجتمع المتآلف المتعاون، والأهمّ من ذلك تأثيرها في مستقبل الإنسان الأخرويّ...

وأما سمات الكلمة الطّيّبة فهي الكلمة الرقيقة التي تؤدّى بحنان، ودفء، وأدب بالغ، وهدوء وديع، ومراعاة حكيمة لعواطف ومشاعر المخاطبين بصدق، وإخلاص، وحماسة إيمانية؛ فحينئذٍ ستكون شفاءً لمرض القلوب، ونوراً لظلام النفوس، وريّاً لظمأ الضّمائر، يقول العلامة الطّباطبائي قدس سره - في تفسير قوله

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٣١٧/١.

(٢) البرقي، المحاسن: ٤٥٥/١، ح/١٠٥٠.

(٣) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٦٩٢/٢.

(٤) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٨٥/٧٧.

تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[(١)] -: «أي الكلمة الّتي هي أحسن، وهو اشتمالها على الأدب الجميل، وتعرِّيها عن الخشونة، والشّتم وسوء الأمر... [فهي] أمر بالأمر، والمأمور به: قول الكلمة الّتي هي أحسن، فهو نظير قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[(٢)]»[(٣)].

وقيل: «إذا تكلّم أحدكم فليجتهد أن تكون الألفاظُ عذبةً لا يملّ سماعها، وأن تكون المدلولات صحيحةً يمكن وقوعها، فليس كل لفظ مقبولاً ولا كلّ مدلول معقولاً»[(٤)].

ومن معطيات حسن الكلمة الكريمة وجمالها أنَّها تقطع نزغ الشّيطان، يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[(٥)].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس عندما ولاه على البصرة: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ، فَحادِثْ أَهْلَها بِالإِحْسانِ إِلَيْهِمْ**»[(٦)].

ومن أجل هذا أعطى الإسلامُ هذه الأهميّة للكلمة الطّيّبة: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»[(٧)].

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) النَّحل: ١٢٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١١٨/١٣.

(٤) أحمد الهاشمي، القواعد الأساسيّة للّغة العربية: ١٢.

(٥) الإسراء: ٥٣.

(٦) نهج البلاغة: ٤٠٢، كتاب: ١٨.

(٧) بحار الأنوار: ٨٥/٧٧.

إذن يجب أن يغمر الحسن والجمال كلّ كلمة يتفوّه بها دعاة الله تعالى في تعاملهم مع النّاس، وعلى مختلف المستويات: موعظة، نصيحة، رد تحية، دعوة إلى هداية، بل حتّى في رد الجاهل الجافي المتحدّي ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾(١).

وهذا غاية السّموّ الإنساني أن يردّ على الجاهل المتحدّي بأجمل كلمة وأحسنها «**سَلام**».

وهكذا يجب أن تكون كلمةُ الدّاعيةِ إلى الله بليغةً مؤثّرةً؛ لتبلغ كلَّ كيان الإنسان، وتهزّه من أعماقه حتى تلامس شغاف القلب، وتستقرّ فيه، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾(٢).

وكما أمر الإسلامُ بأداء الكلمة بحسن وجمال أمر كذلك باتّباع القول الحسن من أيّ إنسان؛ لأنَّ الحسنَ حسنٌ من كلّ أحد؛ ولأنَّ الحكمة ضالّة المؤمن، فيجب أن يأخذها، ولو من أهل النّفاق، يقول تعالى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾(٣).

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾(٤).

ولتركيز هذا المفهوم في نفوس المؤمنين نجد أنَّ الله تعالى وصف كلامه

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) النّساء: ٦٣.

(٣) الزّمر: ١٧-١٨.

(٤) الزّمر: ٥٥.

الكريم بالحسن؛ ليجذب إليه قلوب المؤمنين؛ وليصبغها بالصّبغة الإلهية ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(١).

المَعْروفُ:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(٢).

قال الرّاغب الأصفهاني: «والمعروف اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل، أو الشّرع حُسْنُهُ، والمنكر ما يُنْكَر بهما، قال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٤)، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾(٥)»(٦).

وقال الشّيخ الطّوسي: «القول المعروف معناه ما كان حسناً جميلاً لا وجه فيه من وجوه القبح»(٧).

وقال ابن منظور: «وهو كلّ ما تعرفه النّفس من الخير... وتطمئنّ إليه»(٨).

وقال العلامة الطّباطبائي قدس سره: «المعروف من القول ما لا ينكره النّاس

---

(١) الزّمر: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٦٣.

(٣) آل عمران: ١٠٤، و١١٤؛ التّوبة: ٧١.

(٤) لقمان: ١٧.

(٥) الأحزاب: ٣٢.

(٦) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٤٥٨، باب (عرف).

(٧) الشّيخ الطّوسي، التّبيان في تفسير القرآن: ٢/٣٣٥.

(٨) ابن منظور، لسان العرب: ٩/٢٣٩، باب (عرف).

بحسب العادة، ويختلف باختلاف الموارد»[١].

فالمعروف إذن يشمل كلّ أبعاد الخير: فكراً، وقولاً، وعملاً، وهو مرادف للإحسان، إلا أنّ الإحسان أعم منه، فكلّ عملٍ حسنٍ رشيدٍ هو معروفٌ، وكلّ كلمةٍ تهدي ضالاً، أو تسرّ محزوناً، أو تصلح فاسداً، أو تعلّم جاهلاً، أو تغيث ملهوفاً، أو تحفظ ماء وجه طالب حاجة هي كلمة معروف، وخير، وإحسان، وصلاح...

وبكلمة أخصر: كلّ كلمة لا تنفّر النَّفس بل تجذبها، وتقرّبها إلى سبيل الرُّشد، وتبني شخصيّتها، وتحفظ كرامتها هي معروف يفوق فضلها صدقة يتبعها أذًى أو مَنٌّ، يقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[٢]؛ لأنّ الصَّدقة إذا تجرَّدت عن قول معروف حسن ستكون ذلّة للنَّفس، وإن كانت تملأ الجيب؛ فإنّ المعروف يملأ القلب سروراً، وانبساطاً، وحباً؛ فإذا امتزجت بالقول الجميل حفظت كرامة النَّفس من ذلّة الطّلب، ومرارة الحاجة.

إذن بالقول المعروف ترتفع النَّفسُ في سُلَّم الكرامة والعزّة؛ ولذا نجد القرآن الكريم (يقرّر أنّ الصّدقة الّتي يتبعها الأذى لا ضرورة لها! وأولى منها كلمة طيّبة، وشعور سمح، كلمة طيّبة تضمّد جراح القلوب، وتفعمها بالرّضا والبشاشة، ومغفرة تغسل أحقاد النّفوس، وتحلّ محلها الإخاء والصّداقة، فالقول المعروف والمغفرة في هذه الحالة يؤدّيان الوظيفة الأولى للصّدقة: من تهذيب النّفوس، وتأليف القلوب)[٣].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٨٩/٢.

(٢) البقرة: ٢٦٣.

(٣) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٤٥١/١.

كما نفت آيةٌ أخرى الخيرَ من كثير من النجوى إذا تجرَّدت من قول المعروف، يقول تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

السَّدادُ:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾(٢).

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾(٣).

السّديد من القول هو: «السّليم من خلل الفساد، وأصله من سَدَّ الخللَ، وقوله: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي صواباً عدلاً موافقاً للشّرع والحقّ»(٤).

و(السّديد من السّداد وهو الإصابة والرّشاد، فالسّديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع، وعدم كونه لغواً، أو ذا فائدة غير مشروعة كالنّميمة وغير ذلك؛ فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلّم به، وأن لا يكون لغواً، أو يفسد به إصلاح)(٥).

إنَّ الكلمة المسدّدة بالدّليل العقليّ، والمدعومة بالبرهان المنطقيّ، والمؤيّدة بالحقيقة العلميّة، والنّابعة من روح رساليّة تقف سدّاً منيعاً يقطع الطّريق على دعاة الجاهليات القديمة والحديثة، ويدحض كلّ أدلتهم، ويفنّد كلّ

(١) النّساء: ١١٤.

(٢) الأحزاب: ٧٠.

(٣) النّساء: ٩.

(٤) الشيخ الطّريحي، مجمع البحرين: ٦٦/٣.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٧/١٦.

حججهم، ويغرس في النّفوس بذور الحقيقة...

ونلاحظ أنّ القرآن الكريم يربط بين التّقوى والقول السّديد، وهذا الرّبط إشارةٌ إلى أنّ القولَ السّديدَ لا يؤدّي دوره بشكل فعّال إلا إذا صدر عن روح متّقيةٍ ورعةٍ مخالفةٍ للهوى، غير منغمرةٍ في متاهات الشّهوات.

الْبَلاغَةُ:

قالوا عن البلاغة: «هي تنبئ عن الوصول والانتهاء»[1]، وسمّيت الكلمة القويّة المؤثّرة بليغةً؛ لأنّها تستطيع أن تهزّ مشاعر الإنسان، وتصل إلى كلّ جزء من كيانه الشّعوري، وهي كالماء إذا روى شجرة أذبلها العطش فإنّه يبلغ إلى كلّ خلية منها، ويبعث الحياة في جميع أجزائها؛ وكذلك بلاغة الكلمة تملك شعور الإنسان فتسحره، أو تستعمره؛ ولذا قال ﷺ: «**إنّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْراً**»[2]، ويقول تعالى لنبيّه مؤكّداً على بلاغة الكلمة في تبليغ الرّسالة: ﴿**وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾[3].

والكلمة بمقدار ما تكون قصيرة اللّفظ، واسعة المعنى، مسبوكة المبنى، سلسة العرض، تؤدّى بمهارة، ورقّة، وعذوبة، وحماس، وصدق مبدئي تكون مؤثّرة في النّفس تأثيراً إيجابيّاً عميقاً، والأهمُّ من ذلك أن يضع المتحدّث قلبه في كلامه؛ ولذا قيل: «الكَلِمةُ إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت

---

(١) التّفتازاني، مختصر المعاني: ٧.

(٢) فضل الله الرّاوندي، النّوادر: ١٥٥.

(٣) النّساء: ٦٣.

من اللسان لم تجاوز الآذان»[(١)].

قيل للإمام الصّادق عليه السلام: «ما البلاغة؟» فقال: «**مَنْ عَرَفَ شَيْئاً قَلَّ كَلامُهُ فيهِ، وَإِنَّما سُمِّيَ الْبَليغُ لأَنَّهُ يَبْلُغُ حاجَتَهُ بِأَهْوَنِ سَعْيِهِ**»[(٢)].

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «**ثَلاثَةٌ فيهِنَّ الْبَلاغَةُ: التَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنى الْبُغْيَةِ، وَالتَّبَعُّدُ مِنْ حَشْوِ الْكَلامِ، وَالدَّلالَةُ بِالْقَليلِ عَلى الْكَثيرِ**»[(٣)].

وفي حديث آخر: «**يا ابْنَ النُّعْمانِ، لَيْسَتِ الْبَلاغَةُ بِحِدَّةِ اللِّسانِ، وَلا بِكَثْرَةِ الْهَذَيانِ، وَلكِنَّها إِصابَةُ الْمَعْنى وَقَصْدُ الْحُجَّةِ**»[(٤)].

وقيل للعتابيّ: «ما البلاغة؟» قال: «كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا خلسة، ولا استعانة فهو بليغ»، قيل له: «ما الاستعانة؟»، قال: «ألا ترى الرّجل إذا حدَّث قال: يا هناه واستمعْ إليَّ، وافهم، وألستَ تفهم؟.. هذا كلّه عيّ وفساد»[(٥)].

وسَمِعَ خالدُ بن صفوان مكثاراً يتكلّم، فقال له: «يا هذا، ليست البلاغة بخفّة اللّسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنّها إصابة المعنى، والقصد إلى الحجّة»[(٦)].

اللُّيونَةُ (الْمُرونَةُ):

تختلف اللّيونة في مفهومها القرآنيّ عن مفهومها السّياسيّ السّائد اليوم في

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ١/٨٣-٨٤.

(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٠.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧/٨٨.

(٦) المصدر نفسه.

المحافل السّياسيّة، والمفاوضات الدّائرة في دهاليزها بين أقطابها، وتُجّارها، والدّائرين في فلكها، واللاعبين على حبالها؛ ففي مفهوم هؤلاء المرونة تعني: المداهنة، والمخادعة، والمراوغة، والتّلاعب بالألفاظ، لغرض الالتفاف على السّامع، والمحاوِر من الوراء، وإيقاعه في الفخّ المنصوب له بهدف السّيطرة عليه؛ ولذا قالوا: «أنْ تفاوض يعني أن تجابه».

فالمرونة في مفهوم هؤلاء إذن تعني: الاحتيال في النّزاع البارد، والصّراع الكلاميّ الهادئ الّذي يدسّ السّمّ في العسل؛ من أجل السّيطرة والتّغلّب، لا الإقناع والتّفهيم، من خلال إخفاء الحقيقة على السّامع لما في طيّاتها من أهداف دنيئة لو اكتشفها المحاوِر على حقيقتها لرفض الحوار والمحاوَر من أوّل الأمر.

وليس هذا محض خيال وهراء من القول، بل ما يقع وما وقع في محافل السّياسة العالميّة يدلّ على ذلك؛ حتى سمّي ذلك بـ(علم السّياسة)، والأحرى أن يسمّى بـ(فن المخادعة)، وما يعبّر عنه اليوم بـ(الدّبلوماسيّة)[1]؛ فلو تابع القارئ الكريم محاورة بين قطبين من تجّار السّياسة اليوم فإنّه يشمّ رائحة النّفاق تزكم الأنف السّليم، حيث المجاملات الخادعة، والمداهنات الباهتة؛ ليحاول كلٌّ منهم أن يستحوذ على محاوره ليوقعه في شباكه، ويصعد على كتفيه، ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2].

---

(١) عرّفوا القائد الدّبلوماسي بأنّه: «قائدٌ يمتاز بالمرونة، سعادته في أن يتلاعب بالأفراد والمواقف، مظهره لا يعكس باطنه، ولغته لا تعبّر عن أفكاره، بعيد النّظر، واقعيّ وعمليّ، لا يتردّد في أن يتعامل مع عدوّ الأمس، وأن يضحّي بصديق اليوم»، الدّكتور حامد ربيع، الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ: ٣١٥.

(٢) القلم: ٩.

هذا الشّكل من المرونة المبنيّة على المساومة، والمخادعة، والمراوغة، بل على المكر والغدر، يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً، ويعدّها نفاقاً خالصاً، لا يليق بإنسان يحترم عقله فضلاً عمّن يلتزم بمبادئ دينه؛ لذلك حذّر أمير المؤمنين عليه السلام من أهل النّفاق بقوله: «**أوصيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوى الله، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفاقِ؛ فَإِنَّهُمْ الضّالّونَ الْمُضِلّونَ، وَالزّالّونَ الْمُزِلّونَ، يَتَلَوَّنونَ أَلْواناً، وَيَفْتَنّونَ**[1] **افْتِناناً، وَيَعْمِدونَكُمْ بِكُلِّ عِمادٍ، وَيَرْصُدونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصادٍ؛ قُلوبُهُمْ دَوِيَّةٌ**[2]**، وَصِفاحُهُمْ نَقِيَّةٌ، يَمْشونَ الْخَفاءَ، وَيَدِبّونَ الضَّراءَ، وَصْفُهُمْ دَواءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدّاءُ الْعَياءُ...**»[3].

فالمرونة إذن في المفهوم الإسلاميّ: عرض الحقيقة بأسلوب هادئ، لا يثير تعنّت السّامع، ولا يجرح عواطفه، ويكون بكلمات رقيقة، مهذّبة، لطيفة، تداري المشاعر، وتبعث في السّامع روح الإحساس النّبيل، وتوقظ فطرته المدفونة تحت ركام المفاهيم الفاسدة، وتنفض عنها تراب الخمول، وتقتلع النّباتات الطّفيليّة عنها؛ لتجعل أرضيّتها مهيّأة لقبول أنوار الحقّ، فلا كذب، ولا مراوغة، ولا خداع، ولا مداهنة، بل دعوة صادقة بكلمات جميلة، مرنة، ميسّرة، كريمة، لا تمسّ الكرامة بل تحفظها، ولا تجرح الشّعور، بل توقظه، ولا تثير الحفيظة، بل تفتحها، وهذا مع كلّ النّاس حتى الطّغاة منهم؛ وخير مثال يجسّد هذه الحقيقة هو أمر الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام أن يخاطبا

(١) يفتّنون: يأخذون في فنون من القول، ولا يذهبون مذهباً واحداً.

(٢) دويّة: فاسدة ومريضة.

(٣) نهج البلاغة: ٣٣٥، خطبة: ١٩٤.

طاغيـــة عصـــرهم فرعـــون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[١].

كما أنّ اليُسر والكرم لونٌ من ألوان اللّيونة في التّعامل الاجتماعيّ، يقول تعالى في بيان بعض حقوق الوالدين: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[٢]، وفي معاملة ذوي الحاجة يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾[٣].

وهكذا كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله في تعامله الاجتماعيّ: قول ليّن، ووجه مبتشر، وطبع كريم، لا فظّ ولا غليظ؛ وأدقّ وصف لهذه الصورة الكريمة من التّعامل الرّسالي: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٤].

وفي باب التّبليغ والإرشاد، يقول صلى الله عليه وآله لمبعوثه إلى اليمن: «**يَسِّرْ وَلا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلا تُنَفِّرْ**»[٥]؛ فليس المرونة في الإسلام إلا مداراة العواطف، (وملاينة النّاس وحسن صحبتهم، واحتمالهم؛ لئلا ينفروا)[٦]؛ عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**جاءَ جِبْرَئيلُ** عليه السلام **إلى النّبيِّ** صلى الله عليه وآله، **فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلام، وَيَقولُ لَكَ: دارِ خَلْقي**»[٧].

---

(١) طه: ٤٣-٤٤.

(٢) الإسراء: ٢٣.

(٣) الإسراء: ٢٨.

(٤) آل عمران: ١٥٩.

(٥) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٢٣٧/٤.

(٦) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١١٥/٢، باب (درى).

(٧) الكافي: ٣٠٣/٣، ح/١٨٤٢.

ويقول ﷺ: «**أَمَرَني ربّي بِمُداراةِ النّاسِ، كَما أَمَرَني بِإِقامَةِ الْفَرائِضِ**»(١).

وعن الإمام الحسن عليه السلام: «**مُداراةُ النّاسِ نِصْفُ الْعَقْلِ**»(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ قَوْماً مِنَ النّاسِ قَلَّتْ مُداراتُهُمْ لِلنّاسِ، فَأُنفوا مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَيْمُ اللهِ ما كانَ بِأَحْسابِهِمْ بَأْسٌ، وَإِنَّ قَوْماً مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ حَسُنَتْ مُداراتُهُمْ، فَأُلْحِقوا بِالْبَيْتِ الرَّفيعِ**»(٣).

وأما الفرق بين المداراة والمداهنة - كما يقول الفيض الكاشاني: - «بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيتَ لسلامة دينك، ولما ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدارٍ، وإن أغضيتَ لحظّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن»(٤).

أمّا المرونة في الأحاديث الشّريفة تعني الرّفق بالنّاس، واللّطف بهم، وهو (لين الجانب وهو خلاف العنف)(٥)؛ فمن كان لطيفاً في معاملة النّاس، رفيقاً بهم، مترفّعاً عمّا في أيديهم، نال ما يريد منهم، يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَنْ كانَ رَفيقاً في أَمْرِهِ، نالَ ما يُريدُ مِنَ النّاسِ**»(٦).

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يوضَعْ عَلى شَيْءٍ إلا زانَهُ، وَلا**

---

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧١١، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٦٩/١، ح/١٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠٨/١٨.

(٣) الكافي: ٣٠٥/٣-٣٠٦، ح/١٨٤٦.

(٤) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ٣٣٤/٣.

(٥) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٤٦/٢، باب (رفق).

(٦) الكافي: ٣١٢/٣، ح/١٨٦٢.

نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ إلا شانَهُ»[١].

وقال ﷺ: «**الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْخُرْقُ شُؤْمٌ**»[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ لانَتْ كَلِمَتُهُ وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ**»[٣]، وهو أدقّ تعبير عن الرّفق واللّطف، ومدى أثره في نفوس وقلوب النّاس.

وخلاصة القول: إنَّ المرونة هي مداراة عواطف النّاس، والتّدرّج معهم في تغييرهم، وتحمّل آذاهم، ومعارضتهم بالّتي هي أحسن، وبكلام أدقّ: «هي تأجيل عمل معيّن لمصلحة معيّنة، أو تجزئة الموقف إلى مواقف متدرّجة كما حدث في سياسة الرّسول ﷺ وسنّته الحكيمة من المرونة والتّدرّج في بعض المواقف».

الْفَرْقُ بَيْنَ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَالْكَلِمَةِ الْخَبِيثَةِ:

ولأجل أن يكون البحث وافياً نجري المقارنة الآتية بين الكلمة الطّيّبة والكلمة الخبيثة في دلالتها، ومعطياتها، ونتائجها:

١- الكلمة الطّيّبة هي الّتي تصدر عن نيّة خالصة لله، وبأداء حسن، وبهدف بنّاء، ترضي الله تعالى، وتجلب للقائل رحمته، ورضوانه؛ وأمّا الكلمة الخبيثة فإنّها تغضب الله، وتنزل نقمته.

٢- الكلمة الطّيّبة تدلّ على خُلق رفيع، وعقل راجح، ونفس زكيّة، والعكس صحيح في عكسها.

---

(١) الكافي: ٣/٣٠٨-٣٠٩، ح/١٨٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٣٠٨، ح/١٨٥٠.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٠، ح/٥٢٠٧.

٣- الكلمة الطّيّبة تدلّ على سلامة الفطرة من التّلوّث، والكلمة الخبيثة تدلّ على دفنها تحت ركام الآثام، ومذامّ الأخلاق.

٤- الكلمة الطّيّبة تدلّ على تربية صحيحة في عائلة ذات دين وشرف، والكلمة الخبيثة تدلّ على سوء تربية ودناءة وراثيّة، وبها ينكشف تاريخ الإنسان سلباً أو إيجاباً.

٥- الكلمة الطّيّبة تدلّ على التزامٍ رساليّ، وهدفيّة مستقيمة في الحياة، والكلمة الخبيثة تدلّ على عدم الالتزام، وعلى فقدان الهدف السّليم، أو على انحراف عن جادّة الحقّ.

٦- الكلمة الطّيّبة تدلّ على الانضباط الخلقيّ، والوعي السّياسيّ والاجتماعي؛ والكلمة الخبيثة تدلّ على التّحلّل الخلقي، وفقدان القيم العالية، وانخفاض، أو هبوط الوعي السّياسي والاجتماعي.

٧- الكلمة الطّيّبة تفتح القلوب، وتشرح الصدور أمام هدفيّة الإنسان، وتجعله مقبولاً، ومحبوباً، ومحترماً بين النّاس، وذات رفعة فيهم، والكلمة الخبيثة تغلق القلوب، وتولّد روح الرَّفض لقائلها في المجتمع مهما بلغت قوّته، ومرتبته الاجتماعيّة، بل حتّى لو غَزُرَ علمه، وارتفع مقامه؛ لأنَّ القبيحَ قبيحٌ من كلّ أحد.

٨- الكلمة الطّيّبة تدلّ على العلم، والأدب، والحكمة، وعكسها يدلّ على الجهل، والحماقة، والسّفه، وسوء الأدب.

٩- الكلمة الطّيّبة تركّز دعائم الحبّ، والألفة، والسّلام، وتحفظ الإنسانيّة من القتل والقتال، والكلمة الخبيثة تؤدّي إلى صراع، وشقاق، وحروب، وتزهق النّفوس، وتسيل الدماء.

١٠- الكلمة الطّيّبة نورٌ يضيء الدَّرْب للإنسانيّة، ويهديها إلى سبل الحقّ،

والخير، والسّعادة، والكلمة الخبيثة ظلامٌ يعكّر سعادة الإنسانيّة، ويتركها تتخبّط في مسيرتها.

١١- وأخيراً الكلمة الطّيّبة كشجرة طيّبة مغروسة لقائلها في دار الرّحمة والبقاء، ولنتذكّر دائماً رقابة الله على كلّ كلمة نلفظها، وأنّها لن تذهب هباءً، وإنّما تُحفظ في كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة، ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1].

---

(١) ق: ١٧-١٨.

(الْبَحْثُ الرّابِعُ عَشَرَ)

خُطورَةُ اللِّسانِ

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وَأَمّا حَقُّ اللّسانِ: فَإِكْرامُهُ عَنِ الْخَنا**[1]**، وَتَعْوِيدُهُ الْخَيْرُ، وَحَمْلُهُ عَلى الأَدَبِ، وَإِجْمامُهُ**[2] **إِلا لِمَوْضِعِ الْحاجَةِ، وَالْمَنْفَعَةِ لِلدّينِ وَالدُّنْيا، وَإِعْفاؤُهُ عَنِ الْفُضولِ الشَّنِعَةِ الْقَلِيلَةِ الْفائِدَةِ الَّتي لا يُؤْمَنُ ضَرَرُها مَعَ قِلَّةِ عائِدَتِها، وَبَعْدَ شاهِدِ الْعَقْلِ، وَالدَّليلِ عليه، وَتَزَيُّنُ العاقِلِ بِعَقْلِهِ حُسْنُ سيرَتِهِ في لِسانِهِ، وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظيمِ**»[3].

لعلّ اللّسانَ أهمُّ جارحة من جوارح الإنسان التي تتجلّى فيه إنسانيّته بكلّ أبعادها النّفسيّة، والفكرية، والأخلاقيّة... فهو مائز بارز ينبئ عن قوّة العقل، وغزارة العلم، ورهافة الأدب، وشفافيّة النّفس... ولولاه لما فرَّق بين الإنسان وبين الحيوان؛ ولذا قيل: «ما الإنسانُ لولا اللّسان إلا صورةٌ ممثّلةٌ، أو بهيمة مهمَلةٌ»[4]، وقال زهير بن أبي سلمى[5]: [من الطّويل]

---

(١) الخنا: من قبيح الكلام، وقيل: هو الفحش، ينظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤/٢٤٤، باب (خنا).

(٢) الجَمام: الرّاحة، وأجمَّ الفرس: تُرِكَ فلم يُرْكَبْ، فعفا من تعبه، وذهب إعياؤه، ينظر لسان العرب: ١٢/١٠٥-١٠٦، باب (جمم)، والمقصود هنا: ترك النّطق باللّسان إلا في موضع الحاجة.

(٣) ابن شعبة، تحف العقول: ١٨٤ .

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/١٥.

(٥) ديوان زهير بن أبي سلمى: ١١٢ .

لسـان الفتـى نصـفٌ ونصـفٌ فـؤادهُ ... فلـم يبـقَ إلا صـورةُ اللحـمِ والـدمِ

وللّسان دور مهمٌّ في حياة الإنسـان، ومسـتقبله الأخـرويّ فكمـا هـو وسـيلة خير وصلاح، كذلك يمكن أن يكون وسيلة شرّ وفساد، يقـول الصّـحابيّ الجليـل أبو ذر الغفاري ﵁: «**إنّ هذا اللّسانَ مِفْتاحُ خَيْرٍ، وَمِفْتاحُ شَرّ**»(١).

ووصف أحدُ البلغـاء اللّسـانَ، فقـال: «اللّسـانُ أداةٌ يظهـر بهـا حسـن البيـان، وظاهرٌ يخبر عن ضمير، وشاهدٌ ينبئك عـن غائـب، وحـاكمٌ يُفصَـل بـه الخطـاب، وناطقٌ يُرَدّ به الجواب، وشافعٌ تُـدرَك بـه الحاجـة، وواصـفٌ تُعـرَف بـه الحقـائق، ومُعَزٍّ يُنفى بـه الحـزن، ومـؤنسٌ تـذهب بـه الوحشـة، وواعـظٌ ينهـى عـن القبـيح، ومُزَيِّنٌ يدعو إلى الحَسَن، وزارعٌ يحرث المودَّة، وحاصدٌ يستأصل الضّغينة، ومُلْهٍ يونقُ الأسماع»(٢).

إذن هو سلاحٌ ذو حـدّين يمكـن للمـرء أن يتّخـذه وسـيلةَ هـدمٍ، وتـدميرٍ، وإفسادٍ، ويمكـن أن يجعلـه وسـيلةَ إصـلاحٍ، يرسـي بهـا دعـائم الحـبّ، والوئـام، والسلام، كما يستطيع كذلك أن يثير به عواصف الفتن، ولهيـب نيـران الحـروب، فيزهق النّفوس، ويجري بحار الدّم، يقول رسـول الله ﷺ: «**فِتْنَةُ اللّسـانِ أَشَـدُّ مِنْ ضَرْبِ السَّيْفِ**»(٣).

خَواصُّ اللّسانِ:

يتميز اللّسان بخواصّ تفتقر إليها الجوارح الأخرى، ومن تلك الخواصّ:

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٢٩٧، ح/١٨٢٩.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيان: ٢/٧٥.

(٣) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧١/٢٨٦.

١- هو الكاشف عن حقيقة الإنسان؛ لأنَّ الإنسان يختفي وراء لسانه، ولا يكشفه إلا لسانه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**تَكَلَّموا تُعْرَفوا؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ**»(١).

فأنت تستطيع أن تُقَيّم الرَّجل من خلال كلامه، فتزن عقله، ومقدار علمه وأدبه... إذن هو ميزان يوزن الإنسان به، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**اللِّسانُ ميزانُ الإِنْسانِ**»؛ لأنَّ «**دَليل عَقْلِ الرَّجُلِ قَوْلُهُ**»(٢).

ويقول عليه السلام: «**يُسْتَدَلُّ عَلى عَقْلِ الرَّجُلِ بِحُسْنِ مَقالِهِ، وَعَلى طَهارَةِ أَصْلِهِ بِجَميلِ فِعالِهِ**».

«**يُنْبِئ عَنْ عَقْلِ كُلّ امْرِئٍ لِسانُهُ، وَيَدُلُّ عَلى فَضْلِهِ بَيانُهُ**»(٣).

٢- إنَّ أكثر خطايا ابن آدم من لسانه؛ لأنَّ آفاته كثيرة، كالفضول، والتّدخّل فيما لا يعني، والغيبة، والنّميمة، والخوض في الباطل، والمراء، والمجادلة، والفحش، والخصومة، والوعد الكاذب، والسّخرية، والاستهزاء، وغيرها... ولهذا يجب على المرء أن يتروّى في كلّ كلام يلفظه؛ فإن عليه رقيباً يكتبه، يقول تعالى: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾(٤).

ومن هنا وردت أحاديث كثيرة تؤكد على ضبط اللّسان من العثرات، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**ضَبْطُ اللّسانِ مُلْكٌ، وَإِطْلاقُهُ هُلْكٌ**».

---

(١) نهج البلاغة: ٥٥١، قصار الحكم: ٣٨١.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٠٩، ح/٤٠٢١-٤٠٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ح/٤٠٣٣-٤٠٢٨.

(٤) ق: ١٨.

«احْفَظْ رَأْسَكَ مِنْ (عَنْ) عَثْرَةِ لِسانِكَ، وَازْمُمْهُ بِالنَّهْي، وَالْحَزْمِ، وَالتُّقى، وَالْعَقْلِ».

«لِسانُكَ إِنْ أَمْسَكْتَهُ (إِنْ أَسْكَتَّهُ) أَنْجاكَ، وَإِنْ أَطْلَقْتَهُ أَرْداكَ»(١).

وقد ربطت بعض الأحاديث الشّريفة كلّ ملاكات أعمال الإنسان بمدى استقامة اللّسان؛ فقد رُوِيَ عن مُعاذ بن جبل ﵁ قال: «كنتُ مع النّبيّ ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنّة، ويباعدني عن النّار، قال: **لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسيرٌ عَلى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ ولا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتي الزَّكاةَ، وَتَصومُ رَمَضانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ**... ثمّ قال: **أَلا أُخْبِرُكُمْ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنامِهِ؟** قلت: بلى يا رسول الله، قال: **رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنامِهِ الْجِهادُ**، ثمّ قال: **أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذلِكَ كُلِّهِ؟** قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسانه، وقال: **كُفَّ عَلَيْكَ هذا**، فقلتُ: يا نبيَّ الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ فقال: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النّاسَ في النّارِ عَلى وُجوهِهِمْ، أَوْ عَلى مَناخِرِهِمْ، إِلا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

ونحن إذا تأملنا قوله ﷺ لمعاذ: « **أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذلِكَ كُلِّهِ؟**» مع ما تقدّم في الحديث من توحيد الله، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت... وربط ملاك كلّ تلك الأعمال بصلاح اللّسان نعرف مدى خطورة اللّسان في حياة الإنسان الدّنيويّة والأخرويّة، حيث أوقف الحديث قبول كلّ

---

(١) تصنيف غرر الكلم ودرر الكلم: ٢١٤، ح/٤١٨٣-٤١٧٩-٤١٨٤.

(٢) سنن التّرمذي: ١٢٥/٤.

تلك الأعمال، بل والاعتقادات على استقامة اللّسان بحفظه عن الوقوع فيما حرَّم الله تعالى؛ وذلك لأنَّ الإنسان قد يعمل الأعمال الصّالحة ثم يحبطها ويحرقها بعثرات لسانه كما لو ارتكب بعض المحرّمات كالغيبة والنّميمة.

٣- هو الوسيلة الأهمّ بين الله تعالى وبين رسله، وبين الرّسل والعباد؛ لأنّه بالكلام تبلّغ الرّسالات، ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾[١]؛ و«**لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ما بَعَثَ الأَنْبِياءَ وَالأَوْصياءَ بِالسُّكوتِ، إِنَّما يَبْعَثُهُمْ بِالْكَلامِ**»[٢].

٤- هو أعصى الجوارح على الإنسان؛ فإنّه لا يتعب، ولا يملّ، ولا مؤونة في إطلاقه وحبائله، وهو (أعظم آلة الشّيطان في استغواء الإنسان)[٣] بالتّبجّح بالكلام، وبالفضول، والكذب، والسّفه، والغيبة، والنّميمة، والفحش، والبذاءة، والهذر، والإسراف في المزاح...

٥- هو أعظم الجوارح الّتي تعرض الإنسان للخطر بل للهلاك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**دَعِ الْكَلامَ فيما لا يُعْنيكَ، وَفي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً، وَلَفْظَةٍ أَتَتْ عَلى مُهْجَةٍ**».

«**اللّسانُ سَبُعٌ إِنْ أَطْلَقْتَهُ عَقَرَ**».

«**بَلاءُ الإِنْسانِ في لِسانِهِ**».

«**رُبَّ كَلامٍ كَالْحُسامِ**».

---

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) الطّبرسي، الاحتجاج: ٢/٣٥٩.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدّين: ٣/١٠٨.

«رُبَّ حَرْفٍ جَلَبَ حَتْفاً».

«رُبَّ لِسانٍ أَتى عَلى إِنْسانٍ».

«كَمْ مِنْ دَمٍ سَفَكَهُ فَمٌ»(١).

وقالوا: «إنَّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله، فنزل يوماً وهو يتصيّد على تَلْعة، ونزل أصحابه حوله فأفاضوا في حديث كثير، فقال ذلك الإنسان: أترى لو أنَّ رجلاً ذُبِحَ على هذه التَّلعة هل كان يسيل دمُهُ إلى أوّل الغائط؟ فقال الملك: هَلُمّوا فاذبحوه لننظر، فذبحوه، فقال الملك: رُبَّ كلمةٍ تقول: دعني»(٢).

٦- (ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيّل أو معلوم، مظنون أو موهوم، إلا واللّسان يتناوله... [فهو] رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى، ولا حد، له في الخير مجال رحب، وفي الشّرّ ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كلّ ميدان، وساقه إلى شفا جرف هارٍ إلى أن يضطرَّه إلى البوار)(٣).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«اللّسانُ جَموحٌ بِصاحِبِهِ»**(٤).

٧- إنَّ آثاره وأعماله تنجرّ على باقي الجوارح، رُوِي عن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إذا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتِ الأَعضاءُ كُلُّها تَذْكُرُ اللّسانَ، أَيْ تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فينا، فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وَإِنِ**

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢١٢-٢١٣، ح/٤١٠٨-٤١٤٣-٤١٤٨-٤١٥٠-٤١٥١-٤١٥٤-٤١٥٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٢٢/١٩.

(٣) إحياء علوم الدّين: ١٠٨/٣.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢١٣، ح/٤١٤٢.

اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»(١).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إنَّ لِسانَ ابْنِ آدَمَ يُشْرِفُ عَلى جَميعِ جَوارِحِهِ كُلَّ صَباحٍ، فَيَقولُ: كَيْفَ أَصْبَحْتُمْ، فَيَقولونَ: بِخَيْرٍ إِنْ تَرَكْتَنا، وَيَقولونَ: اللهَ اللهَ فينا، وَيُناشِدونَهُ، وَيَقولونَ: إِنَّما نُثابُ بِكَ، وَنُعاقَبُ بِكَ»**(٢).

الصَّمْتُ وَالْكَلامُ:

لقد وردت روايات وأحاديث وحِكم كثيرة تمدح الصَّمت، وترجّحه على الكلام؛ فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**قالَ لقمانُ لابْنِهِ: يا بُنَيَّ، إن كُنْتَ زَعَمْتَ أنَّ الْكَلامَ مِنْ فِضَّةٍ، فَإِنَّ السُّكوتَ مِنْ ذَهَبٍ**»(٣).

كما وُصِفَ الصَّمت بأجمل الأوصاف فهو كما في الأحاديث: علامة العقل، وآية النّبل، وثمرة العقل، وروضة الفكر، وزينة العالم، وستر الجاهل، وزين العلم، وعنوان الحلم... كما أثبتت أحاديث أخرى آثاره؛ فهو منجاةٌ من الهلكة والهذر، ويوجب الوقار، ويُكسِب المحبّة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنْ أَحْبَبْتَ سَلامَةَ نَفْسِكَ، وَسَتْرَ مَعايِبِكَ، فَأَقْلِلْ كَلامَكَ، وَأَكْثِرْ صَمْتَكَ، يَتَوَفَّرْ فِكْرُكَ، وَيَسْتَنِرْ قَلْبُكَ، وَيَسْلَمِ النّاسُ مِنْ يَدِكَ**»(٤).

وهنا تبرز لنا الآثار المهمّة للصَّمت: فهو سلامةٌ للنَّفس من المخاطر الّتي

---

(١) إحياء علوم الدّين: ١٠٩/٣.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٩٨/٣، ح/١٨٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩٥/٣، ح/١٨٢٥.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢١٦، ح/٤٢٥٢.

يتعرّض لها الإنسان نتيجة زلّة لسانه، ويستر نواقصه وعيوبه، ويتركّز فكره، ويتنوّر قلبه، ويسلم النّاس من يده، فأيّ عاقل يزهد بهذه الفوائد العظيمة؟

قال أحد الحكماء: «في الصَّمت سبعة آلاف خير، وقد اجتمعت في سبع كلمات، في كل كلمة ألف، أوّلها: الصّمت عبادة من غير عناء، والثّانية: زينة من غير حليّ، والثّالثة: هيبة من غير سلطان، والرّابعة: حصن من غير حائط، والخامسة: الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد، والسّادسة: راحة الكرام الكاتبين، والسّابعة: ستر لعيوبه»[1].

والأحاديث والحكم نثراً وشعراً في مدح الصَّمت أكثر من أن تحصى، وجميل ما قاله الشّافعي[2]: [من الطّويل]

إذا رُمتَ أن تحيا سليماً من الرَّدى ... ودينك موفور وعِرضك صَيّنُ

فلا ينطقَنْ منك اللّسان بسوءَةٍ ... فكلُّك سوءاتٌ، وللنّاس ألسُنُ

وعيناك إن أبدت إليك معايباً ... لقوم، فقل: يا عين للناس أعيُنُ

والإسلام عندما حثَّ على الصَّمت لم يكن يقصد الصَّمت المطلق في كلّ حياة الإنسان، بل أراد أن يكون الكلامُ موزوناً تامّاً سالماً من العيوب كالفضول والتّدخّل في ما لا يعني، والقول في غير الوقت المناسب، والموضع غير المقبول فيه الكلام.

وبعبارة أخرى: إنَّ لكلّ من الصَّمت والكلام شروطاً يجب أن تتوفّر فيه، ليكون تامّاً مقبولاً، فلا الكلام على إطلاقه أفضل، ولا الصَّمت على إطلاقه

---

(١) السيد حسن القبانچي، شرح رسالة الحقوق: ١/١٠٩.

(٢) ديوان الإمام الشّافعي: ١١٤.

أحسن، وإنّما لكلّ منهما ما يناسبه، وأفضل كلام في المقارنة بين الكلام والسّكوت ما ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام حين سُئِلَ عن الكلام والسّكوت أيّهما أفضل؟ فقال عليه السلام: «**لِكُلّ واحِدٍ مِنْهُما آفاتٌ، فَإذا سَلِما مِنَ الآفاتِ فَالْكَلامُ أَفْضَلُ مِنَ السُّكوتِ**»، قيل: «وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟» قال: «**لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ما بَعَثَ الأَنْبياءَ وَالأَوْصياءَ بِالسُّكوتِ، إنَّما يَبْعَثُهُمْ بِالْكَلامِ، وَلا اسْتُحِقَّتِ الْجَنَّةُ بِالسُّكوتِ، وَلا اسْتوجِبَتْ وَلايَةُ اللهِ بِالسُّكوتِ، وَلا تُوُقِّيَتِ النَّارُ بِالسُّكوتِ، إنَّما ذلِكَ كُلُّهُ بِالْكَلامِ، وَما كُنْتُ لأَعْدِلَ الْقَمَرَ بِالشَّمْسِ، إنَّكَ تَصِفُ فَضْلَ السُّكوتِ بِالْكَلامِ، وَلَسْتَ تَصِفُ فَضْلَ الْكَلامِ بِالسُّكوتِ**»[1].

إذن نستطيع أن نقرّر أنّ لكلّ من السّكوتِ والكلامِ فضلاً، ولكن في محلّه، فقد يكون السّكوت أفضل من الكلام في حالات معيّنة، وقد يكون العكس؛ فالتّقدير للمقام، وللمقال، وللحاجة؛ والمناسبة هي الّتي تحدّد ذلك، وكلّ ذلك يوزن بميزان العقل؛ فقد يكون الكلام في بعض الأحيان لغواً وفضولاً حين لا يكون مناسباً للمقام، وقد يكون السّكوت جموداً وتحجّراً وغفلةً حين يقتضي المقامُ الكلامَ، وعلى كلّ حال ينبغي للمرء أن لا يكون في غفلة في أيّ حالة من حالاته سواء كان ساكتاً، أو متكلّماً، أو متأمّلاً.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**جُمِعَ الْخَيْرُ كُلُّهُ في ثَلاثِ خِصالٍ: النَّظَرُ، وَالسُّكوتُ، وَالْكَلامُ، فَكُلُّ نَظَرٍ لَيْسَ فيهِ اعْتِبارٌ فَهُوَ سَهْوٌ، وَكُلُّ سُكوتٍ**

---

(١) الطّبرسي، الاحتجاج: ٣٥٩/٢.

لَيْسَ فيهِ فِكْرَةٌ فهُوَ غَفْلَةٌ، وكُلُّ كَلامٍ لَيْسَ فيهِ ذِكْرٌ فهُوَ لَغْوٌ، فَطوبى لِمَنْ كانَ نَظَرُهُ عِبَراً وَسُكوتُهُ فِكْراً، وكَلامُهُ ذِكْراً، وبَكى عَلى خَطيئَتِهِ، وأَمِنَ النّاسُ شَرَّهُ»(١).

الْقَلْبُ وَاللِّسانُ:

لقد ربطت الأحاديث الشّريفة بين القلب واللّسان، وجعلت بينهما تلازماً مع اختلاف في الأشخاص والأهداف... فالمؤمن عندما يصدر الكلام يصدره بعد تأمّل، وتفكّر في منافعه، ومضارّه، وقربه وبعده من رضوان الله؛ ولذا عبَّرت الأحاديث بأنَّ لسانه وراء قلبه، أو لسانه في قلبه، وبعكسه المنافق الّذي يجعل قلبه تابعاً للسانه، يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِسانَ الْمُؤْمِنِ وَراءَ قَلْبِهِ، فَإذا أَرادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ تَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ، ثُمَّ أَمْضاهُ بِلِسانِهِ، وَإِنَّ لِسانَ الْمُنافِقِ أَمامَ قَلْبِهِ فَإِذا هَمَّ بِشَيْءٍ أَمْضاهُ بِلِسانِهِ، وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُ بِقَلْبِهِ**»(٢).

وخلاصة الكلام: إنَّ الإنسان ينبغي له أن يتأمّل، ويفكر في كلّ كلام يريد أن يقوله، وينظر هل كلامه بدافع من أهواء نفسيّة، وميول ذاتيّة؟ أم لأهداف إلهيّة؟

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْمَرْءُ مَخْبوءٌ تَحْتَ لِسانِه، فَزِنْ كَلامَكَ وَأَعْرِضْهُ عَلى الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِنْ كانَ للهِ، وَفي اللهِ فَتَكَلَّموا بِهِ، وَإِنْ كانَ غَيْرَ ذلِكَ فَالسُّكوتُ خَيْرٌ مِنْهُ**»(٣).

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٨٠، ح/٤٧، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٥٢٤/٦، ح/٣٣٤٥.

(٢) الفيض الكاشانيّ، المحجّة البيضاء: ١٩٥/٥.

(٣) المحجّة البيضاء: ١٩٦/٥-١٩٧.

مِنْ آفاتِ اللّسانِ:

لقد أحصى علماءُ الأخلاقِ آفات اللّسان وأخطاره حتّى بلغت عند بعضهم أكثر من عشرين آفة وخطر... نذكر منها: التّدخّل فيما لا يعني، وفضول الكلام، والخوض في الباطل، والمراء، والمجادلة، والخصومة، والتّكلّف بالكلام، والفحش، والسّبّ، وبذاءة اللّسان، والمزاح بإفراط، والسّخرية، والاستهزاء، وإفشاء السّرّ، والكذب، والغيبة، والنّميمة...

ونحن نتحدّث باختصار عن حالة التّدخّل فيما لا يعني، الّتي وصف عكسها بأنَّه «**مِنْ حُسْنِ إسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعنيه**»[1]، فهي نوعٌ من الفضول يُعَرِّضُ الإنسانَ إلى المقت والإهانة، والازدراء من قبل الآخرين...

وله أضرار كثيرة منها: أنَّ الإنسان قد يتكلّم في شيء أو أمر هو مستغنٍ عنه، ولا حاجة له به، كمن يتحدّث في شيء غير مطلوب منه، أو أنَّ السامع لا يحتاجه، ولا يتقبّله، ولو فرضنا أنَّه لا ضرر فيه فهو ضياع للوقت الثّمين فيما لا طائل فيه، وفوق ذلك لربّما يكون محاسباً على الكلام اللّغويّ العبثيّ، وعلى أيّ تقدير أنَّه لا نفع فيه، أو فيه نفع ولكنّه قليل الأهميّة، فمثله كمثل من وجد كنزاً عظيماً، وبإمكانه أن يأخذ منه كلّ ما يريد، ولكنّه حمل منه شيئاً قليلاً لا يعتدّ به، وهذا مثال من ترك طلب العلم، وأشغل نفسه بالتّفرّج على المارّة، ومعرفة أسمائهم عبثاً، قال أنس: «استشهد غلامٌ منّا يوم أحد، ووجدنا على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمّه التّراب عن وجهه، وقالت: هنيئاً لك الجنّة يا بنيّ، فقال النّبيّ ﷺ: **وَما يُدْريكِ لَعَلَّهُ كانَ يَتَكَلَّمُ بما لا يَعْنيه، وَيَمْنَعُ ما لا**

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٥٣٧/٨.

يَضُرُّهُ»[١].

وفي أمالي الطّوسي عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**اسْمَعوا مِنّي كَلاماً هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الدُّهْمِ**[٢] **الْمُوَقَّفَةِ: لا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بما لا يَعْنيه، ولْيَدَعْ كَثيراً مِنَ الْكَلامِ فيما يَعْنيهِ، حَتَّى يَجِدَ لَهُ مَوْضِعاً، فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَنى عَلى نَفْسِهِ بِكَلامِهِ، وَلا يُمارِيَنَّ أَحَدُكُمْ سَفيهاً، ولا حَليماً؛ فَإِنَّهُ مَنْ مارى حَليماً أَقْصاهُ، وَمَنْ مارى سَفيهاً أَرْداهُ، وَاذْكُروا أَخاكُمْ إِذا غابَ عَنْكُمْ بِأَحْسَنَ ما تُحِبّونَ أَنْ تُذْكَروا بِهِ إِذا غِبْتُمْ عَنْهُ، واعْمَلوا عَمَلَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُجازى بِالإِحْسانِ مَأْخوذٌ بِالأَجْرامِ**»[٣].

حَدُّ التَّدَخُّلِ فيما لا يَعْني:

إنَّ كلمة التّدخّل فيما لا يعني كلمة عامّة، ولذلك لا بدّ من تحديد لها لتكون واضحة، يقول بعض علماء الأخلاق: إنَّ حدود ذلك أن تتكلّم في أمر لو سكتَّ عنه لم تأثم، ولم تتضرّر منه، مثال ذلك: أن تجلس مع قوم فتحكي ما لو سكتَّ عنه لم يصبْك إثمٌ، ولا ضررٌ، كما لو تحدثْتَ عن أسفارك، وما رأيتَ فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الأحداث، وما استحسنتَهُ من الأطعمة والثّياب، وما تعجَّبْتَ منه من مشايخ البلاد، ووقائعهم؛ فهذه أمور لو سكت الإنسان عنها لم يأثم، ولم يتضرّر.

---

(١) المحجّة البيضاء: ٥/٢٠٠.

(٢) الدُّهم - بالضّم - جمع الأدهم، وهو من الخيل والإبل: الشّديد الورقة - أي السّواد في غبرة - حتى ذهب البياض الّذي فيه، فإن زاد على ذلك حتى اشتدَّ السّواد فهو جون، بحار الأنوار: ٧١/٢٨٢.

(٣) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٣٥١، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٧/٤٨١-٤٨٢، ح/٤٢٧٢.

ومن أمثال التّدخّل فيما لا يعني أن تسأل صاحبك عن أمور خاصّة به لا تهمّك، ولا تنتفع بها، وقد يكون في هذه الأسئلة حرجٌ، مثلاً تسأله: هل تصلّي صلاة اللّيل؟ فإن قال: نعم، كان مُظْهِراً لعبادته، وقد يوقعه ذلك في الرّياء، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً إيّاك، وإن أراد أن يجامل وأجاب احتاج إلى جهدٍ، وتعبٍ، وتورية.

ومن أمثال التّدخّل فيما لا يعني أن يسأل عن مسألة لا حاجة له بها، وهكذا...

وأمّا أسباب حالة التّدخّل فيما لا يعني: فهو حبُّ الاستطلاع، والحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المجاملة بالكلام على سبيل التّودّد، أو قتل للوقت بحكايات لا فائدة فيها...

وعلاج ذلك كله أن يعلم أنَّ الموت بين يديه، وأنَّه مسؤول عن كلّ كلمة يقولها، وليستحضر الرّقابة الإلهيّة، وحضور الملكين الرّقيب والعتيد الّذَين يسجّلان كلّ كلمة يلفظها، وليتذكّر أنَّ جوارحه سِجِلٌّ يشهد عليه يوم القيامة، وأنَّ أنفاسه تُعَدُّ عليه، وأنَّ هذا اللّسان إنّما أعطاه الله له ليكسب به النّعيم، وأن يحاول بعض الوقت أن يلزم نفسه بالسكوت.

يقال: «إنّ قُسَّ بن ساعدة، وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدتَ في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصرَ، وقد وجدتُ خصلةً إن استعملها الإنسانُ سترتَ العيوب كلّها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللّسان»[1].

(١) الأبشيهي، المستطرف في كلّ فنّ مستظرف: ٢٦٨/١.

[من الكامل][(١)]

احفـــظ لســـانك أيّهـــا الإنســـان ... لا يلـــــدغنَّك إنَّـــــه ثعبـــــانُ

كـــم فـــي المقـــابر مـــن قتيـــل لســـانه ... كانـــت تهـــاب لقـــاءَهُ الأقـــرانُ

(١) ديوان الإمام الشّافعي: ١١٤.

(الْبابُ الثّالِثُ)

مَساوِئُ الأَخْلاقِ

(الْبَحْثُ الأَوَّلُ)

الأَهْوَاءُ وَالْمُيولُ النَّفْسِيَّةُ في الْقُرْآن[1]

(١) منهجيّة هذا البحث وأفكاره أخذت من بعض المحاضرات الأخلاقيّة لسماحة آية الله الأستاذ الشّيخ محمّد مهدي الآصفي قدّس سرّه الّتي ألقاها علينا في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

مَصادِرُ الْحَرَكَةِ في نَفْسِ الإِنْسانِ:

يستمدّ الإنسان طاقته الحركيّة من مصادر ومنابع خمسة كامنة في ذاته، وهي:

١- **الهوى**: وهي الميول الدّافعة إلى إشباع الشّهوات النّفسيّة، وهذا المصدر يستبطن الشّرّ، والهبوط، والانحدار من سموّ الإنسانيّة إلى حضيض الحيوانيّة؛ ولذا عبَّر عنه القرآن الكريم بـ(الهوى)؛ لأنَّه يهوي بالإنسان من سموّ الإنسانيّة الكريمة إلى مستوى أحطّ من الحيوانيّة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الفرقان: ٤٤.

٢- **الفطـرة**: وهـي مجموعـة الغرائـز الخيّـرة الكامنـة فـي نفـس الإنسـان، وتستبطن عوامل الخير كحبّ الإحسان، والجمال، وحبّ الله، والمعرفـة، والعلـم، والتّعاطف مع الآخرين...

٣- **العقل**: وهو مصدر التّمييز والتّشخيص في الإنسان.

٤- **الإرادة**: وهي القوّة الدّافعة للإنسان لتقرير مصيره بنفسه.

هذه العوامل الأربعة عوامل دافعة ومحرّكة للإنسان فـي المرحلـة النّظريّـة، أو في مرحلة التّخطيط، والتّفكير؛ وأمّا في مرحلـة التّنفيـذ فـإنّ الهـوى، والفطـرة، والإرادة دوافع، وأمّا العقل فمشخّص ومميّز.

٥- **الضّـمير**: وهـو الشّـعور والإحسـاس الـدّاخلي الـرّادع عـن كثيـر مـن الجرائم، فهو قوّة تأنيب ومعاقبة للإنسان نفسه بنفسه، بعد الوقوع فـي المخالفـات الشرعيّة أو الإنسانيّة، وهو ما يعبّر عنه بـ(عذاب الضّـمير)، فحركـة الإنسـان تـدور ضمن هذه المحرّكـات الخمسـة، ومنهـا تسـتمدّ قوّتهـا وطاقتهـا، وحـين نريـد أن نعرف العوامل المؤثّرة على سير حركـة الإنسـان الذاتيّـة فـلا بـدّ أن نـدرس هـذه العناصر الخمسـة، ومـع الأسـف نحـن لا نملـك دراسـة قرآنيّـة واضـحة فـي هـذا المجال.

وفي هذا البحث ندرس الهوى فقط ضمن نقاط:

١- ما هو الهوى؟

٢- أخطار الهوى.

٣- كيف يتحرّر الإنسان من أهوائه؟

٤- لماذا نهى الإسلام عن اتّباع الهوى؟

تَفْسيرُ الْهَوى:

قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[١].

قال الرّاغب الأصفهاني في مفرداته: «الهوى ميل النّفس إلى الشّهوة، ويقال ذلك للنّفس المائلة إلى الشّهوة، وقيل سمّي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[٢].

وقال ابن منظور: «هوى النَّفس: إرادتُها، والجمع الأهواء... قال اللّغويّون: الهوى محبّة الإنسان الشّيء، وغلبته على قلبه»[٣].

فالهوى مجموعة الميول والغرائز النّفسيّة التي تحرّك الإنسان، وتحقّق عنده مستوى من اللّذّة، والاتّباع المنهيّ عنه هو الانجرار وراء تلك الميول، وتجاوز الحدود الشّرعيّة.

وقد وردت كلمة الهوى في القرآن الكريم في مواقع كثيرة، كما وردت في السّنّة المطهرة بكثرة كالحديث المشهور عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّما أَخافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَيْنِ: اتّباعَ الْهَوى وَطولَ الأَمَلِ، أَمّا اتّباعُ الْهَوى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمّا طولُ الأَمَلِ فَيُنْسي الآخِرَةَ**»[٤].

وكقول الإمام الصادق عليه السلام: «**احْذَروا أَهْواءَكُمْ كَما تَحْذَرونَ أَعْداءَكُمْ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدى لِلرِّجالِ مِنِ اتّباعِ أَهْوائِهِمْ، وَحَصائِدِ**

---

(١) النّازعات: ٤٠.

(٢) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٥٤٨، باب (هوى).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ٣٧٢/١٥، باب (هوى).

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣٥/٤، ح/٢٦٧٥.

أَلْسِنَتِهِمْ»[١].

خَصائِصُ الْهَوى:

لغريزة الهوى مجموعة خصائص؛ نذكر أهمها:

أوّلاً: إنَّ طلب الغريزة مطلق، ولا نفاد له، ولا يتوقّف عند حدّ، فالرّغبة النّاجمة من هذه الغريزة، والصّادرة عنها لا تعرف الحدود، فمهما ملك ابن آدم من الأملاك والخزائن فإنَّه يبقى يطلب المزيد بدون توقّف؛ لأنَّ رغبة الإنسان بالتّملّك ليس لها حدود، بل هي كجهنم كلّما أُلقي فيها قالت: ﴿**هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾[٢]، وعن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغى إِلَيْهِما ثالِثاً**»[٣].

قال حمزة بن حُمران: «شكا رجلٌ إلى أبي عبد الله عليه السلام أنَّه يطلب فيصيب ولا يقنع، وتنازعه نفسه إلى ما هو أكثر منه؟ وقال: علّمني شيئاً أنتفع به، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **إنْ كانَ ما يَكْفيكَ يُغْنيكَ، فَأَدْنى ما فيها يُغْنيكَ، وإِنْ كانَ ما يَكْفيكَ لا يُغْنيكَ، فَكُلُّ ما فيها لا يُغْنيكَ**»[٤].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كانَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ** عليه السلام **يقول: ابْنَ آدَمَ، إنْ كُنْتَ تُريدُ مِنَ الدُّنْيا ما يَكْفيكَ فَإِنَّ أَيْسَرَ ما فيها يَكْفيكَ، وإِنْ كُنْتَ تُريدُ ما لا يَكْفيكَ فَإِنَّ كُلَّ ما فيها لا يَكْفيكَ**»[٥].

---

(١) الكافي: ٣٤/٤، ح/٢٦٧٣.

(٢) ق: ٣٠.

(٣) الفتّال النّيسابوري، روضة الواعظين: ٤٢٩.

(٤) الكافي: ٣٦٠/٣، ح/١٩٢٩.

(٥) الحرُّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٢٤١/١٥.

ثانياً: ليس للهوى مدى محدودٌ على وفق مراحل العمر: يعني ليس هناك مرحلة من مراحل العمر يشعر الإنسان بالاكتفاء والاستغناء، وإنّما تبقى الغريزة تلحّ على الإنسان في كلّ مراحل حياته، فالحرص هو غريزة التّملّك والتّجميع، وطول الأمل من غريزة حبّ البقاء، قال بهلول[1]: «إنَّ أمّهات الشهوات ثلاثة: الجنس، والمال، والجاه، وقد استطعت أن أروّض نفسي في الأولى والثّانية منذ أيام الشّباب وتمكّنتُ منهما، وأمّا الثّالثة فلا زلتُ أشعر بخطورتها، وأخشى من الوقوع في شركها، وأنا في التّسعينات من عمري»[2].

ثالثاً: الإلحاح في الطّلب: غريزة الهوى ضاغطة على سلوك الإنسان، بل هي من أقوى عوامل الضّغط عليه، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ**﴾[3].

فهذه الآية مجموعة تأكيدات ضمن أدوات التّأكيد بأنَّ الهوى قوّة ضاغطة قويّة في ذات الإنسان، ولا ينجو من سيطرتها إلا من رحم الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلا وَإِنَّ الْخَطايا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُها، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النّارِ، أَلا وَإِنَّ التَّقْوى مَطايا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَيْها أَهْلُها، وَأُعْطوا أَزِمَّتَها، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ**»[4].

رابعاً: إنّها لا تسلب الإنسان حرّيته وإرادته، فلا يصحّ قول من يقول: إنّي فقدت الإرادة أمام ضغوط الأهواء؛ لأنَّ سلطان الإرادة عند أهل الإرادة يبقى هو

---

(١) بهلول: هو رجل إيرانيٌّ مرتاض معاصر، وليس بهلول المعروف في التّأريخ.

(٢) الشّيخ محمّد مهدي الآصفي، الهوى في حديث أهل البيت عليهم السلام: ١٧.

(٣) يوسف: ٥٣.

(٤) نهج البلاغة: ٦٦، خطبة: ١٦.

الحاكم الأعلى، والفرق بين الإنسان والحيوان أنّ الحيوان محكوم للغريزة، بينما الإنسان لا تحكمه الغريزة والأهواء فقط، فهناك فرق جوهريٌّ بين تكوين الإنسان وبين تكوين الحيوان والملائكة، فالحيوانات والملائكة كلٌّ منهما يتحرّك ضمن بُعْدٍ واحد وعامل واحد، وأمّا الإنسان فذو بُعْدين معاً، قال عبد الله بن سنان: (سألتُ أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام، فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: **قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِب** عليه السلام: **إنَّ اللهَ رَكَّبَ في الْمَلائِكَةِ عَقْلاً بِلا شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ في الْبَهائِمِ شَهْوَةً بِلا عَقْلٍ، وَرَكَّبَ في بَني آدَمَ كِلَيْهِما، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهائِمِ**»[(١)].

خامساً: من خصائص الهوى أنّه يتلطّف إذا حَكّمَ الإنسان إرادته وعقله في شهواته، وبالعكس لو استجاب لها فإنّها تغلظ وتستحكم وتقوى...

وعندما يسيطر الإنسان على أهوائه النّفسيّة تضعف، وتتلطّف، وتخفّ تدريجيّاً، حتّى تصل إلى درجة اللّطف والصّفاء، ويصبح صاحبها يكره الحرام فضلاً عن أن يقع فيه، بعدما كان يجد في نفسه دافعاً إليه؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مِنَ الْمُداوَمَةِ عَلى الْخَيْرِ كَراهِيَةُ الشَّرِّ**»[(٢)].

فالإنسان عندما يداوم على خصلة من خصال الخير فإنَّ معاكساتها تضعف في نفسه فإذا داوم على العفّة كره الفجور، وإذا داوم على الكرم كره البخل وهلّم جرّى...

---

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥١/١، ووسائل الشّيعة: ١٦٤/١١ .

(٢) ابن شعبة، تحف العقول: ١٣ .

دَوْرُ الْهَوى في حَياةِ الإِنْسانِ:

للإفساد في حياة الإنسان قطبان: أحدهما داخليّ، والآخر خارجيّ، أمّا القطب الدّاخليّ فهو الهوى، وأما القطب الخارجيّ فهو الطّاغوت؛ فمهمّة الهوى إفساد ضمائر النّاس، وتلويث فطرتهم، وتعطيل عقولهم... ومهمة الطّاغوت إفساد الوضع الاجتماعي للنّاس؛ لكي يسيطر عليهم، ومن خلال هذين القطبين يحاول الشّيطان أن ينفذ في جميع مجالات الحياة... فالهوى والطاغوت مدخلان مهمّان للشّيطان إلى النّفس، وإلى المجتمع.

وكما أنَّ هناك قطبين للإفساد، فهناك قطبان للإصلاح، وهما: العقل والدّين، أحدهما يحصّن الإنسان من الدّاخل، والآخر يحصّن المجتمع، فهما حصنان للفرد وللمجتمع، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعَقْلُ شَرْعٌ مِنْ داخِلٍ، وَالشَّرْعُ عَقْلٌ من خارِجٍ**»(١).

ويقول عليه السلام: «**قاتِلْ هَواكَ بِعَقْلِكَ تَمْلِكْ رُشْدَكَ**»(٢).

لِماذا خَلَقَ اللهُ الْهَوى عِنْدَ الإِنْسانِ؟

هناك تساؤل، وهو: لماذا ابتلى الله الإنسان بالهوى؟ لماذا لم يجعله كالملائكة؟ وإذا كان هو الّذي جعل الهوى في داخل الإنسان غريزة ثابتة فلماذا نهى الإنسان عن اتّباعه؟

الجواب: للهوى في حياة الإنسان ثلاثة أدوار مهمّة:

---

(١) الشّيخ الطّريحي، مجمع البحرين: ٤٢٥/٥، باب (عقل).

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٤، ح/٨١٨.

أوّلاً: إنّ الهوى من أقوى عناصر التّحريك في نفس الإنسان، وقد ربط الله تعالى معظم القضايا الحيويّة المهمّة في حياة الإنسان بهذا العنصر الأساسيّ.

(فمن) تلك القضايا الحسّاسة والمهمّة الّتي لها ارتباط قويّ بالهوى التّناسل، فلولا غريزة الجنس، والرَّغبة الكامنة في الإنسان فيه لانقطع الجنس البشريّ.

(ومنها) إنّ نمو الإنسان المرتبطة بالأكل والشّرب، فلو لم يجد الإنسان لذّةً في الأكل والشّرب لما نما، ولما استمرّ وجوده.

(ومنها) غريزة الاجتماع، والّتي تمثّل ضرورة مهمّة في الحياة؛ فإن الله ربطها بالهوى، وبهذه الغريزة تحفظ الحياة الاجتماعيّة.

(ومنها) غريزة حبّ التّملّك المرتبطة بعجلة الاقتصاد، ولولاها لما سارت عجلة الاقتصاد؛ وكذلك الدّفاع عن النّفس ارتبط بغريزة الغضب، ولولاها لما دافع الإنسان عن نفسه.

ثانياً: إنّ الأهواء لها دورٌ مهمٌّ في دفع الإنسان إلى صعود سلَّم الكمال والوصول إلى الله تعالى؛ وذلك أنّ الإنسان يتميّز عن سائر الكائنات الأخرى أنَّ تكامله يتمّ بصورة إراديّة بينما الكائنات الأخرى تتكامل بصورة قهريّة؛ ولهذا السبب جعل الله الإنسان خليفته في الأرض؛ فالكائنات كلّها من حيوان وجماد ونبات وملائكة مُسَخَّرَةٌ لإرادة الله، وتسير وفق نظامٍ معيّنٍ لا تستطيع الخروج عنه، أمّا الإنسان فليس كذلك، وإنّما هو خليفة ووكيل ينفّذ أوامر الله باختياره.

وهناك فرق بين العمل الذي تؤدّيه الآلة المُسخَّرة، وبين العمل الذي يؤدّيه الوكيل؛ فعمل الأوّل بدون إرادة، وهذا معنى التّسخير، والثّاني يعمل بإرادة

وحركة إراديّة تتمّ من خلال الكدح، وبعبارة أخرى: الفرق بينهما كالفرق بين من يهبط من الجبل بفعل الجاذبيّة، ويفقد إرادته وقوّته، وبين من يصعد الجبل ويقاوم الجاذبيّة؛ ولذا عبَّر القرآن الكريم عن عمليّة تكامل الإنسان بـ(الكدح)، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1].

فتكامل الإنسان إذن يتمّ من خلال العبور على بحر طافح بالأهواء، والشَّهوات، والميول الجاذبة، وهو بحركته إلى الله يقاوم تلك الميول بإرادته، ولو سُلِبَ الإنسانُ هذه الأهواء لسُلِبَتْ منه الحركةُ، وعجز عن التّكامل الرّوحيّ، والنّفسيّ، والعقليّ.

ثالثاً: إنَّ الله تعالى جعل في كلّ جانب من جوانب الكون الرّحيب ذخائر يتمّ حركة الكون واستمرارية بقائه من خلالها؛ فالبحار ذخائر للإرواء، والهواء ذخائر للتّنفّس وغيره، وفي الأرض ذخائر كامنة، وفي الشّمس ذخائر من النّور والحرارة، هذا من جانب، ومن جانب آخر جعل الله في نفوس أبناء آدم ذخائر؛ فهذه الأهواء والشّهوات والميول من الذّخائر التي أودعها الله في نفوسنا لتتحوّل بإرادتنا إلى عزمٍ، وبصيرةٍ، وحركةٍ نتيجةَ تفاعلات داخل النّفس؛ ونحن لا ندري كيف تتمّ هذه التّفاعلات، ولكن نعلم أنَّ مقاومة يوسف عليه السلام لرغبة الجنس تحوَّلت إلى علمٍ، وحكمةٍ، وبصيرةٍ...

إذن هناك ذخائر كامنة في نفس الإنسان تتحوّل بإرادته إلى قوّة معنويّة: علم، وبصيرة، وعزم، ونور في الحياة يمشي به بين الناس.

(١) الانشقاق: ٦.

ومن الحقائق النَّفسية المهمّة أنّ كلّ رغبة وميل نفسيّ عندما يقاومه الإنسان يتحوّل إلى عكسه، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(١)، أي كافحوا شهواتكم يعطيكم الله علماً وبصيرةً، وهذا باب واسع لم يلجه العلماء مع الأسف، وهو ينتظر من يدرسه.

لماذا نَهى الإسْلامُ عَنِ اتّباعِ الْهَوى؟

إنّ الإسلام عندما نهى الإنسان عن اتّباع الهوى، وجعل ردع النّفس عن أهوائها في سبيل الله مقياساً لنجاح الإنسان في الحياة الدّنيا، وطريقاً لنجاته في الآخرة... لم يردعه كي يحرّمه عن لذائذه النّفسيّة، ولا لكي يكبته كما تكبته الرّهبانيّة، وإنّما الأساس في ذلك أنّ الإنسان ميّزه الله بالحرّيّة والاختيار؛ ولهذا لا بدّ وأن يمتلك إرادته، ويوجّه طاقاته في الطّريق السّليم، ولمّا كانت النّفس متشعّبة الأهواء فلا يمكن أن يطلق لها الزّمام بدون حدود وقيود؛ لأنّه سيكون مَثَلُها مثال الماء المرسل بتيّار جارف بلا سدود ونواظم، وبلا شكّ أنّه سيخرّب كلّ ما يمرّ عليه، وإذا نفع فمنفعة جزئيّة ضئيلة مؤقّتة، وبعكسه ما لو بُنِيَتْ له السّدود والنّواظم، وفُتِحَت الرّوافد والجداول فإنّه سيكون كله عطاءً وخيراً، ونفعاً للبشريّة؛ كذلك طاقات الإنسان المذخورة في أهوائه وميوله إذا لم تُوَجَّه الوجهة الصحيحة فستحلّ الدّمار والخراب في الكون، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) المؤمنون: ٧١.

إذا اتّضح ذلك فإنَّه سَيَحِلُّ التّعارضَ بين وجود الميول والغرائز الفطريّة في الإنسان وبين النهي عنها، إنَّ الإسلام لم يحرِّم على الإنسان التّمتّع بلذائذ الحياة وتصريف الطاقات، وإنّما وجَّهها وهذَّبها، ووضع لها الحدود والنّواظم؛ لتحفظ للإنسان توازنه؛ ولهذا فإنَّ المؤمن لا يتّبع أهواءه، بل يخضعها لإرادة الله تبارك وتعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ولا بدّ أن نعلم أنَّ الإنسان إذا كان متّبعاً لهواه، ومستجيباً لرغباته النّفسيّة بلا حدود ولا قيود فلا فرق بينه وبين الحيوان؛ لأنّ مزية الحيوان عن الإنسان أنَّه خاضعٌ لشهواته، ولا يستطيع مخالفتها، والإنسان بعكسه يستطيع أن يفعل، أو لا يفعل بإرادته؛ ولهذا فإن الإنسان الحقيقي بكل ما للكلمة من معنى هو من حَكَّمَ عقله بشهواته، وإذا انعكست المسألة وحكَّم شهواته في عقله، فقد خرج من حدود الإنسانيّة، ودخل في عالم الحيوانيّة، بل القرآن الكريم جعله أوطأ درجة من الحيوان؛ لأنه عطَّل أعظم المواهب الإلهيّة عنده، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]؛ فهم أضلّ من البهائم؛ (لكفرهم، وعتوّهم، لا يهتدون إلى شيء من الخيرات مع ما ركّب الله فيهم من العقول الدّالّة على الرَّشاد، الصّارفة عن الفساد)[2].

والسَّبب في هبوط الإنسان في هذه الحالة من مستوى البشريّة إلى حضيض الحيوانيّة؛ لأنّه استغرق في أهوائه ونزواته حتى أصبح لا يسمع، ولا

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الطّبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٧٢/٤.

يرى، ولا يعقل إلا بما توحيه إليه نزواته، يقول تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(١).

وهكذا نفهم السرّ في هبوط بعض النّاس إلى مستوى أدنى من الحيوان؛ لأنَّه أطفأ نور عقله بطغيان شهواته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ذَهابُ الْعَقْلِ بَيْنَ الْهَوى وَالشَّهْوَةِ**»(٢).

فالاتّباع المنهيّ عنه هو أن يستغرق الإنسان في ملذّاته إلى حدّ يبطل العقل، ويطفئ نوره، يقول الفيلسوف الإسلامي صدر المتألّهين: «الهوى قفل العقل، وآفة العفاف، وقوت الشّيطان».

والإسلام يريد من الإنسان أن يكون منفتح العقل، منشرح الصّدر، قويّ الإرادة، ماضي العزم؛ فإذن من خالف هواه، وتحكَّم فيه فقد ملك إرادته، وتحقَّقت إنسانيّته، وبالعكس من اتّبع هواه، واستغرق فيه فقدْ فَقَدَ إرادته، وهبط من قدس الإنسانيّة إلى حضيض الحيوانيّة... جاء في الحديث عن الصّادق عليه السلام: «**مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إذا رَغَبَ، وَإِذا رَهَبَ، وَإِذا اشْتَهى، وَإِذا غَضِبَ، وَإِذا رَضِيَ، حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلى النّارِ**»(٣).

فالإنسان مرّة يملك ميوله وأهواءه، ويتحكّم بها، ويوجّهها حيثما يريد الله، وهذا هو الإنسان الحقيقيّ، ومرّة يفقد إرادته، ويصبح مملوكاً لهواه، لاهثاً خلف

---

(١) الفرقان: ٤٣-٤٤.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٥، ح/٨٤٠.

(٣) وسائل الشّيعة: ١٢٣/١١.

نزواته، لا يرى، ولا يسمع، ولا يعقل غيرها، وهذا هو الذي اتّبع هواه، وأصبح معبوداً له من دون الله، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[١].

مَفاسِدُ اتّباعِ الْهَوى:

لا نُبالغ إذا قُلنا أنَّ كلَّ ما حدث من مظالم وجرائم، وما مرَّت على البشريّة من ويلات ودمار كانت من جراء اتّباع الأهواء؛ فما قتل ابن آدم أخاه إلا لهوى في نفسه، وما حورب الأنبياء من طغاة عصورهم إلا استجابة للأهواء المسيطرة عليهم، وما أوذي رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلا لأهواء الجاهليّة، وما نُوزع أمير المؤمنين علي عَلَيْهِالسَّلَامُ على منصب الإمامة إلا لأهواء القوم كما وصف عَلَيْهِالسَّلَامُ ذلك بقوله: «**فَإِنَّها [الخِلافَةَ] كانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْها نُفوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْها نُفوسُ آخَرينَ، وَالْحَكَمُ اللهُ**»[٢]، وما قُطِعَ رأس الحسين عَلَيْهِالسَّلَامُ وسُبِيَ عياله إلا لأهواء ونزوات بني أمية، وما سُجِنَ موسى بن جعفر عَلَيْهِالسَّلَامُ وقُتِلَ في السّجن إلا لأهواء هارون العباسيّ الّذي أفصح لولده المأمون عن تلك الحقيقة، فقال: «وَوَالله لَوْ نازعْتَني هذا الأمر لأخذتُ الّذي فيه عيناك، فإنَّ الملك عقيمٌ»[٣].

والكلمة الجامعة لذلك قول أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ: «**إِنَّما بَدْءُ وُقوعِ الْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ**»[٤].

ومن خلال تتبّع الآيات الكريمة واستقراء معانيها نستطيع أن نحدّد مفاسد

---

(١) الفرقان: ٤٣-٤٤.

(٢) نهج البلاغة: ٢٦٢، خطبة: ١٦٢.

(٣) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عَلَيْهِالسَّلَامُ: ٩١/١.

(٤) نهج البلاغة: ١٠٦، خطبة: ٥٠.

اتّباع الهوى بالنّقاط الآتية:

أوّلاً: اتّباع الهوى يؤدّي إلى الاستكبار، يقول تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[١]؛ فهنا ظاهر أنّ سبب استكبار بني إسرائيل على رسل الله تعالى هو هوى النّفس؛ لأنّ الرسل جاؤوهم بالحقّ، وأنفسهم تهوى الباطل، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢] بيانٌ دقيقٌ لهذه الحقيقة، حيث إنّ سبب فرارهم عن الحقّ، وعدم سماعهم له هو اتّباع الهوى بالانشغال في لهو الحديث، وهكذا يؤدّي اتّباع الهوى إلى الاستكبار على الحقّ وعدم قبوله، وهذا ما أوضحته سورة نوح بقوله تعالى عن لسان نوح: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[٣]، وواضح أنّ سبب استكبارهم هو اتّباع الهوى.

ثانياً: تكذيب أهل الحقّ: وهم الأنبياء والمرسلون والأوصياء والصّالحون، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[٤]؛ وذلك لأنّهم يريدون أن يطوّعوا الدّعاة إلى الله وفق أهوائهم ومشتهياتهم،

---

(١) البقرة: ٨٧.

(٢) لقمان: ٦-٧.

(٣) نوح: ٥-٧.

(٤) المائدة: ٧٠.

(ومحاولةُ إخضاع الهداة والشّرائع للهوى الطّارئ، والنَّزوة المنقلبة ظاهرةٌ تبدو كلّما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنسانيّ ذاته، المنطق الّذي يقتضي أن ترجع الشّريعة إلى مصدر ثابت -غير المصدر الإنساني المتقلّب- مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النَّزوة. وأن يرجع النّاس إلى ذلك الميزان الثّابت الّذي لا يتأرجح مع الرّضا والغضب، والصّحّة والمرض، والنَّزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنّزوة والهوى)(١).

ثالثاً: يمنع الإنسان عن السّموّ والارتفاع عن حضيض التّراب إلى نور السّماء، يقول تعالى في وصف من اتّبع هواه: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾(٢)؛ فالذي منع هذا الرّجل الّذي آتاه الله آياته عن الارتفاع والسّموّ هو اتّباع الهوى؛ إذن اتّباع الهوى يمنع الإنسان عن السمو الرّوحي، والفكري، والنفسي، فالإنسان لا يمكن أن تسمو روحه، وتتوسّع آفاقه الفكريّة والنّفسيّة ما لم يتحرّر من قيود الهوى، وثقل المادّة، وأوضار الطّين، فالدّنيا وسيلة لا غاية، فإذا تحوّلت إلى غاية عنده فلا يستطيع أن يبصر ما وراءها؛ ولذا عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن المُخْلِد إليها بـ(الأعمى) حيث يقول عليه السلام: «**وَإِنَّما الدُّنْيا مُنْتَهى بَصَرِ الأَعْمى، لا يُبْصِرُ مِمّا وَراءَها شَيْئاً**»(٣).

ويقول عليه السلام: «**مَنْ أَبْصَرَ بِها بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها أَعْمَتْهُ**»(٤).

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١/١١٦.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

(٣) نهج البلاغة: ٢٢٢، خطبة: ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٨، خطبة: ٨١.

رابعاً: يؤدّي إلى الغفلة، والإعراض عن الحق، وتجاوز الحدود الشّرعيّة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[١].

خامساً: يؤدّي إلى البعد عن الله، والتّعرّض لنقمته، يقول تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٣].

سادساً: الضّلال عن سبيل الله، يقول تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[٤].

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٥].

سابعاً: وأخيراً لا آخراً إنَّ اتّباع الهوى يؤدّي إلى فسادٍ كونيّ شاملٍ، يقول تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[٦].

فلو اتّبع الحقُّ أهواءَ النّاس المختلفة والمتباينة والمتضاربة لأدّى ذلك إلى فساد كونيّ شامل يخرّب الأرض والسّماء، قال العلامة الطّباطبائي: «فلو اتّبع

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) الرَّعد: ٣٧.

(٣) البقرة: ١٢٠.

(٤) ص: ٢٦.

(٥) القصص: ٥٠.

(٦) المؤمنون: ٧١.

الحقّ أهواءهم فاقتضى لهم من الشّرع ما تجازف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلا بتغيّر أجزاء الكون عمّا هي عليه، وتبدّل العلل والأسباب غيرها، وتغيّر الرّوابط المنتظمة إلى روابط جزافيّة مختلّة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم، وفي ذلك فساد السّماوات الأرض ومن فيهنّ في أنفسها والتّدبير الجاري فيها؛ لأنّ كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين، والخلق والأمر متّصلان غير منفصلين.

وهذا هو الّذي يشير إليه قوله: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾[1]»[2]. فأيّ إفساد بعد هذا؟

مِثالُ عُلَماءِ السّوءِ:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾[3].

هذه الآية الكريمة تشير إلى أحد علماء بني إسرائيل، وكان هذا الرّجل[4]

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٤٧/١٥.

(٣) الأعراف: ١٧٥-١٧٧.

(٤) اختلف المفسّرون في اسم صاحب هذه القصّة، وهي قصّة واقعيّة مرّت في غابر الزّمن، فقيل: هو بلعم بن باعوراء في عصر موسى عليه السلام، وقيل: أميّة بن أبي الصلت، وقيل: هو عامر الرّاهب الذي لقّبه رسول الله صلى الله عليه وآله بالفاسق، وعلى كلّ ←

من كبارهم، وكان معتمداً عند موسى عليه السلام، ومحترماً عند النّاس؛ لعلمه ووجاهته، إلا أنَّه اتّبع هواه، فأسقطه في الحضيض، وسقوطه كان في طريقة استخدام علمه، فبعد أن فَهِمَ آيات الله، وتحمَّل مسؤولياتها أراد أن يستعملها كآلة لخدمة مصالحه الدّنيويّة، وتحقيق شهواته ونزواته الحيوانيّة في الوقت الّذي أراد الله تعالى منه أن يتحرّر بالمعرفة والعلم من قيود الأهواء الماديّة والمعنويّة، ويرتفع بها على شهواته الحيوانيّة، فخالف إرادة الله تعالى، فخرج عن آيات ربّه؛ ولذا تصف الآية الكريمة عملية خروجه بـ(الانسلاخ)، وهي كلمة توحي بأنَّه كان متلبّساً بها، وهي ساترة له، وحافظة له من كيد الشّيطان، كما تُصَوِّر الآية لنا حالة الجهد والمشقّة الّتي عاناها حين خرج عن آيات ربّه باتّباع هواه فأصبح عارياً لا يحصنه من الشّيطان شيءٌ، وهنا لا بدَّ أن نلتفت أنَّ عملية الخروج هذه لا تعني أنَّه نسي ما تعلّمه، إلا أنَّها تفيد أنَّه خرج عن كلّ ما يفرضه العلم عليه، فعلمُهُ شيءٌ، وعملُهُ شيءٌ آخر، فِكرُهُ يناقض سلوكَهُ، فهو لم يطبّق ما أراد الله منه في هذا العلم، فهو عالم، ولكنّه ضالٌّ مُضِلٌّ غاوٍ؛ ولذا أصبح علمُهُ هذا مُبْعِداً له عن الله تعالى، وصار مصداقاً للحديث الشّريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنِ ازْدادَ عِلْماً، وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعْداً**»[1].

وسبب بُعْدِهِ من الله أنَّه أراد باسم العلم وشرفه أن ينال الدّنيا، ويصعد على رقاب النّاس به؛ فهو لم يرد بعلمه وجه ربّه، ولكنَّه أراد الرّفعة والسّمعة والشّهرة،

حال فهو: «فِي الأَصْلِ بَلْعَمُ، ثُمَّ ضَرِبَ مَثَلاً لِكُلِّ مُؤْثِرٍ هَواه عَلى هُدى اللهِ تَعالى مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ» كما قال الإمام الباقر عليه السلام، التّبيان للشّيخ الطّوسي: ٣٢/٥.

(١) الشّهيد الثّاني، منية المريد: ١٥٢.

وهذا هو مرض طلاب العلم، يقول الإمام الخميني رضوان الله عليه: «وكذلك رأينا في طلاب العلوم النّقليّة الشّرعيّة أفراداً أثّر فيهم العلم الأثر السّيّئ، وزاد في المفاسد الأخلاقيّة لهم، والعلم الّذي لا بدّ أن يكون موجباً للفلاح والنّجاة لهم صار سبباً لهلاكهم، ودعاهم إلى الجهل والمماراة والاستطالة»[1].

إنّ علماء السّوء يسقطون في مستنقع الهوى بأحد طريقين: إمّا لمحاولة البروز، وكسب السّمعة، والشّهرة، والجاه، والاستحواذ على أموال النّاس، وأكلها بالباطل، وإمّا أنّهم يسقطون في تسخير علومهم لخدمة الطّواغيت والجبابرة والسّقوط في شباكهم، وهؤلاء طائفة واسعة من علماء البلاط، ومهمّتهم تبرير إجرام حكّام الجور، وإعطاء صورة موجّهة لأعمالهم، فالعلم من حيث هو تراكم معلومات لا قيمةَ له، وإنّما قيمةُ العلمِ بأحد أمرَين: حامل العلم، ومصرف العلم واستعماله؛ فالّذي يحمل العلم ينبغي أن يتخلّق بأخلاق الأنبياء، ويسلك سلوكهم، ويهتدي بهداهم، ويصرف العلم في توجيه النّاس وهدايتهم وإرشادهم؛ لإنقاذهم من الجهل والتيه، وقصة بلعم بن باعوراء - وإن كانت الآية قد نزلت فيه بالذّات - تشمل كلّ من اتّخذ من العلم وسيلة للدّنيا، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**في الأَصْلِ بَلْعَمُ، ثُمَّ ضُرِبَ مَثَلاً لِكُلّ مُؤْثِرٍ هَواه عَلى هُدى اللهِ تَعالى مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ**»[2].

والآية الكريمة تعبّر عن اتّباع الهوى بهذه الصّورة الموحية، فالرَّجل هبط من علوّ، ثم التصق بتراب الأرض، وغاص إلى أذنيه بأوحال الدّنيا، فالإخلاد إلى

---

(١) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصّلاة: ٥٤، ترجمة السّيّد الفهري.

(٢) التّبيان في تفسير القرآن: ٣٢/٥.

الأرض سقوط والتصاق بها، وهو تعبيرٌ عن مدى استغراقه في حبّ الدنيا، فهوى إلى القاع، ولو شاء الله لرفعه من هذه الهاوية، لكنّه أخلد إلى الأرض.

نَتائِجُ اتّباعِ الْهَوى:

من خلال التّأمّل في قصة بلعم بن باعوراء نستطيع أن نستخلص النّتائج الآتية لاتّباع الهوى:

الأولى: السّقوط بقوّة إلى الأرض والرّكون إلى الدّنيا ولهوها، والرّضا بها عن عبادة الله بدلاً.

الثّانية: الانسلاخ عن آيات الله تعالى عقيدة وشريعة؛ فهو قد انسلخ منها كانسلاخ الحيّة من جلدها، فحالته هي البينونة الكاملة عن آيات الله تعالى مرّة واحدة، والانقطاع عنها انقطاعاً كاملاً، فالمتّبعين أهواءهم يرفضون الحكمة والوعي والبصيرة رفضاً كاملاً، ويصبحون كالمعدة المريضة الّتي ترفض الطّعام الّذي يشتهيه الأصحّاء؛ لأنّ الحكمة والبصيرة تحتاج إلى ظرف طاهر، وهؤلاء قلوبهم قد تلوّثت ومرضت، فلم تعد تتقبّل النّور، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حَرامٌ عَلى كُلِّ قَلْبٍ مُتَوَلِّهٍ بِالشَّهَواتِ أَنْ يَسْكَنَهُ الْوَرَعُ... حَرامٌ عَلى كُلِّ قَلْبٍ عُزِّيَ بِالشَّهَواتِ أَنْ يَجولَ في مَلَكوتِ السَّماواتِ**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حَرامٌ عَلى كُلِّ عَقْلٍ مَغْلولٍ بِالشَّهْوَةِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْحِكْمَةِ**»[2].

---

(١) ورّام، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ١٢٢/٢.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٥، ح/٨٣٩.

وإنّما حُرِّمَت الحكمة والعلم والبصيرة على القلب المتولّه بالشّهوات والهوى؛ لأنَّ القلب إناء وظرف لا يتّسع لأكثر من حبّ واحد؛ فلا يمكن أن تجتمع آيات الله وحبّه والهوى في ظرف واحد؛ لأنَّ دخول أحدهما طردٌ للآخر: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[1].

وهكذا إذا دخل الهدى في القلب طرد الهوى وبالعكس، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

الثّالثة: إنّ بلعم بن باعوراء عندما كان على هدى الله تعالى لم يستطع الشّيطان أن يتبعه فضلاً عن أن يضلّه، فلما اتّبع هواه وقع في شباكه، واستحوذ عليه، إذن لا سلطانَ للشّيطان على الإنسان إلا إذا اتّبع الإنسان هواه.

الرّابعة: إنّه أصبح من الغاوين ضالاً مضلاً بعد أن كان مهتدياً هادياً.

الخامسة: مَثَّلَه الله تعالى بـ(الكلب)؛ ولذلك التّمثيل دلالة دقيقة تصوّر حالة الإنسان المغمور في الهوى، فهو كالكلب في لهاثه المستمرّ الّذي لا يتوقّف في كلّ أحواله، كذلك أصحاب الأهواء لا يشبعون من الدّنيا فلو رُزقوا كلّ شيء من أموال، وبنين، وجاه، وسلطان رغم ذلك كلّه فإنَّ عطشهم للدّنيا لا يتوقّف عند حدّ، بل يبقى يطلب المزيد كجهنّم كلّما ألقي فيها قالت: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[3].

مَخاطِرُ الْهَوى:

أوّلاً: حالة الطّلب المطلق الذي لا يتوقّف عند حدّ، بل يتجاوز كلّ

---

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) ق: ٣٠.

الحدود؛ لأنَّ طبيعة الهوى التّجاوز والطّغيان، والسّاقط في مستنقعه دائماً في حالة تجاوز وإفراط، يقول تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[١]؛ ومن هنا نستطيع أن نخرج بقاعدة ثابتة، وهي: إنَّ الإنسان كلما استجاب لهواه ازداد طلباً وإلحاحاً وعطشاً وضراوةً في الطلب، وبالعكس كلما صدَّ هواه، وتحكَّم في ميوله خفَّت وتلطّفت.

ثانياً: إنَّ طلب الأهواء النّفسيّة طلب قويٌّ فلو تأمّلنا في تاريخ الحضارات الجاهليّة القديمة والحديثة نرى أنَّ العامل الوحيد الّذي رسم مسارها هو الهوى، عن زيد بن صوحان أنَّه سأل أمير المؤمنين عليه السلام: «أيّ سلطان أغلب وأقوى؟»، فقال عليه السلام: «**الْهَوى**»[٢].

ويقول عليه السلام: «**رَدُّ الشَّهْوَةِ أَقْضى لَها، وَقَضاؤُها أَشَدُّ لَها**»[٣]، أي إنَّ الإنسان إذا تحكّم في أهوائه وميوله وشهواته، ووجّهها كما يريد العقل والشّرع لا كما تريد ضَعُفَت، واستكانت، وتلطَّفت، وإذا استجاب لطلبها اشتدَّت في الطّلب.

ثالثاً: الهوى عاملُ تخريبٍ وإفساد إذا انحرف عن مسار الحقّ والعدل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**إِذا غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ أَهْواؤُكُمْ أَوْرَدَتْكُمْ مَوارِدَ الْهلَكَةِ**».

«**في طاعَةِ الْهَوى كُلُّ الْغَوايَةِ**».

---

(١) العلق: ٦-٧.

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٩٨.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٤، ح/٦٩٥٦.

«مَنْ وافَقَ هَواهُ خالَفَ رُشْدَهُ».

«مَنْ غَلَبَ هَواهُ عَلى عَقْلِهِ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ الْفَضائِحُ».

«لا تَرْكَنوا إلى جُهّالِكُمْ، وَلا تَنْقادوا لأَهْواِئكُمْ، فَإِنَّ النّازِلَ بِهذا الْمَنْزِلِ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ»[1].

هذه هي أبعاد مخاطر اتّباع الهوى: طلب مطلق، وقوة إفساد وتخريب، لا يتوقف عند حدّ.

وبعد ذلك سلطان الهوى كجبّار عاتٍ له قوّة عظيمة يريد أن يستولي على النّاس، ويستعبدهم، ويمتصّ أموالهم ودماءهم؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلى أُمَّتي الْهَوى وَطول الأَمَلِ، أَمّا الْهَوى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمّا طولُ الأَمَلِ فَيُنْسي الآخِرَةَ»**[2].

ماذا يُخَرِّبُ الْهَوى مِنَ الإِنْسانِ؟

خمسة أشياء أساسيّة في حياة الإنسان يفسدها الهوى، وهي: الفطرة، والعقل، والإرادة، والقلب، والضّمير؛ وآخر قلعة تسقط من الإنسان هو الضّمير، فإذا سقطت تغلّبت القوّة الحيوانيّة على الكرامة الإنسانيّة، وصار الإنسان أضلَّ من الأنعام، من هنا نفهم هذا الاهتمام الكبير الّذي نجده في الأحاديث الشّريفة في التّأكيد على مخاطر الهوى، ونحن نذكر عشرة عناوين:

١- الشَّهوة سمٌّ: يقول أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: **«الشَّهَواتُ سُمومٌ**

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٦-٣٠٧، ح/٧٠١٧-٧٠٣٧-٧٠٤٠-٧٠٤٦-٧٠٥٣.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٥١/١.

قاتِلاتٌ»[(١)].

٢- الشَّهوة آفةٌ ومرضٌ: عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«الشَّهَواتُ آفاتٌ قاتِلاتٌ».

«مَنْ تَسَرَّعَ إلى الشَّهَواتِ تَسَرَّعَ إلَيْهِ الآفاتُ».

«مُدْمِنُ الشَّهَواتِ صَرِيعُ الآفاتِ».

«رَأْسُ الآفاتِ الْوَلَهُ بِاللَّذّاتِ».

«قَرِينُ الشَّهْوَةِ مَرِيضُ النَّفْسِ، مَعْلولُ الْعَقْلِ».

«الشَّهَواتُ أَغْلالٌ قاتِلاتٌ».

«أَوَّلُ الشَّهْوَةِ طَرَبٌ، وَآخِرُها عَطَبٌ»[(٢)].

٣- الهوى أساس محن الإنسان: عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنَّه قال:

«الْهَوى أُسُّ الْمِحَنِ».

«إِيّاكَ وَطاعَةَ الْهَوى فَإِنَّهُ يَقودُ إلى كُلِّ مِحْنَةٍ».

«إِيّاكُمْ وَتَمَكُّنَ الْهَوى مِنْكُمْ فَإِنَّ أَوَّلَهُ فِتْنَةٌ وَآخِرَهُ مِحْنَةٌ»[(٣)].

٤- الهوى مركز الفتن: يقول أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام:

«إِنَّما بَدْءُ وُقوعِ الْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ»[(٤)].

«الْهَوى مَطِيَّةُ الْفِتَنِ»[(٥)].

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٤، ح/٦٩٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٣-٣٠٥، ح/٦٩٣٢-٦٩٣٣-٦٩٣٤-٦٩٢٣-٦٩٨٥-٦٩٤٢-٦٩٤٦.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٦، ح/٧٠٢٨-٧٠٢٩-٧٠٣٠.

(٤) نهج البلاغة: ١٠٦، خطبة: ٥٠.

(٥) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٦، ح/٧٠٢٦.

٥- الهوى سقوط وتردٍّ في حياة الإنسان: قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام:

«**الْهَوى يُرْدي**».

«**طاعَةُ الْهَوى تُرْدي**».

«**مَنْ جَرى مَعَ الْهَوى عَثَرَ بِالرَّدى**».

«**مَنِ اتَّبَعَ هَواهُ أَرْدى نَفْسَهُ**».

«**الْهَوى هَوِيٌّ إِلى أَسْفَلِ سافِلينَ**»(١).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لا تَدَعِ النَّفْسُ وَهَواها؛ فَإِنَّ هَواها في رَداها، وَتَرْكُ النَّفْسِ وَما تَهْوى أَذاها، وَكَفُّ النَّفْسِ عَمَّا تَهوى دَواها**»(٢).

٦- الهوى هلاك: يقول الإمام عليّ عليه السلام:

«**الْهَوى قَرينٌ مُهْلِكٌ**».

«**مَنْ أَطاعَ هَواهُ هَلَكَ**».

«**إِذا غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ أَهْواؤُكُمْ أَوْرَدَتْكُمْ مَوارِدَ الْهلَكَةِ**».

«**هَلَكَ مَنْ أَضَلَّهُ الْهَوى وَاسْتَقادَهُ الشَّيْطانُ إِلى سَبيلِ الْعَمى**»(٣).

٧- الهوى يعطّل العقل: يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**آفَةُ الْعَقْلِ الْهَوى**»(٤).

٨- الهوى يغلق أبواب القلب ومنافذه عن قبول النّور الإلهي بصورة كاملة، يقول تعالى: ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ**

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٦، ح/٧٠١٠-٧٠١١-٧٠١٢-٧٠١٣-٦٩٩٧.

(٢) الكافي: ٣٦/٤، ح/٢٦٧٦.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٦، ح/٧٠١٤-٧٠١٥-٧٠١٧-٧٠١٨.

(٤) المصدر نفسه: ٦٤، ح/٨١٤.

بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْهَوى شَريكُ الْعَمى**»[٢].

«**إِنَّكَ إِنْ أَطَعْتَ هَواكَ أَصَمَّكَ وَأَعْماكَ، وَأَفْسَدَ مُنْقَلَبَكَ وَأَرْداكَ**».

«**إِنَّكُمْ إِنْ أَمَّرْتُمْ عَلَيْكُمُ الْهَوى أَصَمَّكُمْ وَأَعْماكُمْ وَأَرْداكُمْ**»[٣].

«**أوصيكُمْ بِمُجانَبَةِ الْهَوى، فَإِنَّ الْهَوى يَدْعو إِلى الْعَمى، وَهُوَ الضَّلالُ في الآخِرَةِ وَالأولى**»[٤].

٩- الهوى ضلالٌ وتيهٌ وضياعٌ وصدٌّ عن سبيل الله في حياة الإنسان، يقول تعالى: **﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾**[٥].

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[٦].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**قَدْ ضَلَّ مَنِ انْخَدَعَ لِدَواعي الْهَوى**».

«**في طاعَةِ الْهَوى كُلُّ الْغَوايَةِ**»[٧].

١٠- اتّباع الهوى فساد الدّين: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَبَبُ فَسادِ الدّينِ الْهَوى**»، و«**لا دينَ مَعَ هَوى**»[٨].

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٤، ح/٨١١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٧، ح/٧٠٣٤-٧٠٣٥.

(٤) القاضي النّعمان المغربي، دعائم الإسلام: ٢/٣٥٠، ح/١٢٩٧.

(٥) مريم: ٥٩.

(٦) ص: ٢٦.

(٧) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٧، ح/٧٠٣٨-٧٠٣٧.

(٨) المصدر نفسه: ٣٠٦، ح/٧٠٢٢-٧٠٢٥.

الْمَراحِلُ التَّخْرِيبِيَّةُ لِلْهَوى:

هناك دورٌ تخريبيٌّ للهوى، فهذا العنصر الضّروريّ للإنسان يتحوّل إلى عنصر مخرّب ضارّ لوجوده إذا طغى، ومثله في ذلك مثل الماء؛ فالماء عنصر ضروريّ أساسيّ في حياة الإنسان، ولكنَّ هذا العنصر الضّروريّ إذا طغى يتحوّل إلى قوّة تخريب، وفساد، وهدم لكلّ ما يمرّ عليه؛ ولذلك نرى أنَّ الإنسان من أجل أن يفيد من الماء، ويتجنّب أضرار طغيانه يقوم بتنظيم سير حركة الماء من خلال حفر القنوات والأنهار، وتنظيم حركته بالنّواظم والسدود؛ لتوزيعه توزيعاً نافعاً وصحيحاً، فإذا انتظمت حركة سيره سوف يصل إلى أراضٍ قاحلة، ويحوّلها إلى جنات خضراء، وهكذا القوة الّتي تنشأ من تدافع الماء تتحوّل إلى طاقات كهربائيّة ضخمة نافعة للإنسان... كذلك الهوى إن لم ينتظم ويجرِ بموجب ضوابط، وحدود، وقوانين، يتحوّل إلى عنصر مفسد مهلك.

هذه هي المرحلة الأولى لفعل الهوى، وهي مرحلة لها دورٌ تخريبيٌّ لشخصيّة الإنسان.

أمّا المرحلة الثّانية: مرحلة الاستيلاء والسّيطرة على نفس الإنسان، فعندما يسيطر الهوى على الإنسان يقوم بدورٍ تخريبيّ خطير، ويهدّم أهمّ الحصون في نفسه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(١).

فهنا المرحلة الأولى هي (الغفلة عن ذكر الله)، والمرحلة الثانية (اتّباع الهوى).

---

(١) الكهف: ٢٨.

فالمرحلة الأولى: مرحلة تفريغيّة، أي تفريغ الإنسان عن محتواه عقلاً، وإرادةً، وقلباً، وفطرةً... والمرحلة الثّانية: الاستيلاء، والسيطرة.

هاتان المرحلتان هما فعل الهوى؛ وفي المرحلة الثانية يدخل الإنسان الحرّ تحت أسر الهوى، ويصبح أسيراً وعبداً له، ولو كان لدينا تعبيرٌ أدقُّ من كلمة (الأسر) لاستعملناه؛ لأنَّ الأسير يخضع للمؤسر في الحركات الفيزيائيّة جميعاً، فهو يمنعه من الهروب، والنّوم، والحركة، والأكل؛ كلّ هذه الحركات يستطيع الطّرف المنتصر أن يفعلها بالأسير، ولكن ليس له سلطانٌ على عقله، وقلبه، وضميره، وسمعه، وإحساساته النّفسيّة مهما كان سلطانه.

وأمّا سلطان الهوى على الإنسان فإنّه يستولي عليه استيلاءً كاملاً يفرض سلطانه على جميع حركات الإنسان، وإحساساته، وإدراكاته جميعاً بدون استثناء، حتّى يعود يرى الجميل ما جَمَّلَهُ الهوى، والقبيح ما قَبَّحَهُ، فيصبح يرى الجميل قبيحاً وبالعكس، وبذلك تصبح حكومة العقل تحت حكومة الهوى؛ لأنَّه يضع يده على قلبه، وأحاسيسه، وعقله؛ فالهوى يغيّر موازين الحبّ والبغض، فلا يحبّ إلا ما يريد الهوى، و لا يبغض إلا ما يبغض... ولذلك جاءت النّصوصُ الإسلاميّةُ دقيقةً جداً في التّعبير عن الإنسان الّذي وقع تحت سلطان الهوى، وفقد القدرة في السَّيْطرة على إحساسه، وتفكيره، وعواطفه، وحُبِّهِ، وبغضه؛ فعَبَّرَت الرّوايات عن أسير الهوى بـ(العبد) وبـ(الرّق)، فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَسيرٌ لا يَنْفَكُّ أَسْرُهُ».

«قَرينُ الشَّهَواتِ أَسيرُ التَّبعاتِ».

«عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ عَبْدِ الرِّقِّ».

«مَغْلوبُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ مَمْلوكِ الرِّقِّ»(١).

وعبّرت نصوص أخرى عنه بـ(الذّل)، فعنه عليه السلام أيضاً:

«مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عَلا أَمْرُهُ».

«مَنْ مَلَكَتْهُ نَفْسُهُ ذَلَّ قَدْرُهُ».

«مَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ هَواهُ أَفْلَحَ».

«مَنْ غَلَبَ هَواهُ عَقْلَهُ افْتَضَحَ».

«أَزْرى بِنَفْسِهِ مَنْ مَلَكَتْهُ الشَّهْوَةُ واسْتَعْبَدَتْهُ الْمَطامِعُ».

«كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسيرٍ عِنْدَ هَوًى أَميرٍ»، فالهوى هنا أمير.

«الشَّهَواتُ تَسْتَرِقُّ الْجَهولَ»(٢).

وهناك طائفة أخرى تعبّر عن الهوى ودوره في حياة الإنسان بـ(الألوهية)، فيتحوّل الإنسان من محور العبودية لله تعالى إلى محور العبوديّة للهوى، يقول تعالى:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾(٣).

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٤).

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما تَحْتَ ظِلِّ السَّماءِ مِنْ إِلهٍ يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ»(٥).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٤-٣٠٥، ح/٦٩٦٦-٦٩٦٧-٦٩٦٥-٦٩٦٩.

(٢) ينظر: المصدر السابق: أرقام الأحاديث بالتّسلسل: ٤٩٤٢-٤٧٢٣-٣٢٨٥-٣٢٨٦-٦٩٧٥-٨١٩-٦٩٦٣.

(٣) الفرقان: ٤٣.

(٤) الجاثية: ٢٣.

(٥) الطّبراني، المعجم الكبير: ١٢٣/٨، ح/٧٥٠٢.

فهذا الإنسان ينتقل من عبوديّة الله إلى عبوديّة الهوى، فيعاقبه الله بأن يَكِلَهُ إلى نفسه وينساه، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾(١).

من روائع الفكر الإسلاميّ العقوبات الّتي ينزلها الله بمن ينتقل من عبوديّة الله إلى عبوديّة الهوى في الدّنيا والآخرة، ونحن نروي هذا الحديث القدسي لنرى حدود هذه العقوبات وخطرها في حياة الإنسان في الدّنيا والآخرة، عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «**قال رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: يَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتي وَجَلالي وَعَظَمَتي وَكِبْريائي وَنوري وَعُلُوّي وَارْتِفاعِ مَكاني، لا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَواهُ عَلى هَوايَ إِلا شَتَّتُّ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، ولَبَّسْتُ عَلَيْهِ دُنْياهُ، وَشَغَلْتُ قَلْبَهُ بها، وَلَمْ أُؤْتِهِ مِنْها إِلا ما قَدَّرْتُ لَهُ، وَعِزَّتي وَجَلالي وَعَظَمَتي وَنوري وَعُلُوّي وَارْتِفاعِ مَكاني، لا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوايَ عَلى هَواهُ إِلا اسْتَحْفَظْتُهُ مَلائِكَتي، وَكَفَّلْتُ السَّماواتِ وَالأَرَضينَ رِزْقَهُ، وَكُنْتُ لَهُ مِنْ وَراءِ تِجارَةِ كُلِّ تاجِرٍ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وَهِيَ راغِمَةٌ**»(٢).

(١) التّوبة: ٦٧.

(٢) الكافي: ٤/٣٤-٣٥، ح/٢٦٧٦.

(الْبَحْثُ الثّاني)

الْغَضَبُ

تَعريفُ الْغَضَبِ:

حركة نفسيّة تُحْدِثُ غَلياناً في القلب، ومنبعه شهوة الانتقام، وقد قال بعض علماء الأخلاق: «إنَّ الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقودة إلا أنَّها لا تطلّع إلا على الأفئدة، وإنَّها لمستكنّة في طيّ الفؤاد استكنان الجمر تحت الرَّماد، ويستخرجها الكبر الدَّفين من قلب كلّ جبّار عنيد كما يستخرج الحجر النّار من الحديد»[1].

إنَّ القوّة الغضبيّة لا يخلو منها قلب إنسان، قال أحد علماء النّفس: «لدى الإنسان، وكذلك الحيوان، استعدادٌ فطريٌّ للغضب، ومقاومة كلّ ما يقيّد حركاته، ويعوّق سلوكه، ويقف عقبة في سبيل تحقيق دوافعه. والسّلوك الفطري لهذا الدافع هو تحطيم العائق وتهشيمه»[2].

فهي جزء من تكوين الإنسان النّفسيّ، بل هي ضرورة حياة لا يستغني عنها الإنسان في حياته، وتثيرها حميّتان؛ إمّا حميّة الدّين، والحقّ، والعدل، والإنسانيّة، وإمّا حميّة الجاهليّة المنبعثة من التّكبّر والجبروت، وهي حالة عرضت لإبليس

(١) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ٢٨٩/٥.

(٢) الدكتور أحمد عزّت راجح، أصول علم النّفس: ١٣٦.

فكشفت حقيقته، وأهبطته من القمّة إلى الحضيض، وأصبح من المُنْظَرين إلى يوم القيامة؛ حين قال مفتخراً على آدم بأصله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[١].

الْغَضَبُ الْمَذْمومُ:

هو في منطق العقلاء: حالةُ انفعالٍ غير متّزنٍ يفقد الإنسان فيها توازنه، ويسيطر الهيجان على عقله بحيث يخرج عن الحدّ الوسط؛ فحينئذٍ يختفي العقل، وتبرز شهوة الانتقام، ولذا قال بعض علماء الأخلاق: بأنّ الإنسان حينما تسيطر القوّة الغضبيّة على القوّة العقليّة في تصرّفه يتحوّل إلى كلب عقور، أو أسد ضارٍ؛ ولهذا وردت روايات كثيرة في ذمّ الغضب ذمّاً شديداً، وعدَّته مفتاح الشّرور، والمفاسد، والتّخريب، والعطب، وسمَّته جمرة الشّيطان وسلاحه، ومركب الطيش، وإنَّه نار محرقة تحرق القلب والنّفس والجسم، وإنّ أوّله جنون وآخره ندم، وإنّ من غلب عليه الغضب دخل في حيِّز السّباع؛ كلّ ذلك في حالة الإفراط وهو التّهوّر، وعدم الخضوع لميزان العقل والشرع...

مَفاسِدُ الْغَضَبِ:

وللغضب مفاسد وأضرار وخيمة على الإنسان لا تحدّ بحدود هذا البحث المختصر؛ نذكر منها:

١- يُفسد الايمان: إذا سيطرت القوّة الغضبيّة على القوة العقلية، فقد تُخرج الإنسان من الإنسانية، وتدخله في عالم الحيوانيّة، فيتعدّى حدود الشَّرع، ويتجاوز

(١) ص: ٧٦.

القيم الخلقيّة، والحدود الشّرعيّة، وقد يخرجه من دين الله فيهتك الحرمات والمقدّسات؛ ولذلك ورد في الحديث الشّريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْغَضَبُ يُفْسِدُ الإيمانَ، كَما يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ**»[(١)]، وهذا تشبيهٌ دقيقٌ لوضع الإنسان في حالة سيطرة الغضب عليه.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فقد يصل الغضب بالإنسان إلى حدّ الارتداد عن دين الله، وإطفاء نور الإيمان، بحيث إن ظلام الغضب وناره تحرق العقائد الحقّة، بل قد يصل الأمر إلى الكفر الجحودي الّذي نتيجته الهلاك الأبديّ»[(٢)].

٢- يسلب الإنسان قوّة الإدراك والتّعقّل، ويفقده الإرادة الواعية، وحينئذٍ يجرّه إلى ارتكاب أعمال شنيعة، وجرائم فظيعة، قد تؤدّي به إلى خسران الدّنيا والآخرة؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كانَ أَبي يَقولُ: أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْغَضَبِ؟ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ، فَيَقْتُلُ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ، وَيَقْذِفُ الْمُحْصَنَةَ**»[(٣)].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ، فَما يَرْضى أَبَداً حَتّى يَدْخُلَ النّارَ**»[(٤)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**الْغَضَبُ مَمْحَقَةٌ لِقَلْبِ الْحَكيمِ**»، وقال: «**مَنْ لَمْ يَمْلِكْ غَضَبَهُ، لَمْ يَمْلِكْ عَقْلَهُ**»[(٥)].

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٧٣٨/٣، ح/٢٥٣١.

(٢) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً: ١٣٣.

(٣) الكافي: ٧٤٠/٣، ح/٢٥٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ٧٣٩/٣، ح/٢٥٣٢.

(٥) المصدر نفسه: ٧٤٥/٣، ح/٢٥٤٣.

يقول أحد مفكري الغرب: «إنّك في اللّحظة التي تفقد فيها حكم العقل تفقد فيها اختيارك وإرادتك الجديّة على نفسك أيضاً، وإنَّ الشَّخص الَّذي لا يكون تحت حكم العقل يصبح شخصاً خطيراً فضلاً عن أنَّه يفقد دوره كمؤثّر إيجابيّ في الحياة، ومن ثَمَّ لا يكون شخصاً مفيداً ومعمّراً، بل مضرّاً ومخرّباً، إنَّ الجدول الصّغير الّذي يجري بين الصّخور في الجبال لكلّ جزء من أجزائه صوت أعظم من أصوات الأنهار العظيمة، أمّا الرّجال ذوو الأخلاق العظيمة فهم -على العكس من ذلك - كالأنهار العظيمة إذا جرت في الأهوار والمستنفعات من دون أن يكون لها شيء من الأصوات أو الاضطرابات»[1].

٣- إنَّ سيطرة الغضب على الأنسان فضيحة كبرى تكشف جميع نواقصه وعيوبه، وتوقفه مجرّداً أمام النّاس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«بِئْسَ الْقَرِينُ الْغَضَبُ، يُبْدي الْمَعايِبَ، وَيُدْني الشَّرَّ، وَيُباعِدُ الْخَيْرَ».

«لا تَفْضَحوا أَنْفُسَكُمْ؛ لِتَشْفوا غَيْظَكُمْ».

«الْغَضَبُ يُرْدي صاحِبَهُ، وَيُبْدي مَعايِبَهُ».

«كَثْرَةُ الْغَضَبِ تُزْري بِصاحِبِهِ، وَتُبْدي مَعايِبَهُ»[2].

٤- لقد تأكّد لدى علماء الطبّ أنَّ الغضب هو السّبب المباشر لكثير من الأمراض الجسديّة فضلاً عن النّفسيّة كالتهاب الأعضاء، والسّلّ الرّئوي، وأنواع النّزيف الدموي، وتسمّم الدّم، وهذا ما عبّرت عنه أحاديث أهل البيت عليهم السلام بـ(العطب)، يقول سيّد الحكماء الإمام عليٌّ عليه السلام:

---

(١) مجتبى اللاري، دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ١٣٦-١٣٧ .

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٢-٣٠٣، ح/٦٨٩٣-٦٩١١-٦٨٩٢-٦٨٩٤ .

«سَبَبُ الْعَطَبِ طاعَةُ الْغَضَبِ».

«إِنَّكُمْ إِنْ أَطَعْتُمْ سَوْرَةَ الْغَضَبِ أَوْرَدَتْكُمْ نِهايَةَ الْعَطَبِ».

«مَنْ أَطْلَقَ غَضَبَهُ تَعَجَّلَ حَتْفُهُ»(١).

٥- إنَّ نهاية كلّ غضبٍ ندمٌ شديدٌ، فبعد أن يسكت الغضب عن الإنسان يرى نفسه قد خرج من طور الأدب الرفيع، فيندم، ويلوم نفسه على ما صدر منه من سوء تصرف، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا أَدَبَ مَعَ غَضَبٍ»(٢)، وبالتّالي يؤدّي إلى مذلّة الاعتذار، وطلب العفو من الآخرين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِيّاكَ وَالْغَضَبَ، فَأَوَّلُهُ جُنونٌ، وَآخِرُهُ نَدَمٌ»(٣).

(إنَّ هذه الخصلة المشؤومة لا تعقب إلا النّدم، إذ لا تهدأ فورة الغضب حتّى تستولي على صاحبها النَّفس اللّوّامة، فتقبّح أعماله المتأجّجة بنار الغضب، فتحكم عليه في محكمة العقل والوجدان، فتظهر على أثر حكمها عليه موجات من التّأثّر والأسف الشّديد مقرونة بالألم في أعماق قلبه)(٤).

ضَرورَةُ الْغَضَبِ:

هناك من تصوَّر أنَّ الإنسان إذا أراد نيل الكمالات النّفسيّة فيجب عليه أن يجتثّ من نفسه غريزة الغضب بالكامل، ويسحقها تحت الأقدام، وهذا التّصوّر هو من تصوّرات الصّوفيّة، وقد ناقش هذه الاشتباهات سيد العارفين في القرن

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٢-٣٠٣، ح/٦٨٨٢-٦٨٨٣-٦٩٠٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٣، ح/٦٩١٢ .

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٣، ح/٦٨٩٨ .

(٤) دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ١٣٧ .

العشرين الإمام الخميني وبيَّن خطأه، قال قُدِّسَ سِرُّهُ: «فإنَّ الّذين يظنّون أنَّ قتل غريزة الغضب بالكامل، وإخماد أنفاسها يُعدّ من الكمالات والمعارج النّفسيّة إنّما يرتكبون خطيئةً عظيمةً، ويغفلون عن حدّ الكمال، ومقام الاعتدال، هؤلاء المساكين لا يعلمون أنَّ الله تبارك وتعالى لم يخلق هذه الغريزة الشّريفة في جميع أصناف الحيوانات عبثاً، وأنَّه جعل هذه الغريزة في بني آدم رأسمال الحياة المُلكيّة والملكوتيّة، ومفتاح البركات والخيرات»[1].

ولكن مقصد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ هو الحدُّ المتوازن النّابع من حميّة الإيمان والغيرة الرّسالية التي تحفظ الإنسان من الانزلاق عن جادّة الصّواب، وتثبته على الطّريقة الوسطى فلا إفراط ولا تفريط...

ويمكننا أن نذكر بعض فوائد الغضب التي ذكرها الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ:

١- إنَّ غريزة الغضب هي العامل الأساسيّ في حفظ الجنس البشري، وصيانة نظامه العائلي والاجتماعي، إذ لولا غريزة الغضب لما استطاع الإنسان أن يدافع عن نفسه وعرضه وماله ودينه ضدّ هجمات الأعداء.

٢- وهي السّبب في نيل المراتب العالية والتّكامل الإنساني في الثّورة على النّفس، وإخراجها من حالة الخمول والكسل، والجبن، والتّراخي إلى حالة الجدّ والنّشاط والمقاومة.

٣- لها الدّور الأساسي في الثّبات والاستقامة على الحقّ، ومواجهة الباطل والثّورة على المفاسد الاجتماعية والسّياسيّة، حيث تكسر حجاب الخوف والخمول، ولولاها لاستسلم الإنسان لما يصيبه من ذلّة وصغار، يقول الإمام عليّ

---

(١) الأربعون حديثاً: ١٣٢.

عليه السلام: «**مَنْ أَحَدَّ سِنانَ الْغَضَبِ لله قَوِيَ عَلى قَتْلِ أَشِدّاء الباطِلِ**»[(١)]؛ لأنَّ القوّة الغضبيّة هي الّتي تمنح الإنسان قوّة المقاومة والجهاد ضد أعداء الله سبحانه وتعالى، والدّفاع عن النّفس والمال والعرض.

٤- وكذلك منع الاعتداءات، وحفظ الثّغور، وإزالة العقبات عن طريق الدَّعوة إلى الله تعالى لا بدّ لها من هذه الملكة؛ ليستطيع المؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

هذه الفوائد كلّها وغيرها تترتّب على غريزة الغضب إذا كانت تحت سيطرة العقل والشّرع، هذا هو الجانب المحمود منها؛ وبهذا بان خطأ المنهج الّذي يدعو إلى اجتثاث غريزة الغضب من جذورها، وإنَّما الصَّحيح هو التّوجيه والتّعديل والتّلطيف؛ لئلا تغلب على الإنسان القوّة الغضبيّة، فتخرجه عن حدّ الإنسانيّة، وتدخله في عالم الغاب الّذي يحكمه الظّفر والنّاب.

عِلاجُ الْغَضَبِ:

إذا أردنا علاج أيّ مرض نفسيّ أو بدنيّ فلا بدّ من معرفة أسبابه الباعثة له، ولهذا لا بدّ وأن نشير أوّلاً إلى أسباب الغضب وبواعثه.

لقد أشار علماء الأخلاق إلى أنَّ سبب الغضب إما نتيجة انحراف صحّيّ، أو ضعف عصبيّ، أو إجهاد عقليّ، أو إفراط في الحساسيّة النّفسيّة النّابعة من الأنانيّة أو شعور بالنّقص، أو سوء تربية اعتاد عليها كمن يعدّ سرعة الانفعالِ والغضبِ شجاعةً وقوّةً وشهامة... فإذا حدّدنا الأسباب نستطيع أن نحدّد العلاج:

---

(١) نهج البلاغة: ٥١٦، قصار الحكم: ١٦٤.

١- فإذا كان منشأ الغضب الحالة الصّحّيّة فيجب أن يسعى الإنسان لعلاجها بالطّرق الطّبيّة الصّحيحة، وليعلم أنّ الغضب يزيد من مرضه، فيكون كمن يزيد الطّين بلّة، أو يزيد النار التهاباً بوضع الحطب عليها؛ فـ(إنّ الغضب لا يحاصر روح الإنسان بالحزن والألم فحسب، بل لا ينجو حتى الجسم -وهو محلّ راحة الرّوح والنّفس والفكر - من عواقبه الخطيرة. عندما يشتعل لهيب الغضب المحرق في وجود الإنسان ينصبّ الدّم إلى القلب، فينتشر في عروقه فيحمرّ لون وجهه، وتأخذه الرّعدة والرّعشة، وتتأهب جميع الأعضاء لعمليّة الانتقام، ثم تستتبع من أنواع الأمراض: التهاب الأعصاب، والسّلّ الرّئويّ، وأنواع النّزيف الدّمويّ)[1].

٢- وإن كان ناشئاً من الحساسيّة النّفسيّة فلا بدّ أن يعرف أنّ ذلك لا يناسب الإنسان العاقل، وأنّه يؤدّي به إلى أحطّ المراتب الاجتماعيّة، ويفقده ثقة إخوانه المقرّبين إليه فضلاً عن الآخرين، فإنّ الحساسية (تؤثر على صفاء النّفس واعتدالها، فتجعل فيها ظلاماً يمنعها من التّفاعل الحيويّ في آفاق الإسلام، وتجعلها غير سويّة في بعض تفاعلاتها ومشاعرها... [كما] أنّها تؤثر على استقامة العقل وموضوعيّة التّفكير فتأتي بعض نتائج التّفكير خاطئة، وذاتيّة، وقد تسري العدوى إلى مجالات التّفكير الأخرى)[2]، وهذا ما لا يرضاه عاقل لنفسه أبداً.

٣- وإن كان من حالة اعتادها نتيجة تربية خاطئة فلا بدّ أن يعمل على تغييرها بالتّدريج.

٤- إذا تعرّض الإنسان لحالة استفزازيّة عنيفة ومثيرة فالأفضل أن يغيّر

---

(١) دراسة في مشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ١٣٧-١٣٨.

(٢) ثقافة الدّعوة الإسلاميّة: ٢/١٦٦.

وضعه الجسمي فإن كان واقفاً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**إِنَّ هذا الْغَضَبَ جَمْرَةٌ مِنَ الشَّيْطانِ، توقَدُ في قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذا غَضِبَ احْمَرَّتْ عَيْناهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوداجُهُ، وَدَخَلَ الشَّيْطانُ فيه، فَإِذا خافَ أَحَدُكُمْ ذلِكَ مِنْ نَفْسِهِ فَلْيَلْزَمِ الأَرْضَ؛ فَإِنَّ رِجْزَ الشَّيْطانِ لَيَذْهَبُ عَنْهُ عِنْدَ ذلِكَ**»[1].

ويقول عليه السلام: «**فَأَيُّما رَجُلٍ غَضِبَ عَلى قَوْمٍ - وَهُوَ قائِمٌ - فَلْيَجْلِسْ مِنْ فَوْرِهِ ذلِكَ؛ فَإِنَّهُ سَيَذْهَبُ عَنْهُ رِجْزُ الشَّيْطانِ، وَأَيُّما رَجُلٍ غَضِبَ عَلى ذي رَحِمٍ، فَلْيَدْنُ مِنْهُ، فَلْيَمَسَّهُ، فَإِنَّ الرَّحِمَ إِذا مُسَّتْ سَكَنَتْ**»[2].

---

(١) الكافي: ٧٤٤/٣، ح:٢٥٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ٧٣٩/٣، ح/٢٥٣٢.

(الْبَحْثُ الثّالِثُ)

الْحَسَدُ

قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**الْحَسَدُ أَصْلُهُ مِنْ عَمى الْقَلْبِ، وَالجُحودِ بِفَضْلِ الله تَعالى، وَهُما جَناحانِ لِلْكُفْرِ، وَبِالْحَسَدِ وَقَعَ ابْنُ آدَمَ في حَسْرَةِ الأَبَدِ، وَهَلَكَ مَهْلَكاً لا يَنْجو مِنْهُ أَبَداً**»[١].

نفس الإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى بما تحمل من أهواء، وميول، وغرائز، وعواطف، وما تسلكه من طرق، وأساليب؛ لإشباع تلك الميول والأهواء، ولتنال مستوى أعلى من اللّذّة.

والنّفس هذه لو تركت وشأنها بلا مبدأ يحدّد لها دورها في الكون والحياة، وبلا شريعة تحدّد لها ملاك المصالح والمفاسد لاختارت ما يلذّ لها فقط...

ومن أقوى الغرائز وأشدّها حبّ الذّات الّتي (لا نعرف غريزة أعمّ منها وأقدم، فكلّ الغرائز فروع هذه الغريزة وشُعَبها)[٢]؛ فحبُّ الإنسان لذاته يدفعه للتمحور عليها، والاستئثار بكلّ شيء لأجلها... وهي الّتي تمنعه عن حبّ الخير لغيره... هذا إذا أصبحت هذه الغريزة قطب الرّحى في حياته.

---

(١) مصباح الشّريعة: ١٠٤.

(٢) السّيّد محمّد باقر الصدر، فلسفتنا: ٤٦.

والحسد إحدى إفرازات حبّ الذّات، أو الأنانيّة، بل هو من أجلى صورها وأخطرها... ولذلك إذا أصيب الإنسان به، تمنّى زوال نعم الله عن عباده، وازداد همّاً وغمّاً؛ لعدم وصولها له، وأمّا لو تمنى لنفسه مثل تلك النّعمة من دون تمنّي زوالها فهذا غبطة؛ فالحسد من سمات المنافق والغبطة خاصّة بالمؤمن؛ لأن «**الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَلا يَحْسُدُ، وَالْمُنافِقَ يَحْسُدُ وَلا يَغْبِطُ**»[(١)].

ثم إنَّ الحسد أحد أصول الكفر الثّلاثة، وهي: الحرص، والتّكبّر، والحسد؛ وهو آفة الإيمان والدّين، ورأس العيوب، وأخبث الأمراض، وأقبح الخلائق، وأفظعها على الإطلاق، بل هو شرّ شيمة، وأقبح سجيّة، وسلاح اللّئام، وصفة السّفل، وهابطي الهمم، وذوي النّفوس العليلة[(٢)]... وهو عذابٌ دائمٌ لحامله؛ لأنَّه «**لا راحَةَ لِحَسودٍ**»[(٣)]، فهو دائماً غضبان على من لا ذنب له، مشغول القلب، مضنيّ البدن، محترق الأعصاب، وقد مثّله أمير المؤمنين عليه السلام بالصّدأ الذي يصيب الحديد، يقول عليه السلام: «**كَما أَنَّ الصَّدَأَ يَأْكُلُ الْحَديدَ حَتّى يُفْنِيَهُ، كَذلِكَ الْحَسَدُ يُكْمِدُ الْجَسَدَ حَتّى يُفْنِيَهُ (يُضْنِيَهُ)**».

«**طَهِّروا قُلوبَكُمْ مِنَ الْحَسَدِ فَإِنَّهُ مُكْمِدٌ مُضْني**»[(٤)].

وقال حكيم فارسي: «في الحسد اثنتان: كمد عاجل يثلم العقل، وكدر حادث في العيش».

ولذلك أوّل ما يبدأ بصاحبه فيقتله، قال بكر بن عبد الله المزنيّ: «كان رجل

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٧٤٩/٣، ح/٢٥٥٢.

(٢) هذه الألفاظ مستلّة من الأحاديث الشّريفة.

(٣) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٠، ح/٦٨٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ح/٦٨٢٤-٦٨٢٣.

يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك، فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء سيكفيكه مساويه، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقال: إنّ هذا الّذي يقوم بحذائك، ويقول ما يقول، يزعم أنَّ الملك أبخر، فقال له الملك: فكيف يصحُّ ذلك عندي؟ قال: تدعو به غداً إليك فإذا دنا منك وضع يده على أنفه أن لا يشمّ ريح البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر.

فخرج من عند الملك، فدعا الرَّجل إلى منزله، فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء سيكفيكه مساويه، فقال له الملك: ادنُ منّي، فدنا منه، فوضع يده على فيه مخافة أن يشمّ الملك منه ريح الثّوم، فقال الملك في نفسه: ما أدري فلاناً إلا صدق.

قال: وكان الملك لا يكتب بخطّه إلا جائزة، أو صلة، فكتب له كتاباً بخطّه إلى عامل من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه... وابعث به إليَّ، فأخذ الكتاب، وخرج، فلقيه الرّجل الذي سعى به، فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: خطّ الملك أمر لي بصلة، فقال: هبه لي، فقال: هو لك.

فأخذه ومضى إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إنَّ الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتّى تراجع إلى الملك، قال: ليس لكتاب الملك مراجعة. فذبحه... وبعث به، ثمَّ عاد الرَّجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله، فتعجّب الملك، وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلانٌ، فاستوهبه منّي فوهبته.

فقال الملك: إنَّه ذكر لي أنَّك تزعم أنّي أبخر؟ قال: ما قلت ذلك، قال: فَلِمَ وضعت يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمَني طعاماً فيه ثوم، فكرهت أن تشمّه،

قال: صدقتَ، ارجع إلى مكانك، فقد كفاك المسيء مساويه»[١].

ولهذا قيل: «قاتَلَ الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله»[٢].

مَراتِبُ الْحَسَدِ أَرْبَعَة:

١- أن يحبّ زوال النّعمة عن غيره، حتّى لو لم تنتقل إليه، وهذه أسوأ درجات الحسد، وأحطّ ما يمكن أن يبلغه الإنسان من الحقد، والخبث، والتّسافل.

٢- أن يحبّ زوال النّعمة عن غيره، ويتمنّى انتقالها إليه كرغبته في منصب، أو مسكن، أو مركب، أو امرأة... وهذه أخفّ من سابقتها.

٣- أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم تتحقق تمنّى زوالها، فهو لا يطلب نفس النّعمة، ولكن يتمنّى لنفسه مثلها.

٤ - يتمنى لنفسه مثلها، ولكن لا يتمنى زوالها عن غيره.

أَسْبابُ الْحَسَدِ:

لم يكن الحسدُ خصلةً ذاتيّةً في نفس الإنسان، وإنّما تنشأ من عوامل خارجية تُرَكّزَها وتؤصّلها في النَّفس، وهذه العوامل تدور في ثلاثة محاور:

الأوّل: العائلة: إنَّ العائلة السّيّئة التّربية الّتي تفرّق بين أطفالها في المحبّة، أو المعاملة، أو العطاء... فإنَّ تلك التّربية تنشئ حالة تباغض بين أطفالها، فـ(إنَّ من عوامل نشوء الحسد سوء التّربية في البيت، فإنَّ الأبوين إذا أحبّا أحد أولادهما أكثر من غيره، وخصّصاه بعطفهما وحنانهما، وحرما الآخرين من عواطفهما،

---

(١) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ٣٢٨/٥.

(٢) الأبشيهي، المستطرف في كلّ فنّ مستظرف: ٤٩/٢.

أوجدا فيهم عقدة الحقارة والتّمرّد، وإنَّ حسد كثير من النّاس إنّما يكون ناشئاً من هنا، باعثاً لهم على الشّقاء والتّعاسة)[١]، وإذا ما استمرَّ الوالدان على تلك التّربية فإنَّ هذا سيتأصّل في النَّفس، ويصبح عادةً وسلوكاً، وحينئذٍ ليس من اليسير إزالته من النَّفس؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**ساووا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ في الْعَطِيَّةِ**»[٢].

وعن أنس: «إنَّ رجلاً كان عند رسول الله ﷺ، فجاء ابن له، فقبَّله وأجلسه على فخذه، وجاءته بنية له، فأجلسها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: **ألا سَوَّيْتَ بَيْنَهُما؟**»[٣].

ومن هنا نفهم أنَّ التّمييز بين الأولاد في أيّ شيء كان يُنْشِئ العداوة بينهما، والعداوة تنشئ التّحاسد، وتمتدّ من العائلة إلى المجتمع.

ثانياً: البيئة الاجتماعيّة: فمن العوامل المؤثّرة في التّربية هي البيئة الاجتماعية؛ فإن الطفل الّذي ينشأ في بيئة سليمة، متعاونة، متآزرة يكون لها تأثيرٌ إيجابيٌّ سليمٌ في نفس الطفل، والعكس صحيح؛ كما أنَّ الطفل الّذي ينشأ في وسطٍ غنيّ مترفٍ، وهو يعيش حالة فقر مدقع فإنَّ هذه البيئة تترك أثراً سيّئاً قد يؤدّي إلى نشوء عقدة الحقارة، ثم يؤدّي إلى الحسد.

ثالثاً: الوضع السّياسي: من أسباب نشوء الحسد الوضع السّياسي المنحرف الّذي لا يعدل بين النّاس، ويخلق حالة عدم توازن في الوسط الاجتماعيّ؛ فإن

---

(١) مجتبى اللاري، دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ٩٨.

(٢) المتّقي الهندي، كنز العمال: ١٦/٤٤٤، ح/٤٥٣٤٦.

(٣) العيني، عمدة القاري: ١٣/١٤٥.

ذلك أيضاً يؤدّي إلى التّحاسد بين النّاس.

ومن الأسباب الأخرى للحسد عدم رقابة الإنسان لمشاعره وخواطره النّفسيّة تجاه إخوانه وزملائه... فقد يعايش زميلاً له في دراسة أو عمل، وعلى حين فجأة يرى زميله هذا متفوّقاً عليه؛ فيأخذه العجب، والاستغراب، والاستنكار، وتثور كوامن الذّات في حبّ الظهور والتّفوق، فتنسيه محاسن صاحبه، وملكاته، وجهوده، وقدراته النّفسيّة والبدنيّة، فتنقلب الصّداقة والمحبّة إلى التّحاسد والتّباغض؛ ولذلك يصوّر القرآن الكريم لنا حالة العجب هذه فيقول:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1].

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

وهذا التعجّب يجرّ إلى الحسد حتى يشمل حسد أولياء الله تعالى وأصفيائه؛ ولذلك كان أكثر النّاس تضرّراً من هذه الحالة آل محمد صلّى الله عليه وآله؛ فقد روى أبو الصّباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «... **وَنَحْنُ الْمَحْسودونَ الَّذينَ قالَ اللهُ:** ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[3]»[4].

آثارُ الْحَسَد:

للحسد آثارٌ مدمّرة على الفرد نفسه، وعلى المجتمع؛ ومن هذه الآثار:

---

(١) الأعراف: ٦٣.

(٢) يونس: ٢.

(٣) النّساء: ٥٤.

(٤) الكافي: ٤٥٥/١، ح/٤٨٨.

١- يوقع الإنسان في قلقٍ دائمٍ، واضطراب قاتل، ولا يتوقّف عند حدّ إلا بزوال نعمة المحسود، ولمّا لم يكن ذلك بيد الحاسد فيبقى الحسد يضغط على صدره، فلا يجد للرّاحة سبيلاً أبداً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أَقَلَّ راحَةَ الْحَسودِ**»[١]، وهكذا يتكدّر عليه عيشه وينكّده، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْحَسَدُ يُنَكِّدُ[٢] الْعَيْشَ**».

«**لا عَيْشَ أَنْكَدُ مِنْ عَيْشِ الْحَسودِ وَالْحَقودِ**»[٣].

وهكذا يبقى في نكد وضيق نفسيّ، ومعيشة ضنكا حتى يمرض قلبه، وينهك جسده، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْحَسَدُ يُذيبُ الْجَسَدَ**».

«**الْحَسَدُ يُضْني الْجَسَدَ**»[٤].

٢- هو الآفة الكبرى للدّين والإيمان، وهذا أمر طبيعي حيث إنَّ الحسود يبقى منشغلاً بما يراه في أيدي الناس، فينسيه ذكر الله تعالى، وبذلك يقتلع شجرة الإيمان والدّين من النَّفس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**الْحَسَدُ آفَةُ الدّينِ**»[٥].

«**لا تَحاسَدوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإيمانَ كَما تَأْكُلُ النّارُ الْحَطَبَ**»[٦].

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٠، ح/٦٨٢٩.

(٢) النَّكد: «الشؤم واللّؤم، نَكِدَ نَكداً فهو نَكِدٌ... وكلّ شيء جرَّ على صاحبه شرّاً، فهو نَكَدٌ، وصاحبه أنكَدُ نَكِدٌ. ونكِدَ عيشهم -بالكسر- يَنكَدُ نَكداً: اشتدّ»، لسان العرب لابن منظور: ٤٢٧/٣، باب (نكد).

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٠، ح/٦٨٢٦-٦٨٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ٣٠٠-٣٠١، ح/٦٨٣٢-٦٨٣٣.

(٥) أبو الفتح الكراجكي، كنز الفوائد: ٥٧.

(٦) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٢، ح/١٠٥٨٩.

ولذلك فإنَّ الحسود في شقاء دائم في الدّنيا والآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثَمَرَةُ الْحَسَدِ شَقاءُ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ**»(١).

٣- هو العامل القويّ المؤثّر في قتل روح الأخوّة الإنسانيّة من نفس الإنسان، ويعدم روح المشاركة الوجدانيّة فيها، فترى الحسود يفرح بآلام الآخرين وشقائهم، ويستاء لسعادتهم، ولربّما يدفعه إلى أكبر من ذلك كالقتل والجريمة الأفظع، وخير مثال على ذلك ابن آدم حين قتل أخاه حسداً له، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلا تَكونوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ ما فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فيه سِوى ما أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَداوَةِ الْحَسَدِ**»(٢).

٤- يؤدّي إلى حرمان المجتمع من كثير من الطّاقات المهمّة الّتي يمكن أن تخطوا خطوات واسعة في سبيل تقدّمه ورقيّه، حيث إنَّ الحسّاد كثيراً ما يفترون على الأشخاص المبدعين، ويعطّلون طاقاتهم، ودورهم المناط بهم، لا لشيء سوى الحسد، وخير مثال على ذلك الّذين حسدوا الإمام عليّ عليه السلام، وحرموا الأمّة من طاقاته الجبّارة، وعطّلوا دوره طيلة خمس وعشرين سنة بحجّة أنَّ الإمامة والنّبوّة لا يمكن أن تجتمع في بيت واحد... فوا عجباً من ظلم ابن آدم عندما يتجرأ على الله وأوليائه، يقول الدّكتور كارل: «إنَّ المسؤول عن بخلنا وعقمنا هو الحسد فينا؛ فإنَّه هو الّذي يمنع من وصول آثار تقدّم الأمم المتقدّمة إلى دول العالم الثّالث، وبه أيضاً يمنع من وصول كثير من ذوي القابليّات إلى قيادة أممهم»(٣).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠١، ح/٦٨٥٧.

(٢) نهج البلاغة: ٣١٨، خطبة: ١٩٢.

(٣) دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ٩٧.

٥- إذا شاع التَّحاسد في أوساط الأمّة، ولا سيّما بين الشّريحة المثقّفة فيها فإنَّه سوف تعدم العدالة، وتختلّ الموازين، ويفقد النّظام، وتنتشر الرّذائل، ويسود الظّلم...

لِماذا التَّحاسُدُ بَيْنَ الأَقْرانِ وَالأَقارِبِ؟

غالباً ما يكون التّحاسد بين أشخاص يجتمعون على مقصد واحد، وكلّ يريد أن يكون له قصب السّبق، والفوز، والغلبة، وأكثر ما يقع هذا بين أشخاص يتقاربون نسباً، أو مهنةً، أو مسلكاً، أو مكاناً.

والعلّة في ذلك هو تعارض المصالح الّذي يؤدّي إلى التّنازع والعداء، والعداء يؤدّي إلى التّحاسد؛ لذلك نرى أنَّ التّاجر يحسد التّاجر، والعالم يحسد العالم، والمرأة تحسد ضرّتها، فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التّزاحم على مقصد واحد، والغرض الواحد لا يجتمع بين متباعدين إلا ما ندر... وهذه في الأغراض الدّنيويّة الضّيّقة المحدودة، وأما في الأهداف الكبيرة والأغراض الرّسالية فلا يقع هذا؛ ولذلك لا يقع تحاسد بين العلماء بالله تعالى؛ (لأنَّ مقصدهم هو معرفة الله تعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله سبحانه، ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى)[1].

أمّا بين العلماء الذين يطلبون الدُّنيا بالدّين فترى التّحاسد بينهم على أشدِّه؛ لأنَّ غرضهم من تحصيل العلم هو نيل المراتب الدّنيويّة، والدّنيا محدودة فيقع فيها التَّزاحم بينهم؛ ولذلك ترى: الافتراء، والتّجاهل، والتّباغض، والتحاسد سائداً

---

(١) المحجّة البيضاء: ٥/٣٤٠.

بينهم، ومن هنا ورد في مرفوعة عليّ بن أسباط أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنَّ اللهَ يُعَذّبُ السِّتَّةَ بالسِّتَّةِ... والْفُقَهاءَ بِالْحَسَدِ**»(١).

قال الشّيخ النّراقي قدس سره في جامع السّعادات: «إنّه لا تحاسُدَ بين علماء الآخرة؛ لأنّهم يلتذّون، ويبتهجون بكثرة المشاركين في معرفة الله، وحبّه، وأنسه، وإنّما يقع التّحاسد بين علماء الدّنيا، وهم الّذين يقصدون بعلمهم طلب المال والجاه. إذ المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها أيدي الآخرين، والجاه ملك القلوب، وإذا امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، انصرف عن تعظيم الآخر، أو نقص عنه لا محالة، فيكون ذلك سبباً للتّحاسد، وأمّا إذا امتلأ قلبه من الابتهاج بمعرفة الله لم يمنع ذلك من أن يمتلئ غيره به. فلو ملك إنسان جميع ما في الأرض، لم يبقَ بعده مالٌ يملكه غيره لضيقه وانحصاره. وأمّا العلم فلا نهاية له، ومع ذلك لو ملك إنسانٌ بعضَ العلوم، لم يمنع ذلك من تملّك غيره له.

فظهر أنَّ الحسد إنّما هو في التّوارد على مقصود مضيق عن الوفاء بالكلّ، فلا حسد بين العارفين، ولا بين أهل العلّيين، لعدم ضيق ومزاحمة في المعرفة ونعيم الجنة؛ ولذا قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٢)»(٣).

(١) الكافي: ٣٨٧/١٥، ح/١٤٩٨٥.

(٢) الحجر: ٤٧.

(٣) الشّيخ النّراقي، جامع السّعادات: ٢٠٤/٢.

عِلاجُ الْحَسَدِ:

لا بدَّ أن نعلم أنَّ علاج أيّ مرض يحتاج إلى أمرين:

الأوّل: الاعتراف بوجود المرض.

الثّاني: إرادة التّخلّص منه.

وهذان الأمران لا يتوفّران إلا بالعلم والعمل؛ فالعلم يؤدّي إلى الاعتراف بالمرض، والعمل يطرد ذلك المرض، ثمّ لا بدّ من معرفة أسباب المرض، وطرق علاجه، فنحن نرى أنَّ الطبيب البدنيّ يفحص المريض ليشخص الجرثوم المسبّب للمرض؛ لذلك أفضل طرق العلاج أن يعترف الإنسان بنفسه بالحسد.

أمّا كيف يعرف ذلك؟ فجوابه: إنَّ هذا الأمر يعرفه صاحبه قبل أيّ شخص آخر- إذا لم يخادع نفسه - ومن علاماته أنَّه إذا رأى نعمة عند غيره شعر بضيق، وعدم ارتياح، إمّا لعداوته لذلك الشّخص، وإمّا لتمني زوال تلك النّعمة حسداً؛ فشعور الإنسان بالضّيق، والحقد، والغضب على إنسان صاحب نعمة، وبدون سبب آخر أوضح علامات الحسد، هذا أوّلاً...

وثانياً: يجب أن يرجع إلى الأسباب كما أسلفنا، ويجتثّها من نفسه بالإيمان والوعي؛ لأضرارها عليه في دنياه وآخرته؛ فإذا وعى الأسباب استطاع أن يعالج نفسه بنفسه، فإذا علم أنَّ من أسباب الحسد العداوة والبغضاء، وأنَّ البغضاء تمحق الدّين والإيمان والحسنات، وحكّم عقله في ذلك استطاع أن يغيّر حاله إلى حال أخرى، وهكذا بقيّة الأسباب...

إنَّ أضرار الحسد على الإنسان في الدّنيا والآخرة حريٌّ بكلّ عاقل فضلاً عن المؤمن أن يقف عندها، ويتأمّلها بدقّة ووعي إيماني لكي يستطيع أن يقتلعها

من نفسه، فأيّ عاقل يرضى لنفسه نكد العيش، وضيقه، وحبط الحسنات، وسلب الثّقة بالله تعالى... هذا من جانب، ومن جانب آخر لقد تأكّد لدينا بالدَّليل النَّقلي والرّوايات المستفيضة في ذلك، والدَّليل العقلي أنَّ الحاسد يضرّ بنفسه، ولا يضرّ بالمحسود مطلقاً؛ ولذا مُثّلَ الحسد بالنّار الّتي تأكل الحطب، وهو تمثيلٌ دقيقٌ له دلالة خطيرة تستبطن معنى دقيقاً مفاده: أنَّ الحسد يحرق الإيمان، والدّين، والحسنات، والجسد، والعقل، والقلب، فأيّ عاقل يرضى لنفسه ذلك.

والأمر الأهمّ هو ينبغي أن يعلم المعالج أنَّ الحاسد معادٍ لنعم الله، ساخط لقضائه، ناقم على عباده، وهذا ما يعرّضه لنقمة الله سبحانه وتعالى.

وقد طرح الشّهيد الثّاني قدس سره نوعين من العلاج للحسد نظريّاً وعمليّاً، قال: «وأمّا الدّواء العمليّ فبعد أن يتدبّر ما تقدّم ينبغي أن يكلف نفسه نقيض ما يبعثه عليه، فيمدح للمحسود عليه عند بعثه على القدح، ويتواضع له عند بعثه على التّكبّر، ويزيد في الإنعام عند بعثه على كفّه، فينتج هذه المقدّمات تمام الموافقة، وتنقطع مادة الحسد، وتستريح القلب من ألمه، وغمّه؛ فهذه أدوية نافعة جداً إلا أنّها مُرّة جدّاً لكنَّ النَّفع في دواء المرّ، ومن لم يصبر على مرارة الدّواء، لم يظفر لحلاوة العشاء»[(١)].

ولنختم هذا الفصل ببعض ما ورد من أحاديث شريفة تبيّن لنا خطورة هذا المرض الوبيء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ لِنعَمِ الله أَعْداءً**»، فقيل: «ومن أولئك؟» قال: **الّذين ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾**[(٢)]»[(١)].

---

(١) رسائل الشّهيد الثّاني: ٣٢٠.

(٢) النّساء: ٥٤.

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «آفَةُ الدّينِ الْحَسَدُ، وَالْعُجبُ، وَالْفَخْرُ»(٢).

وعنه عليه السلام قال: «قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله: قالَ اللهُ - عزَّ وَجَلَّ - لِموسى بنِ عِمْرانَ: يا ابْنَ عِمْرانَ، لا تَحْسُدَنَّ النّاسَ عَلى ما آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْلي، وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ذلِكَ، وَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ، فَإِنَّ الْحاسِدَ ساخِطٌ لِنعمي، صادٌّ لِقَسْمي الّذي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبادي، وَمَنْ يَكُ كَذلِكَ فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنّي»(٣).

قال زكريّا عليه السلام: «قال الله تعالى: الْحاسِدُ عَدُوٌّ لِنعْمَتي، مُتَسَخّطٌ لِقَضائي، غَيْرُ راضٍ لِقِسْمَتِيَ الّتي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبادي»(٤).

وقال صلى الله عليه وآله: «دَبَّ إِلَيْكُم داءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضاءُ، وَالْبغْضَةُ هِيَ الْحالِقَةُ، لا أَقولُ: حالِقَةَ الشَّعْرِ، وَلكِنْ حالِقَةَ الدّينِ...»(٥).

→

(١) المحجّة البيضاء: ٣٢٧/٥.

(٢) الكافي: ٧٤٨/٣، ح/٢٥٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٧٤٨/٣-٧٤٩، ح/٢٥٥١.

(٤) المحجّة البيضاء: ٣٢٦/٥.

(٥) المصدر نفسه.

(الْبَحْثُ الرّابِعُ)

التَّكَبُّرُ

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1].

الكبر، والتّكبّر، و الاستكبار ألفاظ متقاربة المعنى؛ فالكِبْرُ (الحالة الّتي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظمُ التّكبّر: التّكبّرُ على الله بالامتناع من قبول الحقّ والإذعان له بالعبادة)[2].

إنَّ التّكبّر مرض نفسيّ اجتماعيّ يُصاب به الإنسان، حين يحسّ بتميّزه وتفوّقه على الآخرين في صفات الكمال، والتّقدّم؛ كالعلم، والمال، والعبادة، والسُّلطان، والجاه، والجمال، والقوّة؛ فيشعر أنَّه أكمل من الآخرين علماً، أو أكثر مالاً، أو أقوى جسداً، أو أجمل صورةً، أو أشرف نسباً، أو أشدّ عبادةً، أو أرقى مقاماً ... هذه الأمور وغيرها أدوات، ووسائل عندما يمتلكها المرء، ويشعر بافتقار غيره إليها، قد يصاب بالغرور، والإعجاب، فحينئذٍ يشعر أنَّه أسمى درجةً، وأعلى منزلة من غيره؛ وعلّة هذا الشّعور وسرّه: أنَّ النفس ضعيفة أمام مغريات الدّنيا إن لم يسعفها الإيمان، ويرتفع بها عن تراب الأرض، ويعرّفها بعلّة وجودها، وسرّ

---

(١) غافر: ٣٥.

(٢) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٥٨١، باب (كبر).

إيجادها، ومحدوديّة بقائها في هذه الدّنيا، وحتميّة رحيلها عنها، وحسابها على ما عملت فيها...

ومن ناحية أخرى: إنَّ النفسَ فيها ميلٌ وهوى إلى الظهور والاستعلاء، وهذا أمرٌ كامنٌ فيها، فعندما تجد مزيّة تتفوّق بها على الآخرين تحاول أن تستطيل بها عليهم؛ لتسدّ نقصاً تشعرُ به من جانب آخر.

وموجز القول: إنَّ التّكبّر حالة تحصل في النَّفس عندما يشعر الإنسان أنّ له مرتبة يفتقر لها الآخرون، ويتميّز بها عليهم، فيرى نفسه أعلى درجة، وأسمى مقاماً فيستعلي بها عليهم، والسّرّ في ذلك هو الكوامن الخفيّة في الصُّدور الخالية من معرفة الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ** ﴾[1]؛ ففي هذه الآية إشارة إلى تلك الكوامن الّتي لا تقف عند حدّ، بل تبقى تطلب المزيد من العلوّ والظّهور، وتجادل أهل الحقّ؛ لتبطل الحقَّ بالباطل؛ (فهم ينطلقون من عقدة استكبار تمنعهم من الخضوع للحقّ الّذي يهدّد امتيازاتهم الطّبقيّة، أو طموحاتهم الذّاتيّة)[2].

وهكذا تستمرّ نفسيّة المستكبر على هذا المنوال حتّى لو ملكت الدُّنيا بأسرها، وهذا هو شأن المستكبرين دائماً وأبداً.

وحالة التّجبّر قد لا تختصّ بصنف من النّاس كالملوك، والحكام، والعلماء، بل قد توجد في أدنى النّاس مرتبةً، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إِنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله مَرَّ في بَعْضِ طُرُقِ الْمَدينَةِ، وَسَوْداءُ تَلْقُطُ السِّرْقينَ، فَقيلَ لَها:**

(١) غافر: ٥٦.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، من وحي القرآن: ٢٠/٦٠.

تَنَحَّيْ عَنْ طَرِيقِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَتْ: إِنَّ الطَّرِيقَ لَمُعْرَضٌ، فَهَمَّ بِها بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ يَتَناوَلَها، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: دَعوها؛ فَإِنَّها جَبَّارَةٌ»(١).

والمتكبّر دائماً يشعر بذلّة داخليّة في نفسه، ويحاول أن يسدَّ هذا النَّقص، ويعوّض عنه، وقيل: «ما تكبّر أحدٌ إلا لنقص وجده في نفسه، ولا تطاول إلا لوهن أحسّ من نفسه»(٢).

فمنبع التّكبّر إذن هو الشّعور بالنَّقص، ومحاولة التّعويض عن هذا النَّقص بالتكبر، (وإنَّ كثيراً من المتكبّرين إنّما هم أولئك الشّذّاذ الّذين تربّوا في عائلة متسافلة، ثمّ تسلّلوا إلى مقام ما في المجتمع، وهم بذلك يريدون أن يجبروا ما هو فيهم من النّقص العائليّ، فهم يتصوّرون لأنفسهم شخصيّة أسمى من شخصيّات سائر النّاس، ويريدون أن يعلنوا عن شرفهم هذا الموهوم عن طريق الكبر والغرور)(٣).

وفي مصطلح علماء النَّفس أن المتكبر يحسّ بـ(عقدة حقارة)، (وإنَّ شيطان الكبر لا يتطرّق إلى ضمير الإنسان إلا حينما يصاب الإنسان بمرض (الإحساس بالحقارة)، وهذا الإحساس هو الَّذي ينتهي إلى إيجاد (عقدة الحقارة) في المريض، وهي عقدة مؤلمة مدمّرة من الممكن أن ينبع عنها أخطار كثيرة، وجرائم مختلفة، وهي الّتي تجرّ المتكبّر إلى المزيد من الشّقاء)(٤).

قال الدّكتور **مك برايد**: «إنَّ تكبّر أيّ شخص على آخر، أو أيّة أمّة على

---

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٧٥٣/٣، ح/٢٥٦١.

(٢) الرّاغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء: ٢٦٠/١.

(٣) مجتبى اللاري، دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ١٠٧-١٠٨.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٧.

أخرى إنّما يعني احتقار الشَّخص الآخر، أو الأمّة الأخرى، وإنَّ أكْثَرَ الخصومات والمنازعات اليوم لهي ناشئة من عقدة الحقارة، وإنَّ اتّخاذ فكرة التّكبّر، أو التّخاصم لهو نوع من محاولة سدّ الفراغ الّذي يحسّه المتكبّر في باطنه من عقدة الحقارة، وإلا فلا يتصوّر أيّ إنسان شريف طاهر الضّمير، أو أيّة أمّة، أو طبقة، أو عنصر، أو قوم، أو دم، أيّة ميزة، أو أيّ اختلاف بينهم وبين الآخرين»(١).

ومن أسباب التّكبّر النّظرة الخاطئة إلى نفسه، فكثيراً ما يتصوّر الإنسان أنَّه أكبر وأعلى مما هو عليه في الوسط الاجتماعي الّذي يعيش فيه.. مع الجهل بطبيعة النَّفس، وما فيها من أنواع الضعف، وانحدارها أمام الحاجات النّفسيّة والبدنيّة، وينسى أنَّه يعيش في دار يسير فيها نحو الضعف والتّنازل، وأنَّه سائر نحو الفناء؛ كلّ هذه التّصوّرات تؤدّي بصاحبها إلى أن يتعالى، وينسى سرّ وجوده، وعلّة إيجاده؛ وسبب الأسباب كلّها خلوّ النّفس من الشّعور بعظمة الخالق الجبّار، والجهل بضعف النّفس، وخضوعها لشروط موضوعية إذا فقدت هوت النَّفْسُ إلى قاع الفناء، يقول الإمام علي عليه السلام: «**مِسْكينٌ ابْنُ آدَمَ: لَهُ بَطْنٌ يَقولُ: امْلأني وَإِلا فَضَحْتُكَ، وَإِذا امْتَلأ يَقولُ: فَرِّغْني وَإِلا فَضَحْتُكَ، وَهُوَ أَبَداً بَيْنَ فَضيحَتَيْنِ**»(٢).

«**مِسْكينٌ ابْنُ آدَمَ، مَكْتومُ الأَجَلِ، مَكْنونُ الْعِلَلِ، مَحْفوظُ الْعَمَلِ**»(٣).

ومن الحقائق الدّامغة أنّ النَّفس إذا خلت من الإيمان بالله أصبحت ريشة

(١) دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ١٠٩.

(٢) الشّيخ جعفر الحائري، نهج البلاغة الثاني: ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٥، قصار الحكم: ٤٠٧.

في مهبّ رياح الغرائز والشّهوات، فتهوي من سموّ الإنسانيّة الرفيعة إلى حضيض الشّيطانيّة المطرودة من رحمة الله تعالى.

(والإنسان حين يخلو قلبه من الشّعور بالخالق القاهر فوق عباده، تأخذه الخُيَلاء بما يبلغه من ثراء، أو سلطان، أو قوّة، أو جمال. و لو تذكّر أنّ ما به من نعمة فمن الله، وأنَّه ضعيف أمام حول الله، لطامن من كبريائه، و خفَّف من خُيَلائه، ومشى على الأرض هوناً لا تيهاً ولا مرحاً.

والقرآن يَجْبَهُ المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[١]، فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل لا يبلغ شيئاً من الأجسام الضّخمة الّتي خلقها الله. إنّما هو قوي بقوّة الله، عزيز بعزّة الله، كريم بروحه الّذي نفخه الله فيه؛ ليتّصل به، ويراقبه، ولا ينساه)[٢].

بَواعِثُ التَّكَبُّرِ:

يؤكّد علماء الأخلاق أنَّ أسباب التّكبّر كثيرة: منها في المتكبّر نفسه، ومنها في المُتَكَبَّر عليه، أي مردوداتها عليه، وسبب بغيره؛ فأمّا الّتي تتعلّق بالمتكبّر فهو العجب، وأمّا السّبب الّذي يتعلق بالمتكبَّر عليه: فالحقد، والحسد، والّذي يتعلق بغيرهما هو الرِّياء؛ فالأسباب أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرّياء.

فصفة التّكبّر رذيلة، قبيحة، وليدة العجب، وثمرته أنَّ المتكبّر يعجب

---

(١) الإسراء: ٣٧.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٣٢٨/٥.

بنفسه، وبمواهبه، وقدراته؛ فيتوهّم أنّ تلك المواهب إنَّما حصل عليها نتيجة قدراته الخاصّة، وينسى نعم الله عليه فتجرّه إلى الجحود، و تشعره بالاستقلاليّة عن الله، ولعلَّ هذا ما أصاب قارون حين نصحه قومه أن لا يبطر ويطغى، وأن يتذكّر نعم الله عليه، وأن لا ينسى نصيبه من الدّنيا، وأن يحسن بما آتاه الله، فأجاب المغرور المتغطرس: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]، وبذلك أخذه الخُيَلاء، وسيطر عليه الإعجاب، فكانت عاقبته أن خسف الله به وبدار الأرض، وأصبح عبرةً للمعتبرين.

إنَّ الإنسان حينما يكون خاوي الإيمان بالله، ويملك قدرة ماليّة، أو علميّة، أو سياسيّة تجعله ينظر إلى محاسنه، وينسى ضعفه، وحاجته، وسيّئاته، فتعظم نفسه، ويترفّع على أبناء جنسه، ويحتقرهم.

هذا كلّه نتيجة الغفلة عن الله تعالى، واستدراجه لخلقه؛ ليخرج كوامن النّفوس، و يثبت عليها الحجّة يوم القيامة، ويجزي كلّ نفس ما تستحقّ من الثّواب، أو العقاب.

ظَواهِرُ التَّكَبُّرِ:

قلنا: إنَّ التّكبّر مرض يكمن في النّفس نتيجة الشّعور بالنّقص، أو إحساس بالذّلّ والحقارة، وهذا مدلول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾[2]، ولكن هناك ظواهر تدلّ

(١) القصص: ٧٨.

(٢) غافر: ٥٦.

على تكبّر الإنسان، وتفضح صاحبها مهما أراد أن يتظاهر، أو يدّعي التّواضع، ومن هذه الظواهر: التّرفّع عن مجالسة من هو دونه في المال، أو الجاه، أو المقام السّياسي، بل بعضهم يتخطّى الرّقاب؛ كي يتصدّر المجالس العامة، حتى لو أزاح أحداً من مجلسه... ومنها الغضب والانفعال عند ردّ قوله، أو مناقشة رأيه؛ ومنها الاستنكاف من قبول النّصيحة، أو سماع الموعظة؛ ومنها استحقار العامّة، والتّزلف إلى خواص النّاس ممّن يظنّ أنّه يرتفع بمخالطتهم؛ ومنها أنّه لا يسبق أحداً بالسّلام، بل ينتظر من الآخرين أن يبدؤوه بالسّلام؛ ومن أبرز هذه الظواهر عدم قبول الحق، وتسفيه أهله؛ فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «**الْكِبْرُ أَنْ تَغْمِصَ النّاس**[١]**، وَتَسْفَهَ الْحَقَّ**»[٢]، أي يستحقر النّاس، ويستصغر أقدارهم، ويسفه آراءهم الحقّة، ويستخفّ بها.

وعن عبد الأعلى بن أَعْيَنَ قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **قَالَ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله: **إنَّ أَعْظَمَ الْكِبْرِ غَمْصُ الْخَلْقِ، وَسَفَهُ الْحَقِّ**»، قال: «قلتُ: وما غمص الخلق، وسفه الحقّ؟ قال: **يَجْهَلُ الْحَقَّ، وَيَطْعُنُ عَلى أَهْلِهِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ فَقَدْ نازَعَ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - رِداءَهُ**»[٣].

بِماذا يَسْتَكْبِرُ الإِنْسانُ؟

هناك بعض الأمور الّتي تجعل الإنسان يشعر بتميّزه على الآخرين، وتحسّسه بأنَّ له مرتبةً اجتماعيّةً مُشَخَّصَةً حصل عليها بقدرته الذّاتيّة، وتفوّقه

---

(١) يغمص النّاس: أي احتقرهم ولم يرَهم شيئاً، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٣٨٦/٣، باب (غمص).

(٢) الكافي: ٧٥٦/٣، ح/٢٥٦٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٧٥٦/٣-٧٥٧، ح/٢٥٦٨ .

العالي، فيصاب بالغرور والتّكبّر إذا لم يكن الإيمان بالله تعالى قد ملك قلبه؛ ومن هذه الأمور:

أوّلاً: العلم:

من أهم المميّزات البارزة في الواقع الاجتماعي هو العلم، وما لم يكن طلبه وتحصيله لله فإنّ الإنسان يصاب بالغرور والخُيَلاء، ويتصوّر أنّه أفضل من غيره، فيزداد في نفسه رفعة، وفي النّاس تطاولاً، وبالله غروراً، فيقع في شباك الشّيطان، يقول رسول الله ﷺ: «...**وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلدُّنْيا، وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ النّاسِ، وَالْحَظْوَةِ عِنْدَ السُّلْطانِ لَمْ يُصِبْ مِنْهُ باباً إلا ازْدادَ في نَفْسِهِ عَظَمَةً، وَعَلى النّاسِ اسْتِطالَةً، وَبِالله اغْتِراراً، وَمِنَ الدّينِ جَفاءً...**»[١].

يقول علماء الأخلاق: إنّ سبب الكبرياء عند بعض العلماء أمران:

أوّلاً: اشتغاله بما يُسمّى علماً، وليس هو بعلم حقيقي، وإنّما العلم الحقيقي ما يعرف العبد به نفسه؛ ليعرف ربّه، أو أحكام شريعته، وهذا يورث الخشية والتّواضع، دون الكبر والأمن من مكر الله؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٢].. فأمّا ما وراء ذلك كعلم الطبّ، والحساب، واللّغة، والشّعر، والنّحو، وفصل الخصومات، وطرق المجادلة، (بل حتّى علوم الدّين كالأصول، والفقه، وعلوم القرآن، وغيرها...) إذا لم يكن طَلَبَها لله تعالى، وطَلَبَها للدّنيا، ونيل المنزلة الاجتماعيّة والسّياسيّة؛ فإنّها ستؤدّي إلى امتلاء نفسه: تيهاً، وخيلاء، وإعجاباً، وتميّزاً على النّاس.

---

(١) الفتّال النّيسابوري، روضة الواعظين: ١١.

(٢) فاطر: ٢٨.

إنّ العلم الذي يورث التّواضع هو العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأحكامه، ومعرفة مقام الرّبوبيّة، وحقيقة العبوديّة لله تعالى شريطة أن يكون طَلَبُهُ لله؛ لأجل امتثال أمره تعالى.

الثّاني: إنّ من يطلب العلم وهو ملوّث النَّفس، خبيث السّريرة، وسيّئ الخلق فإنّه كالأرض السّبخة لا يزيدها نزول المطر إلا عفونة، وخشونة، وملوحة؛ كذلك العلم إذا حصل لنفس ملوّثة فلا تزداد إلا كبراً، وغروراً، وإعجاباً، وتطاولاً على النّاس، واغتراراً بالله، وجفاءً من الدّين، وتلك هي سنّة الله تعالى؛ فإنّ القرآن الكريم الّذي هو نور الله في أرضه، عندما ينزل على النّاس فإنّ له تأثيرين متعاكسين حسب طبيعة النّفوس المتلقّية له، فبمقدار ما يزيد المؤمنين نوراً، وشفاءً، ورحمةً يزيد الظّالمين خسارة، يقول تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[١].

والسَّبب في ذلك أنّ نفوس الظّالمين أصبحت سوداء، مظلمة، كثيفة، درنة، لا تقبل النّور؛ ولذلك فإنّ على طالب العلم أن يبدأ بتزكية نفسه وتهذيبها أوّلاً، ثم يطلب العلم ثانياً، وبدون ذلك سيعطي طلب العلم نتيجة عكسيّة.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «وكما رأينا أيضاً كيف كان للعلم تأثير السّوء في بعض طلبة العلوم الشّرعيّة النّقليّة، وكيف إنّه زاد من فساد أخلاقهم، فأصبح ما كان ينبغي أن يكون سبباً لفلاحهم وصلاحهم سبباً لهلاكهم ولجرّهم نحو الجهل والمماراة والتّعالي والختل»[٢].

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) الإمام الخمينيّ، آداب الصّلاة: ٤٤، ط: مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قدس سره .

ولئلا يقع طالب العلم في هذه الهاوية المهلكة يقول قُدِّسَ سِرُّهُ: «يجب على طلاب العلوم الدّينيّة، والسّالكين لهذا السّبيل المحفوف بالمخاطر، أن يكون أوّل ما يضعونه بعين الاعتبار، إصلاح أنفسهم أثناء الدّراسة، ويقدّموه مهما أمكن على كلّ شيء؛ لأنّه أوجب كلّ الواجبات العقليّة والفرائض الشّرعيّة، وأصعبها»[1].

ثانياً: العبادة:

إنّ قيمة العمل عند الله تعالى بمقدار ما تكون الدّوافعُ سليمةً خالصةً لله تعالى، فبسلامة الدّوافع يسلم العمل، ويكون مقبولاً عند الله تعالى، والعكس صحيح، فإذا لم يكن العمل خالصاً مخلَصاً لله تعالى؛ فإنّ الإنسان يحسّ بأنّ له فضلاً ومرتبة بذلك العمل، وبتلك العبادة يتميّز على الآخرين، وحينئذٍ يصاب بالغرور، والخيلاء، والتّرفّع على النّاس، وربّما يجرّه -والعياذ بالله- إلى المنّة على الله تعالى فضلاً عن التّرفّع على أمثاله، وبذلك يقع في التّيه والإعجاب حتّى يصل به الأمر إلى احتقار القادمين إليه، والمتقرّبين منه، والطالبين فضله، بل حتّى المتفضّلين عليه.

رُوِيَ: «أنَّ رجلاً في بني إسرائيل -يُقال له: خليع بني إسرائيل؛ لكثرة فساده- مرَّ برجل آخر، يقال له: عابد بني إسرائيل، وكانت على رأس العابد غمامة تظلّه، فلمّا مرّ الخليع به، فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل، وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعلّ اللهَ يرحمني، فجلس إليه، فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل، كيف يجلس إليَّ؟! فأنف

(١) الإمام الخمينيّ، الأربعون حديثاً: ٣٤٧.

منه، وقال له: قُمْ عنّي، فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزّمـان: **مُرْهُما فَلْيَسْتَأْنفا الْعَمَلَ، فَقَدْ غَفَرْتُ لِلْخَليعِ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَ الْعابِدِ**»[١].

وهذه الحكاية مصداق لما قاله الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «ربّما يتّفق أنّ السّالك يسقط من الأوج الأعلى إلى أسفل السّافلين بنظرة واحدة تحقيريّة إلـى عبـد مـن عباد الله، ولا يستطيع جبران هذا السّقوط في السّنين المتوالية»[٢].

ثالثاً: التكبّر في النّسب والحسب:

قد يكون الحسب الشّريف، والنّسب المنيف أحد دواعـي التّكبّـر وأسـبابه عند الإنسان؛ لأنّها قد تجعله يحسّ بعلوّ رتبته على الآخرين في حالة من حالات: الانفعال، أو العصبيّة، أو الافتخـار، أو العجـب، وإذا لـم يسـعفه الإيمـان بـالله عـزّ وجلّ قد يصرّ عناداً واستكباراً، ولعلّ هذا العامل هو الّـذي أصّـل الـرّوح القوميّـة المتعالية عند بعض الشعوب، وقد يغفل المؤمن في لحظة مـن لحظـات الانفعـال، فتظهر على لسانه فلتة فينادي الآخرين الّذين يختلف معهم فـي النّسـب، أو اللـون بنداء مهينٍ مزرٍ.

عن أبي ذر رحمه الله أنّه قال: «قاولت رجلاً عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله، فقلـت لـه: يـا ابـن السّوداء، فقال النّبـيّ صلّى الله عليه وآله: **يا أَبا ذَر، طَفَّ الصّاعَ**[٣]**، طَفَّ الصّاعَ، لَيْسَ لاِبْـنِ بَيْضاء عَلى ابْنِ سَوْداء فَضْلٌ**»، قال أبـو ذر: «فاضـطجعتُ، وقلـتُ للرّجـل: قـم،

---

(١) الفيض الكاشانيّ، المحجّة البيضاء: ٢٣٩/٦ .

(٢) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصّلاة: ١٦٦، ترجمة: السّيّد أحمد الفهري.

(٣) قال الشّريف الرّضي: «قوله صلّى الله عليه وآله: «**طَفُّ الصّاعِ لَمْ تَمْلؤوه**» من العبارات العجيبة عن هـذا المعنى، يريـد أن كلّكـم قاصر عن غاية الكمال، تشبيهاً بطفّ المكيال، وهو أن يقارب الامتلاء من غير أن يمتلئ. يقال: طفّ المكيال وطفافه إذا أريد به هذا المعنى، وهو ضد الطّلاع والطّفاح» المجازات النّبويّة: ١٦٢ .

فطأ على خدّي»[١].

ورُوِيَ: «أنَّ رجلين تفاخرا عند رسول الله ﷺ، فقال أحدهما للآخر: أنا فلان ابن فلان، فمن أنت لا أمّ لك؟ فقال النّبيّ ﷺ: **افْتَخَرَ رَجُلانِ عِنْدَ موسى عليه السلام، فَقالَ أَحَدُهُما: أَنا فُلانٌ ابنُ فُلانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَأَوْحى اللهُ إِلى موسى عليه السلام: قُلْ لِلّذي افْتَخَرَ: كُلُّ التِّسْعَةِ مِنْ أَهْلِ النّارِ، وَأَنْتَ عاشِرُهُمْ**»[٢].

وأوّل من فتح باب الفخر بالنّسب إبليس حين «**اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ، فَعَدوُّ اللهِ إمامُ الْمُتَعَصِّبينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنازَعَ اللهَ رِداءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِباسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِناعَ التَّذَلُّلِ**»[٣] عندما افتخر على آدم بأصله، فقال: أنا ناريّ، وأنت طينيّ، فأنا أفضل منك، فالمتفاخر بالنّسب مقتدٍ بإبليس ومقلّده.

رابعاً: التّكبّر بالمال:

للمال تأثيرٌ على نفس الإنسان، حيث إنّ الإنسان بطبعه إذا أحسّ بالغناء والاستغناء يصيبه الطغيان، يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٤]، ومعنى ذلك أنَّ الإنسان عندما يرى نفسه غنيّاً يشعر بالقوّة والتّفوّق على الآخرين، وحينئذٍ تنتفخ أوداجه، ويتعالى شعوره بالاستعلاء على الآخرين، وخير واقعة في ذلك قصة الرجلين اللّذَين دخلا بستان الغنيّ منهما، فأحسّ الغنيّ أنَّ له فضلاً

---

(١) المحجّة البيضاء: ٦/٢٤٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نهج البلاغة: ٣١٥-٣١٦، خطبة: ١٩٢.

(٤) العلق: ٦-٧.

على صاحبه بما تحمل أشجاره من أثمار، فأصابه العجب، وراح يفتخر على صاحبه، فيقول: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[(١)]، فهنا أحسّ بالتّفوّق على صاحبه بكثرة المال، وعدد الأفراد، فراح يتعالى ويطغى حتّى صار يشعر بأنّ هذا المال سيجعل له فضلاً في الآخرة عند الله، وسيجد عنده تعالى خيراً منها، فنسي أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي منحه إيّاها، ولو شاء أن يسلبها منه لفعل، ولكنّ بريق المال أنساه مواهب الله تعالى؛ ولهذا أخذ يفتخر ويستكبر، ويستعلي على صاحبه بدلاً من أن يشكر الله على نعمه!

إنّ استكبارَ الإنسان بأمواله دليلٌ على نقصان عقله؛ لأنّ المال وحده لا يمكن أن يسعد الإنسان، ولربّما يملك المالُ صاحبَهُ، ولم يملكه هو، فيتحوّل إلى عذاب شديد في الدّنيا، وعقاب وبيل في الآخرة، والمال لا يدوم عند أحد، فقد ينقلب الغنيُّ بين ليلة وضحاها فقيراً، وبالعكس.

جاء في كتاب حبيب السّير: «إنّ عمرو بن ليث خرج مع ثمانين ألف مقاتل مجهّز لقتال الأمير إسماعيل السّاماني الّذي كان معه عشرة آلاف مقاتل خيّالة، ولكن لمّا دقّت طبول الحرب، وارتفع صوت النّفير، أصابت فرس عمرو بن ليث وحشة، فتقدّم به فجأة، وبلا اختيار إلى صفوف الأعداء، فاستطاع الأمير إسماعيل بدون خوض أيّة معركة أن يتغلّب عليه، ويحبسه في خيمته، وينقل: أنّ عمرو نظر ذلك اليوم إلى أحد الخدم، فدعاه، وشكى له الجوع، فأحضر له في الحال قطعة من اللّحم، وحيث لم يكن يوجد قدر وضعها في سطل الفرس، وأشعل النّار، وانصرف إلى عمله، وصدفة جاء كلب، ومدّ رأسه في السّطل،

(١) الكهف: ٣٤.

فاحترق لسانه بحرارة الحساء (الشّوربا)، ولمّا أراد أن يخرج رأسه سريعاً علقت عروة السطل في عنقه، فذهب به راكضاً، ولمّا رأى عمرو هذا المنظر ضحك، فسأله أحد الحرّاس عن سبب ضحكه، فقال: اليوم يشتكي طبّاخي، إذ إنّ ثلاثمائة واسطة نقل تنقل أدوات طبخنا بمشقّة، وها أنا الآن أرى كلباً قد نقلها بسهولة»[١].

وقال محمّد بن عبدالرّحمن الهاشميّ: «دخلت على أمّي يوم أضحى، وعندها امرأة في أثواب دنسة، فقالت: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هي عناية أم جعفر البرمكيّ، فسلّمت عليها، وقلت لها: حدّثيني ببعض أمركم، فقالت: أذكر لك جملة فيها عبرة لمن اعتبر؛ لقد هجم عليّ مثل هذا اليوم وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وأنا أزعم أنّ ابني جعفر عاقٌّ لي، وقد أتيتكم اليوم أسألكم جلدي شاتين بشعار ودثار»[٢].

وهناك أمور أخرى قد تسبّب التّكبّر كالجمال، وكثرة الأتباع، والأنصار، والتّلاميذ، والغلمان، والعشيرة، والأقارب، والجنود ... أعاذنا الله من الغرور، والغفلة، ونسيان النعمة.

التّكبّر يسبّب الهلاك:

هذا المرض النّفسيّ هو السّبب في هلاك كثير من النّاس من ذوي العلم، والمال، والجاه، والسّلطان؛ والسِّرُّ في الهلاك بالكبر أنّ المتكبر لمّا كان يرى

(١) السّيّد عبد الحسين دستغيب، الذّنوب الكبيرة: ٢/١٤٠-١٤١ .

(٢) الشّيخ محمّد تقي التّستري، نهج الصّباغة: ١٧٣/١٤ .

نفسه أنَّه أعلى وأسمى درجة من الآخرين، فإنَّ ذلك سيؤدّي به إلى التّمرّد، والطّغيان، والتّجبّر عليهم، وحينئذٍ فإنَّ ذلك سيخلق له من النّاس قوّة مضادّة، ويكون بين نقمة الله على المتكبرين، وبغض الناس له حين أحسّوا منه الاستكبار عليهم، وأوّل من هلك بالتّكبّر، وأخرج من دار رحمة الله إلى دار الفناء والزوال هو إبليس إمام المتكبّرين، الّذي عصى وتمرّد على أمر الله تعالى حين أمره بالسّجود لآدم، فأخذته العصبيّة، والكبرياء؛ لشعوره بسموّ عنصره النّاريّ على عنصر آدم الطّينيّ؛ لأنَّ النّار عنده أفضل من الطّين، فأصابته لعنة الله في الدُّنيا والآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَاعْتَبروا بما كانَ مِنْ فِعْلِ الله بإبْليسَ، إذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّويلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلافِ سَنَةٍ، لا يُدْرَى أَمِنْ سِنيّ الدُّنْيا أَمْ مِنْ سِنيّ الآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.**

فَمَنْ بَعْدَ إبْليسَ يَسْلَمُ عَلَى الله بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ، كَلا، ما كانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً، إنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّماء وَأَهْلِ الأَرْضِ لَواحِدٌ، وَما بَيْنَ الله وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوادَةٌ فِي إبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى الْعالَمينَ»(١).

إذن فعصبيّة إبليس وتكبّره جرّته إلى معصية الله تعالى، والمعصية جرّته إلى الهلاك؛ فالسَّبب الأوّل للهلاك هو التّكبّر، وإبليس الملعون من قبل الله لم يتأدّب بالطَّرد، ولم يتراجع، بل بقي معانداً لله يصول بخيله، ورجله، وجنوده ممّن سيطر عليهم لإغواء أبناء آدم.. فالمستكبرون في حقيقتهم هم جنود إبليس ومطاياه يحرّكهم كيف يشاء، يقول الإمام علي عليه السلام: «**اتَّخَذَهُمْ إبْليسُ مَطايا**

(١) نهج البلاغة: ٣١٦، خطبة: ١٩٢.

ضَلال، وَجُنْداً بِهِمْ يَصولُ عَلَى النّاسِ، وَتَراجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِراقاً لِعُقولِكُمْ، وَدُخولاً فِي عُيونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْماعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ»(١).

وأوّل من استولى عليه إبليس وأوقعه في شباكه هو ابن آدم الّذي قتل أخاه حين نفخ الشَّيطان في أنفه حميّة الكبرياء، فحمَّله الله آثام القاتلين ظلماً إلى يوم القيامة، وما كان سبب قتله إلا الحسد والتّكبّر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«وَلا تَكونوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ ما فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فيه سِوى ما أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَداوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ في قَلْبِهِ مِنْ نارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطانُ في أَنْفِهِ مِنْ ريحِ الْكِبْرِ الَّذي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثامَ الْقاتِلينَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»**(٢).

وهكذا يؤدّي التّكبّر بالإنسان إلى العواقب السّيّئة في الدّنيا من: ظلم، وتطاول، وغصب لحقوق الآخرين، فلا يتورّع المتكبّر عن ارتكاب أيّ جريمة إذا تعارضت مع أهدافه في البروز والظّهور على أبناء جنسه، وهذا البغي والظّلم لا يمكن أن يستمرّ، فقد عرّفتنا الأحداث عبر التّأريخ أنّ حبل الظّلم قصير، وأنّ لذّة المستكبرين لا تدوم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

(١) نهج البلاغة: ٣١٩، خطبة ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٨، خطبة: ١٩٢.

اَللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اَللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[١].

روي عن عمر بن شيبة أنّه قال: «بينما كنت في مكّة المكرّمة بين الصّفا والمروة رأيت شخصاً قد ركب جملاً وغلمانه يبعدون النّاس من حوله، بعد مدّة دخلت بغداد، فرأيت شخصاً منكوباً حافياً أشعثاً طويل الشَّعر، فأطلت النّظر إليه، فقال لي: ما لك تنظر إليَّ؟ فقلت: إنّك تشبه رجلاً متكبراً رأيته بين الصّفا والمروة وكان كذا وكذا، فقال: أنا ذلك الرّجل، فقلت: وما الّذي جرى حتى صرتَ إلى ما أنت فيه؟ فقال: لقد تكبّرتُ حين كان يتواضع لي النّاس، فجعلني الله في موضع يتكبّر عليَّ النّاس»[٢].

وحدّثني أحد المبلّغين الإسلاميّين في البرازيل قائلاً: شاهدت رجلاً مسيحيّاً جاء إلى البرازيل، وهو فارغ اليد وعمل بالتّجارة والمراباة... ورويداً رويداً أصبح ذات ثروة كبيرة تعدّ بالملايين، فأصابه الكبر والإعجاب ممّا جرَّه أن يتطاول على الله، ويقول: هل يستطيع الله أن يفقرني بعد هذه الثَّروة الطّائلة؟ إنّه لن يستطيع رغماً عليه (والعياذ بالله)!!! وبعد مدّة وبينما هو يشمخ بأنفه أصابته حساسيّة في أنفه، وأنفق كلّ ثروته فلم تُجْدِ معه نفعاً، وهلك تعيساً.

هذا في الدُّنيا: الذّل، والخزي، والبوار، والصّيت السّيّئ، بين النّاس؛ وأمّا في الآخرة فالعذاب الأليم؛ فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**لن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ الكِبْرِ**»[٣]، قال الشّهيد الأوّل قُدِّسَ سِرُّه: «والحديث مؤوّلٌ بما

---

(١) فاطر: ٤٢-٤٣.

(٢) الذّنوب الكبيرة: ١٢٤/٢.

(٣) الشّهيد الأوّل، القواعد والفوائد: ١٥٢/٢.

يؤدّي إلى الكفر»[١].

ويؤيّد هذا التّفسير الحديث الوارد عن أحدهما عليهما السلام أنّه قال: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنَ الْكِبْرِ**»، قال محمد بن مسلم: «فاسترجعتُ، فقال عليه السلام: **ما لَكَ تَسْتَرْجِعُ؟** قلتُ: لِما سَمِعْتُ مِنْكَ، فَقالَ عليه السلام: **لَيسَ حَيْثُ تَذْهَبُ إِنَّما أَعْني الْجُحودَ، إِنَّما هُوَ الْجُحودُ**»[٢].

وقد صرَّحت الآيات الكريمة بسوء عاقبة المتكبرين في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ **فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[٣].

ويحشر المتكبرون ووجوهُهم مُسوَدَّةٌ لسوء نيّاتهم وأعمالهم وكذبهم على الله تعالى: ﴿ **بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[٤].

آثارُ التَّكَبُّرِ:

للتّكبّر آثارٌ خطيرةٌ، ومفاسد كبيرة ذات تأثير على الفرد نفسه وعلى المجتمع في الحياة الدّنيا، وما يتبعها من العذاب الأليم في الآخرة:

١- إنَّ المتكبّر غير قادر على فهم الحقائق الّتي تطرح عليه؛ لأنَّ الكبر يحجبه عن قبول الحقيقة مهما كانت واضحة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا**

---

(١) القواعد والفوائد: ٢/١٥٢-١٥٣ .

(٢) الكافي: ٣/٧٥٥ ، ح/٢٥٦٦ .

(٣) النّحل: ٢٩ .

(٤) الزّمر: ٥٩-٦٠ .

﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾(١).

كما ورد عن عيسى عليه السلام: «**إِنَّ الزَّرْعَ يَنْبُتُ في السَّهْلِ، وَلا يَنْبُتُ في الصَّفا، وَكَذلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمُرُ في قَلْبِ الْمُتَواضِعِ، وَلا تَعْمُرُ في قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبّارِ**»(٢).

٢- إنَّ المتكبّر دائماً ينظر إلى الأشياء من خلال المقياس الذّاتي لا المقياس الموضوعي، ولذلك لا يستطيع أن يضع الأشياء في مواضعها، فهو إنسان غير موضوعي لا يستطيع أن يخضع للحقيقة، ولا يقتنع بها حتى لو استيقنتها نفسه، فهو يستهين بالنّاس، ويطعن بهم، ويتجاهل حكم العقل، والشّرع، والقانون، وقد ورد عن عبد الأعلى عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلتُ له: ما الكبر؟ فقال: **أَعْظَمُ الْكِبْرِ أَنْ تَسْفَهَ الْحَقَّ، وَتَغْمِصَ النّاسَ**، قلتُ: وما سَفَهُ الحقّ؟ قال: **تَجْهَلُ الْحَقَّ، وَتَطْعَنُ عَلى أَهْلِهِ**»(٣).

٣- من الآثار الاجتماعيّة على المتكبّر ما يتعرّض له من عزلة عن النّاس؛ لأنَّ من ترفع عن النّاس، احتقروه، واعتزلوه؛ ولأنّ (الكِبْرَ من الصّفات الّتي تقطع حبائل الألفة والأنس بين الإنسان وأخيه الإنسان، بل يبدّلهما إلى العداء، ويفتح على صاحبه باباً من الانزجار العام)(٤).

٤- ومن الآثار الخطيرة للتّكبّر أنّه يوقف عجلة التّكامل الفكريّ

---

(١) الأعراف: ١٤٦.

(٢) ابن شعبة، تحف العقول: ٣٨١، وبحار الأنوار: ٣٠٧/١٤.

(٣) الكافي: ٧٥٨/٣، ح/٢٥٧١.

(٤) دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة: ١٠٦.

والأخلاقيّ والرّوحيّ في الإنسان؛ لأنَّ المتكبّر لا ينظر في نفسه إلا الجوانب الإيجابيّة الحسنة، ويغفل عن جميع نواقصه وعيوبه؛ ولهذا يقول الإمام الباقر عليه السلام: **«ما دَخَلَ قَلْبَ امْرِئٍ شَيْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إلا نَقُصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلُ ما دَخَلَهُ مِنْ ذلِكَ، قَلَّ ذلِكَ أَوْ كَثُرَ»**[١].

هذه بعض الآثار في الدُّنيا، وأما في الآخرة: فالذلّة أمام الخليقة أجمع، بل ورد في بعض الرّوايات: أنَّ المتكبرين يجعلهم الله كالذّر يدوسهم أهل المحشر[٢]، والقرآن صريح في خلود المتكبّرين في نار جهنم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣].

دَرَجاتُ التَّكَبُّر:

يقسّم علماء الأخلاق التّكبّر على درجات متسلسلة، أحدها أفحش من الأخرى، ومن أهمّها:

أوّلاً: التّكبّر على الله عزَّ وجلّ (والعياذ بالله):

---

(١) بحار الأنوار: ١٨٦/٧٨.

(٢) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ في خَلْقِ الذَّرِّ في صُوَرِ النّاسِ يوطَؤونَ حَتّى يَفْرَغَ اللهُ مِنْ حِسابِ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُ بِهِمْ إلى النّارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طينَةِ خَبالٍ مِنْ عُصارَةِ أَهْلِ النّـارِ»، وسائل الشّيعة للحرّ العاملي: ٣٠١/١١.

وعنه صلى الله عليه وآله: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ في صورَةِ الرِّجالِ، يَغْشاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكـانٍ»، مستدرك الوسائل للميرزا النّوري: ٣١/١٢، ح/١٣٤٢٩.

وعن جابر، عنه صلى الله عليه وآله: «يَبْعَثُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ناساً في صُوَرِ الذَّرِّ يَطَؤُهُمُ النّاسُ بِأَقْدامِهِمْ، فَيُقـالُ: مـا هـؤلاءِ فـي صُوَرِ الذَّرِّ؟ فَيُقالُ: هؤلاءِ الْمُتَكَبِّرونَ في الدُّنْيا»، مجمع الزّوائد للهيثمي: ٣٣٤/١٠.

(٣) غافر: ٦٠.

وهو أفحش درجات التّكبر، وسببه الجهل الخالص والطّغيان كما ظهر ذلك من سلوك نمرود وفرعون وأمثالهما من الطّغاة على طول خط التّأريخ، بل قد يجرّه التّكبّر إلى ادّعاء الرّبوبيّة فضلاً عن التّكبّر كما قال فرعون لأتباعه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١).

ومن التّكبّر على الله الاستكبار عن عبادته ودعائه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢).

وأدقُّ تعبير لهذا الاستكبار ما وصف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾(٣).

من التّكبّر على الله عزّ وجلّ الاستنكاف عن عبادته وطاعة أمره، يقول تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٤).

(والّذين يستنكفون من العبوديّة لله، يذلّون لعبوديّات في هذه الأرض لا تنتهي.. يذلّون لعبوديّة الهوى والشّهوة، أو عبوديّة الوهم و الخرافة، ويذلّون لعبوديّة البشر من أمثالهم، ويَحْنون لهم الجباه، ويُحَكّمونَ في حياتهم وأنظمتهم

(١) النّازعات: ٢٤.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) الفرقان: ٦٠.

(٤) النّساء: ١٧٢-١٧٣.

وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.. ولكنَّهم يتّخذونهم آلهة لهم من دون الله.. هذا في الدّنيا.. أما في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[(1)])[(2)].

ثانياً: التّكبّر على الرّسل والأنبياء عليهم السلام:

ما من نبيّ، أو وصيّ نبيّ، أو داعية إلى الله تعالى إلا وواجه من المستكبرين: عنتاً وعنفاً، واستكباراً.. فهم يستنكفون أن يمتثلوا إليهم، ويأنفون عن طاعتهم والانقياد لتعاليمهم والأحكام التي يبلغونها عن الله عزَّ وجلّ، وقد نقل القرآن الكريم تصورات وأقوال هؤلاء المستكبرين بقوله: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[(3)].

﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[(4)].

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[(5)].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[(6)].

---

(١) النّساء: ١٧٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/٦١٧.

(٣) المؤمنون: ٤٧.

(٤) إبراهيم: ١٠.

(٥) المؤمنون: ٣٤.

(٦) الفرقان: ٢١.

ويصوّر لنا الإمام عليّ عليه السلام هذا الاستكبار على رسل الله من خلال دعوة موسى لفرعون، يقول عليه السلام: «**وَلَقَدْ دَخَلَ موسى بْنُ عِمْرانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ** عليهما السلام **عَلى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِما مَدارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْديهِما الْعِصِيُّ، فَشَرَطا لَهُ - إنْ أَسْلَمَ - بَقاءَ مُلْكِهِ، وَدَوامَ عِزِّهِ، فَقالَ: أَلا تَعْجَبونَ مِنْ هـذَيْنِ يَشْـرِطانِ لِي دَوامَ الْعِزِّ، وَبَقاءَ الْمُلْكِ، وَهُما بِما تَرَوْنَ مِنْ حالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَساوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ! إِعْظاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ**»[١].

ثالثاً: التّكبّر على عباد الله:

وهذا النّوع من التّكبّر وإن كان دون الحالتين الأوّليّتين فهو قبيح من وجهين:

أ- إنّ العزّ والكبرياء والعظمة ليس لأحد إلا لله تعالى، وقد ورد في الحديث القدسيّ: «**الْكِبْرِياءُ رِدائي، وَالْعَظَمَةُ إِزاري، فَمَنْ نازَعَني في واحِدٍ مِنْهُما قَصَمْتُهُ**»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**الْعِزُّ رِداءُ الله، وَالْكِبْرُ إِزارُهُ، فَمَنْ تَناوَلَ شَيْئاً مِنْهُ، أَكَبَّهُ اللهُ في جَهَنَّمَ**»[٣].

ب- إنّ التّكبّر مخالف لأوامر الله تعالى إذ المتكبّر يستنكف أن يسمع كلمة الحقّ، ويخضع له، وهذا ما وقع به إبليس حين أبى أن يمتثل لأمر الله عندما

(١) نهج البلاغة: ٣٢٠، خطبة: ١٩٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٨٢، باب (كبر)، وبحار الأنوار: ١٩٢/٧٣.

(٣) الكافي: ٧٥٤/٣، ح/٢٥٦٢.

أمره بالسّجود لآدم مفتخراً بأصله النّاريّ، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(١).

جاء في الخبر أنّ ثابت بن قيس سأل النّبيّ صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله، إنّي امرؤ حُبِّبَ إليَّ من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو؟»، فقال صلى الله عليه وآله: «**لا، ولَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ، وَغَمَصَ النّاسَ**»، وفي حديث آخر: «**مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ**»(٢).

قال العلامة المجلسي: «وقوله: «**وَغَمَصَ النّاسَ**» أي ازدراهم، واستحقرهم، وهم عباد الله أمثاله، وخير منه، وهذه هي الآفة الأولى، وقوله: «**سَفِهَ الْحَقَّ**» هو ردّه به، وهذه الآفة الثّانية»(٣).

فكلّ من رأى أنّه خير من أخيه، احتقره، وازدراه، ونظر إليه بعين الاستضعاف والاستصغار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٤).

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٥).

كما ورد في الحديث الشّريف عن أحدهما عليهما السلام: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(٦).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ في جَهَنَّمَ لَوادِياً لِلْمُتَكَبِّرينَ يُقالُ لَهُ: سَقَرُ؛**

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) بحار الأنوار: ١٩٦/٧٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) النّساء: ١٧٣.

(٥) الزّمر: ٧٢.

(٦) الكافي: ٧٥٥/٣، ح/٢٥٦٥.

شَكا إلى الله - عزَّ وَجَلَّ - شِدَّةَ حَرِّهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ، فَتَنَفَّسَ، فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ»(١).

عِلاجُ التَّكَبُّرِ:

لما كان التّكبّر من الأمراض النّفسيّة الخطيرة والفتّاكة في الفرد والمجتمع فإنَّ الإسلام لم يكتفِ بتقبيح صفة التّكبّر، بل جعل له علاجات مشفية منها ضمن عباداته المفروضة؛ فالسجود لله تعالى، ووضع الجبين على الأرض، يشعر بالتّذلّل والخضوع، وهي عملية تَحِدُّ من كبرياء الإنسان وغطرسته، والصّيام كذلك يضعف هذه الحالة، ويشعر الإنسان بضعفه أمام حالات انقطاع الأكل والشّرب، وفي الحج صور رائعة من المساواة سواء كان في الإحرام، أو الطّواف والسّعي والرّجم، وكذلك إخراج فريضة الزكاة قمعاً لكبرياء ذوي الثّروات الواسعة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَالله الله فِي عاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخامَةِ الظُّلْمِ، وَسوءِ عاقِبَةِ الْكِبْرِ؛ فَإِنَّها مَصْيَدَةُ إِبْليسَ الْعُظْمَى، وَمَكيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتي تُساوِرُ قُلُوبَ الرِّجالِ مُساوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَما تُكْدِي أَبَداً، وَلا تُشْوِي أَحَداً، لا عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلا مُقِلاً فِي طِمْرِهِ.**

وَعَنْ ذلِكَ ما حَرَسَ اللهُ عِبادَهُ الْمُؤْمِنينَ بِالصَّلَواتِ وَالزَّكَواتِ، وَمُجاهَدَةِ الصِّيامِ فِي الأَيّامِ الْمَفْروضاتِ، تَسْكِيناً لأَطْرافِهِمْ، وَتَخْشيعاً لأَبْصارِهِمْ، وَتَذْليلاً لِنُفوسِهِمْ، وَتَخْفيضاً لِقُلوبِهِمْ، وَإِذْهاباً لِلْخُيَلاءِ عَنْهُمْ،

---

(١) الكافي: ٣/٧٥٧، ح/٢٥٦٩.

لِما فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفيرِ عَتائقِ الْوُجوهِ بِالتُّرابِ تَواضُعاً، وَالْتِصاقِ كَرائِمِ الْجَوارِحِ بِالأَرْضِ تَصاغُراً، وَلُحوقِ الْبُطونِ بِالْمُتونِ مِنَ الصِّيامِ تَذَلُّلاً، مَعَ ما فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَراتِ الأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ»[1].

وقالت الزّهراء عليها السلام: «**فَفَرَضَ الإيمانَ تَطْهيراً لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزيهاً عَنِ الْكِبْرِ**»[2].

إذن فالصَّلاة والصّيام والزّكاة وغيرها من الفرائض والمستحبّات علاج شافٍ لأمراض النّفوس.

هذا وقد ذكر علماء الأخلاق علاجات علميّة وعمليّة لمرض التّكبّر نذكر بعضها على وجه الإجمال:

١- أن يفكّر جيّداً بواقعه التّكويني، ويفكّر في خلقه؛ فقد خُلِقَ من نطفة مذرة، وأن يعرف حالته، وما يتّسم به من ضعف، وأنَّ أبسط الأشياء تقهره وتذلّه، فالبقّة تؤلمه، والعرقة تُنْتِنُهُ، والشَّرقة تقتله[3]، وأنَّه مهما تطاول، وتَجَبَّرَ فلن يبلغ الجبال طولاً، وأنَّه مهما قوي فمآله إلى ضعف، وهزال، ثمّ موت، وزوال، ومهما استغنى فمصيره إلى الموت، لا تغني عنه ثروات الأرض جميعاً، ويتحوّل إلى جثّة هامدة نتنة...

---

(١) نهج البلاغة: ٣٢٣، خطبة: ١٩٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٣٣٠/١.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مِسْكينٌ ابْنُ آدَمَ: مَكْتومُ الأَجَلِ، مَكنونُ الْعِلَلِ، مَحْفوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» نهج البلاغة: ٥٥٥، قصار الحكم: ٤٠٧.

وهذه التّصوّرات ينبغي أن لا يعيشها نظريّاً في حدود اللّسان بل يجب أن يعيها بعمق ودقّة، ولا مفرّ له منها؛ فإذا وعاها الإنسان، وهضمها فكراً، ومَثَّلَها سلوكاً، فسيرزقه الله التّواضع والخشوع، وإلا فلا ينتفع بها.

٢- أن يتعرّف على مآثر التّواضع ومحاسنه، ويعي أنَّ التّواضع هو الّذي يرفعه بين النّاس، ويقرّبهم إليه، فما رأينا الماء وقف على صخرة شامخة، بل دائماً ينحدر إلى الهضبة المنخفضة؛ ولتحصيل ملكة التّواضع لا بدّ من ترويض النّفس عليه؛ لتذلّ وتهون، وهكذا كان شأن العقلاء؛ فعن مَسْعَدَةَ بن صَدَقَةَ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**أَرْسَلَ النَّجاشِيُّ إلى جَعْفَرِ بْنِ أبي طالِبٍ وأَصْحابِهِ، فَدَخَلوا عَلَيْهِ، وَهُوَ في بَيْتٍ لَهُ، جالِسٌ عَلى التُّراب، وَعَلَيْهِ خُلْقانُ الثّياب**»، قال: «**فقالَ جَعْفَرٌ: فَأَشْفَقْنا مِنْهُ حينَ رَأَيْناهُ عَلى تِلْكَ الْحالِ... فَقالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّها الْمَلِكُ، فَما لي أَراكَ جالِساً عَلى التُّراب، وَعَلَيْكَ هذِهِ الْخُلْقانُ؟ فَقالَ لَهُ: يا جَعْفَرُ، إنّا نَجِدُ فيما أَنْزَلَ اللهُ عَلى عيسى عليه السلام أَنَّ مِنْ حَقِّ اللهِ عَلى عِبادِهِ أَنْ يُحْدِثوا لَهُ تَواضُعاً عِنْدَما يُحْدِثُ لَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ، فَلَمّا أَحْدَثَ اللهُ - عَزَّ وَجلَّ - لي نِعْمَةً بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، أَحْدَثْتُ للهِ هذا التَّواضُعَ. فَلَمّا بَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قالَ لِأَصْحابِهِ:... إنَّ التَّواضُعَ يَزيدُ صاحِبَهُ رِفْعَةً، فَتَواضَعوا؛ يَرْفَعْكُمُ اللهُ**»[1].

٣- أن يفرض على نفسه الإذعان للحقّ عند البحث والمناقشة مع من كان، وفي أيّ وقت كان، وأن يكون الحقُّ رائدَه، ويأخذ كلمة الحقّ ممّن هو دونه

---

(١) الكافي: ٣/٣١٣-٣١٤، ح/١٨٦٣.

علماً ومنزلـةً؛ فقـد رُوِيَ عـن الشَّـيخ الأعظـم الأنصـاري قُدِّسَ سِرُّه صـاحب الرّسـائل والمكاسب أنّه كان يجلس عند أحد تلاميذه في الفقه والأصول، يتعلّم منه الأخلاق الحسنة؛ فعلى العاقل أن يبذل جهده في ترك المراء، وعدم الإصرار على رأيه إن كان هناك رأيٌ أرجح منه.

٤- أن يقدّم الأقران والأمثال على نفسه، بل حتّى من يكون أدنى منه منزلةً أو علماً، وأن يجلس حيثما ينتهي به المجلس؛ فقد رُوِيَ أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان «**إذا انْتَهى إلى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهي بِهِ المَجْلِسُ، وَيَـأْمُرُ بِـذلِكَ**»[1]، بل كان صلّى الله عليه وآله يجلس **جِلْسَةَ الْعَبْدِ**[2].

٥- أن يلبس الملابس المتواضعة الّتي لا تعرب عن كبرياء، ولا تحطّ من قدره.

٦- أن يؤاكل الفقراء والمساكين حتّى لو كانوا غلمانه وعبيده؛ قال رجلٌ من بلخ: «كنتُ مع الرّضا عليه السلام في سفرِهِ إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة له، فجمع عليها مواليَهُ من السّودان وغيرهم، فقلت: جُعِلْتُ فداك، لو عزلتَ لهؤلاء مائدةً؟ فقال: **مَهْ؛ إنَّ الرَّبَّ - تَبارَكَ وَتَعالى - واحِدٌ، وَالأُمَّ واحِـدَةٌ، وَالأَبَ واحِدٌ، وَالْجَزاءَ بِالأَعْمال**»[3].

وروي عن رسول صلّى الله عليه وآله أنه كان «يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألّف أهل الشّرف بالبرّ لهم، يصل ذوي

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٨٢، وسنن النّبيّ صلّى الله عليه وآله للعلامة الطّباطبائي: ١٠٤.

(٢) ينظر: نهج البلاغة: ٢٥٨، خطبة: ١٦٠، وسنن النّبيّ صلّى الله عليه وآله: ١١١.

(٣) الكافي: ٥٢٥/١٥، ح/١٥١١٢.

رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه... وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس... لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مستوياً»[1].

وروي أنَّ الحسن بن علي عليه السلام مرَّ «على فقراء قد وضعوا كُسَيرات على الأرض، وهم قعودٌ يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا له: هَلُمَّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء، قال: فنزل، وقال: **إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**، وجعل يأكل معهم حتّى اكتفوا، والزّاد على حاله ببركته، ثمّ دعاهم إلى ضيافته، وأطعمهم، وكساهم»[2].

اللَّهم اجعلنا مِمّن يقتدي بهم عليهم السلام، ويسير على نهجهم.

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدّين: ٣٦٣/٢-٣٦٤، وسنن النّبيّ صلى الله عليه وآله: ١١٣-١١٤.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢٧/٤.

(الْبَحْثُ الْخامِسُ)

الْعُجْبُ[1]

(١) هذا البحث من دروس التَّفسير لأستاذنا سماحة آية الله الشّيخ محمّد مهدي الآصفي قُدِّسَ سِرُّهُ
الّتي ألقاها علينا في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، وقد دوّنتها،
ونسّقتها، وأضفت إليها، وأرجعت النّصوص المقتبسة إلى مصادرها.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[1].

من دقائق وروائع الفكر الإسلاميّ علاقة الإنسان بنفسه، هذه العلاقة لم تُطْرَحْ في مدرسة فكريّة غير المدرسة الإسلاميّة، فكيف يتعامل الإنسان مع نفسه؟

١- قد تكون العلاقةُ بين الإنسان ونفسه علاقةً سليمةً قائمةً على أساس السّلام، كما قال العبد الصّالح روح الله عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[2].

ونحن تبعاً لذلك العبد الصّالح نقول في تسليم الصّلاة: «السَّلام علينا وعلى عباد الصّالحين».

٢- وفي مقابل علاقة السّلام مع النّفس علاقةُ الحرب معها، يقول تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3].

---

(١) الكهف: ١٠٣-١٠٥.

(٢) مريم: ٣٣.

(٣) آل عمران: ١١٧.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[(١)].

﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[(٢)].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[(٣)].

فهؤلاء اعتدوا على أنفسهم بالتّعامل بالظّلم لها والعدوان عليها بعصيان أوامر الله تعالى.

٣- وهناك نوع ثالث: قد يغفل الإنسان عن نفسه، ويهملها، يقول تعالى عن هؤلاء: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[(٤)].

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[(٥)].

٤- ونوع رابع يفكّرون في أنفسهم: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[(٦)]؛ ليعرفوا ما فيها من أسرار، وقوى، وطاقات، وما تسلك من طرق لإشباع نزواتها؛ ليهتدوا إلى توجيه تلك الطّاقات توجيهاً سليماً، فيراقبون حركات أنفسهم مراقبةً دقيقةً، ويخضعوها لمحاسبة شديدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[(٧)]، وهكذا تكون النّفس تحت رقابة العقل وحكمه.

٥- نوع آخر من النّاس قد ينشطر شطرين، ويكون صاحب موقفين،

---

(١) الأعراف: ١٦٠.

(٢) التّوبة: ٧٠.

(٣) يونس: ٤٤.

(٤) الحشر: ١٩.

(٥) البقرة: ٤٤.

(٦) الأعراف: ١٨٤.

(٧) المائدة: ١٠٥.

وحكمين، واتّجاهين، ورأيين، عند ذلك ينشأ صراع داخليّ بين الإنسان ونفسه، ويحتدم الصّراع عندما تسيطر النّفس الأمارة بالسّوء على العقل، ويحاول العقل أن يرجعها إلى جادّة الصّواب.

٦- وطائفة من النّاس منسجمون مع أنفسهم، لا يعانون من صراع وعذاب داخليّ، فلا قلق ولا أزمات، فهم في هدوء واطمئنان تامّ في كلّ أحوالهم في السّرّاء والضّرّاء، وفي الشّدّة والرّخاء؛ فقد «**نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاءِ كَالَّتي نَزَلَتْ في الرَّخاءِ**»[١]؛ أولئك هم المطمئنّون الرّاضون، الّذين رضوا بما قضى الله، وبما قدّر، فأسلموا لله أنفسهم، حتى اطمأنّت إليه ربّاً، خالقاً، ومدبّراً، محيياً، ومميتاً، يقول تعالى: ﴿**يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ**﴾[٢].

والمقصود من هذا الحديث أنّ الإسلام يفتح أمام الإنسان آفاقاً جديدةً من التّفكير، وهو علاقته مع نفسه، وكثير من سعادة الإنسان وشقائه يتوقّف على هذه العلاقة، فإذا كانت علاقةُ الإنسان مع نفسه قائمةً على أسس صحيحة وسليمة فهو سعيد، وإلا فهو شقيٌّ، جاء في الدّعاء: «**وَتَجْعَلَني بِقَسْمِكَ راضِياً قانِعاً**»[٣]، وهذا أفقٌ جديدٌ من الفكر فتحه الإسلامُ للإنسان، لا يوجد له نظيرٌ في المدارس الفكريّة الأخرى.

وموضوع العجب الذي نريد التّحدّث عنه هو مفردة من هذه المفردات، وهو يتعلّق بطريقة رؤية الإنسان لنفسه. كيف يرى نفسه؟

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) الفجر: ٢٧-٢٨.

(٣) الشّيخ الطّوسي، مصباح المتهجّد: ٨٤٥.

قد ينظر إلى نفسه من منظار الـ(أنا) فيصيبه العجب والانتفاخ والزَّهو، وقد يرى نفسه بطريقة أخرى، فيرزقه الله التّواضع لله وللمؤمنين، وهنا علاقة الإنسان بنفسه لا تنفصل عن علاقته بالله تعالى، بل إنّ علاقته بالله هي الّتي ترسم علاقته بنفسه، وتضعه على مدرجة التّكامل، فتكون هنا ثلاثة أنواع من التّفكير:

النّوع الأوّل: انبهار الإنسان بنفسه من خلال رؤيته لذاته مستقلاً عن الله، وهذه الرّؤية هي الّتي تبعثه على الإعجاب بها، فالّذي يستغرق بالإعجاب في نفسه لا يعد يرى غيرها، مثلاً عندما يرى الإنسانُ الشّمسَ لم يعد يرى الكواكب الأخرى، هذه القاعدة تجري في رؤية الإنسان للأشياء والأشخاص والأحداث، فحين ينبهر بشيء فلا يعود يرى الأشياء الأخرى، فإذا انبهر بنفسه فتلك الطّامة العظمى حيث ينصرف إلى تعظيم ذاته، فينظر إليها بإكبار.. وهذا على نوعين: قد ينبهر بنفسه، وقد ينبهر بكفاءته؛ هذا الانبهار هو العجب في مقابل التّواضع، وعندما تزداد حالة الانبهار بالنّفس تقلّ الرّؤية إلى الله تعالى؛ وفي مقابل ذلك التّواضع لله، والخوف منه، والرّجاء إليه؛ لأنّه يرى نفسه مرآة لله فيشعر أنّ كلّ ما عنده من الله تعالى، فالّذي ينظر إلى نفسه بمنظار الضّعف والفقر والحاجة لله تتغيّر رؤيته من العجب إلى التّواضع.

النّوع الثاني: هو اغتراره بنفسه فيعتمد على نفسه، وعقله، وقوّته، وعلى كفاءاته الذّاتيّة، منفصلاً عن الله.. وليس في الإسلام أسلوب تنمية الاعتداد بالذّات، والاعتماد عليها، وإنّما الاعتماد والتّوكّل على الله فقط، وقد حاولت المدارس النّفسيّة الماديّة تنمية ذلك، وهذا مخالف للتربية الإسلامية كما أشار السّيّد الطّباطبائي رحمه الله.

النّوع الثّالث: حالة الأنانيّة والاستئثار بكلّ شيء لنفسه، وهناك نظريّة في علم النّفس -وهو ما يعبّر عنها بالـ(أنا العليا) - خلاصتها أنَّ الأنا ينبغي أن تكون محوراً لكلّ التّصرّفات، وبذلك ينتقل من ذاته إلى ذاته، ويحاول أن يصهر العالم كلّه في بودقتها؛ لأنَّه لا يرى غيرها، فهو عبد لأهوائها وميولها، فهي إلهه المعبود فلا شيء سواها، وهذا ما يرفضه الإسلام شكلاً ومضموناً؛ لأنَّ الإسلام يريد للإنسان أن ينتقل من ذاته إلى الله، وهذا هو مفهوم الفرار إلى الله، والهجرة إليه.

فرؤيةُ الإنسان لنفسه بإكبار وتعظيم هو العجبُ، وعكسُه التّواضعُ؛ وثقتُهُ بنفسه والاعتمادُ عليها منفصلاً عن الله اعتدادٌ بها، ويقابله التّوكّل على الله؛ وجَعْلُ نفسِهِ محوراً في كلّ شيء هو الأنانيّةُ، ويقابله الإيثارُ.

أَسْبابُ الْعُجْبِ:

١- الانبهار بالنّفس أو بالعمل: من غرائب الأشياء أنَّ الإنسان قد ينبهر بطاعته وعبادته ودعائه، فتتحوّل طاعته وعبادته من جسر يوصله إلى الله تعالى إلى حجاب يحجبه عنه تعالى، فينقلب مفعول الفعل إلى عكسه، ولذا نجد الآية تقول: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾(١).

فالإنسان حين ينبهر بنفسه وبفعله، فهذا الانبهار يغطّي جمال الله وجلاله في نفسه، ويحجبه عن الله تعالى؛ لذلك العجب يؤدّي إلى الكفر، والكفر هو التّغطية.

ودرجات العجب العليا تؤدّي إلى خلق حجاب كثيف بين الإنسان وبين

---

(١) الكهف: ١٠٣.

الله؛ وخير مثال لذلك هو إبليس، فمصدر كفره هو إعجابه بنفسه، وكذلك فرعون وغيره من طواغيت الأرض؛ فالإعجاب بالنفس هو الحجاب الأكبر بين الإنسان وبين الله تعالى.

إنَّ الرّؤية الصّحيحة للنّفس هي ما طرحه الإسلام، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(١)].

فالنّظر إلى النّفس من منظور الفقر، والحاجة إلى الله عزّ وجلّ، يجعلنا ننظر إلى أعمالنا من منظور التّقصير، ونتّهم أنفسنا بالقصور، ولا شكَّ أنَّ الإنسان حين ينظر إلى رحمة الله الواسعة الّتي وسعت كلّ شيء يحتقر طاعته وعبادته، هذه الرّؤية هي الرّؤية السّليمة للنّفس وللعمل، وكثير من الناس ضلّوا؛ لأنَّهم لم يحسنوا النّظر إلى أنفسهم، وإلى إمكاناتهم، فانبهروا بأعمالهم فحجبوا أنفسهم عن الله عزَّ وجل؛ ولذلك استكبروا على الله وعلى عباده، فلا توجد صفة تهلك الإنسان، وتسقطه، وتفسد عقيدته وفطرته كالاستكبار؛ ولا يوجد إجرام، وكفر، ولا عناد، ولا لجاج، إلا وأساسه الاستكبار، ومنشأ ذلك كلّه هو العجب؛ ولهذا صار العجب رأس الجهل، وأردى مهالك الإنسان؛ لأنَّ الإعجاب بالنَّفس برهان على نقص الإنسان، ودليل على ضعف عقله، كما دلّت على ذلك أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام[(٢)].

٢- الغفلة عن ذكر الله تعالى: والأمر الأساسيّ في حالة العجب أنَّ «جذور حالة العجب تكمن في الغفلة عن ذكر الله تعالى، فإنَّ الإنسان إذا كان ذاكراً لله

(١) فاطر: ١٥.

(٢) ينظر: ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣/٧٦١-٧٦٦، والمحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧١/٢٢٨-٢٣٥.

تعالى، مستحضراً لعظمته وجلاله، ورحمته ونعمائه، لا يمكن أن يكبر عنده الأنـا، ولا يمكن أن يستأثر الأنا باهتمامه وإعجابه وذكره، وإنّما يبرز الأنا في حياة الإنسان بقدر ما يغيب ذكر الله عن قلب الإنسان»[١].

أَقْسامُ الْعُجْبِ:

العجب تارة يصيب الإنسان في عقيدته، وتارة في نفسه، وثالثة في عمله، أمّا في نفسه فقد يتصوّر أنَّ مواهبه مخصوصة به، وأنّه اكتسبها بقوّته مستقلاً عن الله، وأنَّ عمله وطاعته وعبادته فضل منه، فيصاب بالمَنّ على الله، والعياذ بالله، ويتراءى له أنَّه على حقّ في عقيدته وعمله ونفسه، ويظنّ بأنّه قد أجاد في عمله، وأحسن صنعاً، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢]؛ ففي الوقت الّذي يكون عمله هدماً يتصوَّر أنّه بناء فهؤلاء هم الّذين ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾[٣] حتّى تراءى لهم القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، وبذلك تنقلب المقاييس، وتختلّ الموازين، وهذه المرحلة من أخطر المراحل؛ فإنّه قد يرى الشّرك توحيداً، والكفر إيماناً.. فيكون عمله القبيح في عينه جميلاً، وهذه الحالة هي حالة فقدان التّشخيص والتّمييز بين الصّحيح والسّقيم، فالذي يُزَيّن له سوء عمله يفقد البصيرة المميّزة، وهذه المرحلة هي مرحلة يحلّ فيها غضب الله على هذا المريض؛ لأنَّ الإنسان عندما يرتكس في الغيّ يُفِقَدهُ الله حالة التّمييز والتّشخيص، فينسى نفسه

(١) الشّيخ محمّد مهدي الآصفي، في رحاب القرآن: ١١٨/٣.
(٢) الكهف: ١٠٤.
(٣) التّوبة: ٣٧.

﴿نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[(١)]، وهؤلاء سقطوا في حالة جهل مركّب أنتج انحرافاً مركّباً، فالخطورة كلّ الخطورة عندما يجهل الإنسان بأنَّه منحرفٌ، ولا يدري بأنّه مخطئ، وسرّ الخطورة أنّه لا يوجد شيء يردعه إذا فقد التّمييز.

مَراتِبُ الْعُجْبِ:

يقع العجب في خمس مراتب، بعضها أخطر من بعض، وهي:

١- أن ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى عمله، فيرى نفسه في مرتبة تميّزه عن الآخرين سواء في مواهبه، أو في كفاءاته، أو في عمله، وعبادته.

٢- لا يرى نفسه متميّزاً وحسب، بل يرى لنفسه موضعاً عند الله لا يشاركه الآخرون فيه، ويعتقد بأنَّه قريب من الله، وأنَّ الله راضٍ عنه، ومحبوب عنده، وهذه المرتبة أخطر من الأولى.

٣- يتصوّر أنَّ له حَقّاً على الله بناءً على كثرة خدماته لدينه وطاعته؛ لذلك يكون دعاؤه ليس بحالة رجاء وطلب، وإنّما بحالة مطالبة بالوفاء، وهذه أخطر من الثّانية.

٤- أن يعترض على الله عندما لا يلبّي الله له طلباً، فهو لا يتوقّع أن يصيبه الله بابتلاء، ولا يتوقّع أن يعذّبه الله لحالة سيّئة، فيحدث عنده حالة اعتراض خفيّ أو جليّ، وهذه الحالة أخطر من الثّالثة.

٥- حالة المَنِّ على الله: وهي حالة كفر، فهو يتصوّر أنَّ أعماله الصّغيرة المغشوشة، الضعيفة، النّاقصة تفضل على الله، ولا يتصوّر أنَّ كلّ ما عنده هو

---

(١) الحشر: ١٩.

بفضل من الله، بل كلّ ما عند جميع البشريّة من الخير فهو من الله تعالى، فلا منّة ولا فضل لأحد على الله، ولا على رسوله؛ فحالة المنّ هي حالة طغيان العجب عند الإنسان بحيث يصل إلى حدّ يمنّ على الله.

وقد جمع هذه الدرجات حديث عليّ بن سُوَيْد عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «سألتُهُ عن العجب الذي يفسد العمل؟ فقال عليه السلام: **الْعُجْبُ دَرَجاتٌ: مِنْها أَنْ يُزَيَّنَ لِلْعَبْدِ سوءُ عَمَلِهِ، فَيَراهُ حَسَناً، فَيُعْجِبَهُ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعاً، وَمِنْها أَنْ يُؤْمِنَ الْعَبْدُ بِرَبِّهِ، فَيَمُنَّ عَلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَللهِ عَلَيْهِ فيهِ الْمَنُّ**»(١).

عِلاجُ الْعُجْبِ:

لعلاج العجب طرق كثيرة مختلفة؛ أهمّها: أن نبدأ بإعادة النّظر إلى أنفسنا، وهذه مسألة أساسيّة لعلاج العجب، فحالة العجب تحصل عند الإنسان عندما ينظر إلى نفسه منفصلاً عن مصدر النّعمة الإلهية، فيصيبه الانتفاخ، وعلى حدّ تعبير بعض المحقّقين أنّ العجب: هو النظر إلى النعمة والركون إليها منقطعاً عن مصدرها(٢)؛ ففي الحياة، وفي الإنسان ذاته كنوز من النّعمة وهبها الله إلى خلقه، وحين ينظر إليها الإنسان يعجب بها، ولكن حين يربط نفسه بمصدر النّعمة ومبدأها يشعر بالفقر والتّواضع، ويدرك أنّه لو انقطعت عنه طرفة عين هلك، «**وَلا تَكِلْني إِلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً**»(٣)، فيكافح بهذا الوعي حالة العجب فلا تتغلّب عليه، إذن لا بدّ أن ننظر إلى أنفسنا نظرة الفقر والحاجة والضعة أمام

---

(١) الكافي: ٧٦٢/٣، ح/٢٥٨٠.

(٢) قال الغزاليّ: «العجب هو استعظام النّعمة، والرّكون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم»، إحياء علوم الدّين: ٣٧١/٣.

(٣) مصباح المتهجّد: ٢١٠.

المنعم جلّت قدرته، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١].

والطّريقة الثّانية لعلاج العُجب أن يحتقر الإنسان عمله، ويستقلّه، ويستعظم ذنبه، ويستكبره، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**وَاسْتَقْلِلْ مِنْ نَفْسِكَ كَثيرَ الطّاعَةِ للهِ؛ إِزْراءً عَلى النَّفْسِ**»[٢].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «**ثَلاثٌ قاصِماتُ الظَّهْرِ: رَجَلٌ اسْتَكْثَرَ عَمَلَهُ، وَنَسِيَ ذَنْبَهُ، وَأُعْجِبَ بِرَأْيِهِ**»[٣].

آيـتـانِ في الْعُجْبِ:

في سورة الكهف آيتان تعرّضت للعجب: الأولى تقدَّمت وهي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا...﴾[٤].

والثّانية قصّة صاحب الجنّتين، وهي من الصّور الرّائعة في بيان علاج العجب:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا
(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ
هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ

(١) فاطر: ١٥.

(٢) ابن شعبة، تحف العقول: ٢٠٧.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١١٢/١.

(٤) الكهف: ١٠٣.

لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾(١).

ونحن إذا تأمّلنا في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ نجد نعم الله موصولة بمنعمها، فإن قطعناها عن مصدرها فسيحدث الغرور والإعجاب.

ولننظر كيف تعامل هذا الشّخص المغرور مع النّعمة، وكيف ردَّ عليه صاحبه؟

قال المغرور المعجب: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فهنا أخذه العجب، فقلب النّعمة الّتي ينبغي للمنعَم عليه أن يشكر المنعِم عليها إلى تفاخر، وتكاثر وبطر، واستعلاء...

وهنا يبرز أخطر ما في الإنسان، ويخرج شيطان الأنا منه ليتفاخر على صاحبه، ويقول: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، والأنا أخطر الأمراض النّفسيّة الّتي توقع الإنسان في مستنقع العجب، يقول جابر: «اسْتَأْذَنْتُ على النّبيّ ﷺ، فقال: **مَنْ هذا؟** قلت: أنا، فَقال: **أَنا أَنا**»(٢)، فكأنّه كره هذه اللّفظة، واستنكرها، ويريد أن ينبّه جابراً على خطرها؛ لأنَّ الأنا إذا طغت على الإنسان يغيب عنه

---

(١) الكهف: ٣٢-٤٤.

(٢) سنن ابن ماجة: ١٢٢٢/٢، ح/٣٧٠٩، وشرح صحيح مسلم للنّووي: ١٣٥/١٤.

جمال الله وجلاله وحبّه من القلب: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾[1]، فإذا خلا القلب من (الأنا) حلَّ فيه جلال الله، وجماله؛ أمّا إذا استغرق فيها فلا يمكن أن يبصر من جمال الله وجلاله شيئاً، بل ينسى نعمه وأفضاله؛ ولذا قال المغرور المعجب بنفسه وبماله: ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ... ﴾.

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ من عدّة جهات:

١- فهو ظالمٌ لنفسه؛ لأنّه قطعها عن بارئها ومصوّرها، فلم يقل: أعزني الله بهذا، وما عندي من الله، بل قال: ﴿ أَنَا۠... ﴾.

٢- طول الأمل؛ فقد توهّم أنَّ هاتين الجنّتين خالدةٌ له لا تبيد، بل هي باقية إلى الأبد.. ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴾ هذا هو منطق المستغرق في الأمل الّذي أنساه الموتَ، والفناءَ، والحسابَ، والجزاء ... وجعله يتطاول على صاحبه بهذا المنطق الاستعلائي.

٣- انقطع عن الله في معاده، كما انقطع عن مبدأه؛ فهذا المغرور مقطوع عن المبدأ والمنتهى تصوّراً وعقيدةً؛ ولذلك انتفخت ذاته، وهذه هي نتيجة من لا يربط نفسه بالله تعالى في مبدأه ومنتهاه، لا بدَّ وأن يأخذه الغرور والعجب، ويدفعه إلى القول: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴾.

ثمّ يتصوّر بعد ذلك أنّه حتّى على فرض رجوعه إلى الله؛ فإنّه سيكون له فضل عند الله تعالى، وسيعطيه خيراً منها؛ ولهذا يقول: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾، وهذه أقصى درجات الوقاحة، حيث إنّه يتصوّر أنّه يستحقّ

(١) الأحزاب: ٤.

على الله الخير الكثير في الآخرة بما مَنّ الله عليه من خيرات الدُّنيا.

هذا هو منطق المغرور المعجب بنفسه، وبما في يده من ملكيّة حيث سيطرت عليه (مشاعر الامتياز ومحاولات التّمديد للملكيّة الخاصّة إلى غير مجالها الأصيل تنبع في النّهاية من الخطأ في مفهوم الملكيّة، واعتبارها حقّاً ذاتيّاً، لا خلافة لها مسؤوليّاتها ومنافعها)[١].

أمّا منطق الموحّد الّذي ربط جميع النّعم بمصدرها، فقد أرجع النّعم كلّها إلى واهبها سبحانه وتعالى، ونحن من خلال الجواب ندرك البون الشّاسع بين التّفكيرين، حيث يقول الأوّل: «أنا»! أمّا الثّاني فيقول: «الله ربي وهو المنعم عليّ».

فالأوّل المعجب المغرور لم ينكر الله، وإنّما أنكر المعاد: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

قال صاحب مجمع البيان: «معناه: ولئن كانت القيامة والبعث حقّاً كما يقوله الموحّدون لأجدنّ خيراً من هذه الجنة. قال الزّجّاج: وهذا يدلّ على أنّ صاحبه المؤمن قد أعلمه أنّ السّاعة تقوم، وأنّه يُبْعَث، فأجابه بأن قال له: ولئن رُدِدْتُ إلى ربّي أي كما أعطاني هذه في الدّنيا سيعطيني في الآخرة أفضل منها لكرامتي عليه، ظنّ الجاهل أنّه أُوتي ما أُوتي لكرامته على الله تعالى»[٢]؛ فكفرُهُ جاء من الأنا الّتي جعلته يظنّ أنّ له فضلاً عند الله.

والثّاني المؤمن الموحّد، قال: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾، فأثبت له التّوحيد أولاً، ونفى الشّرك ثانياً، وكشف له التّوهم الّذي وقع فيه، وهو

(١) السّيّد محمّد باقر الصّدر، اقتصادنا: ٦٣٢.

(٢) الطّبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٢٣/٦.

التّحدث بمنطق الأنا منفصلاً عن الله، ثم يلومه على شركه، فيقول: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، أي لماذا تتعامل مع نعمتك وجنّتك بمنطق الأنا.

أخوان؛ أحدهما فقيرٌ والآخر غنيٌّ؛ الأول غنيّ بالله، والثّاني غنيّ بماله.

وتأتي المفاجأة الكبرى الّتي تبطل آمال المغرور، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أسفاً وحسرة على ما أنفق فيها من أموال، ولم يحصل منها إلا على النّدم والحسرات والأسف، ويا ليته ندم على كفره، وأنّى له ذلك؟ وقد انغمس في مستنقع الأنا والإنيّة والأنانيّة المقيتة.

إنَّ إحساس الإنسان بالفقر لله تعالى، والحاجة إليه في كلّ شيء يقتلع جذور العجب من النّفس، يقول تعالى عن لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[1]، وكلمة ﴿إِنِّي﴾ في الآية الكريمة محاصرة بكلمة ﴿فَقِيرٌ ﴾، وكلمة ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ ﴾؛ فهو فقير إلى ما ينزله الله إليه؛ وهذه الرّؤية إذا تكوّنت عند الإنسان أحسَّ بحقارته إزاء جلال الله تعالى وجماله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِذا زاد عُجْبُكَ بما أَنْتَ فيهِ مِنْ سُلْطانك، فَحَدَثَتْ لَكَ أُبَّهَةٌ، أَوْ مَخيلَةٌ، فَانْظُرْ إِلى عِظَمِ مُلْكِ الله، وَقُدْرَتِهِ مِمّا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُلَيِّنُ مِنْ جِماحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْ غَرْبِكَ، وَيَفي إِلَيْكَ بِما عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ»[2].

---

(١) القصص: ٢٤.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٨، ح/٧٠٨٠.

ويقـول عليه السلام: «ما لابْنِ آدَمَ وَالْعُجْبِ، وأَوَّلُهُ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُهُ جيفَـةٌ قَذِرَةٌ، وَهُوَ بَيْنَ ذلِكَ يَحْمِلُ الْعَذَرَةَ»(١).

قاعِدَةٌ تَحْتاجُ إِلى تَأَمُّلٍ:

هذه القاعدة نستخلصها من الأحاديث الخمسة الآتية:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيَنْـدَمُ عَلَيْـهِ، وَيَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيَسُرُّهُ ذلِكَ، فَيَتَراخى عَنْ حالِهِ تِلْكَ، فَلأَنْ يَكونَ عَلى حالِهِ تِلْكَ خَيْرٌ لَهُ مِمّا دَخَلَ فيهِ»(٢).

٢- عن عبد الرّحمن بن الحجّاج، قال: «قُلتُ لأبـي عبـد الله عليه السلام: الرَّجـل يعمل العمل، وهو خائفٌ مُشْفِقٌ، ثمّ يعمل شيئاً من البرِّ، فيدخله شـبه العجـب بـه، فقال: هُوَ في حالِهِ الأولى - وَهُوَ خائِفٌ - أَحْسَـنُ حـالاً مِنْـهُ فـي حـالِ عُجْبِهِ»(٣).

٣- وعن أحدهما عليهما السلام، قال: «دَخَلَ رَجُلانِ الْمَسْـجِدَ: أَحَـدُهُما عابِـدٌ، وَالآخَرُ فاسِقٌ، فَخَرَجا مِنَ الْمَسْـجِدِ، وَالْفاسِـقُ صِـدِّيقٌ، وَالْعابِـدُ فاسِـقٌ، وَذلِكَ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْعابِدُ الْمَسْجِدَ مُدِلاً بِعِبادَتِهِ يُدِلُّ بها، فَتَكونُ فِكْرَتُـهُ فـي ذلِكَ، وَتَكونُ فِكْرَةُ الْفاسِقِ في التَّنَدُّمِ عَلى فِسْقِهِ، وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ الذُّنوبِ»(٤).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٨، ح/٧٠٨٧.

(٢) الكافي: ٢/٧٦٢-٧٦٣، ح/٢٥٨١.

(٣) المصدر نفسه: ٣/٧٦٤، ح/٢٥٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٧٦٣-٧٦٤، ح/٢٥٨٣.

٤- وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَيِّئَةٌ تَسوؤُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ**»(١).

٥- وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ضاحِكٌ مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِهِ خَيْرٌ مِنْ باكٍ مُدِلٍّ عَلى رَبِّهِ**»(٢).

والقاعدة الّتي تُستخلص من هذه الأحاديث هي: أنّ الإنسان ينبغي أن لا يفرحَ بحسناته، ولا يستكثرَها، وينبغي أن يندمَ على سيّئاته مهما صغرت..

وهذه القاعدة تحتاج إلى تأمّل كثير، فنقول: السّيّئة قبيحة على كلّ حال، والحسنة حسنة؛ وهذه قضية حتميّة، ولكن لماذا السّيّئة خير من الحسنة هنا؟

هذه القاعدة من أسرار هذا الدّين، وفهمها مفتاحٌ لكثير من القضايا الأساسيّة في الإسلام، هناك ما عدا السّيّئة والحسنة إفرازان نفسيّان لهما؛ فالسّيّئة لها إفراز في حالة السّلامة والصحو.. والحسنة لها إفراز في حالة المرض.. أمّا إفراز السّيّئة في حالة السّلامة فهو النّدم والوجل بحيث إنّ المسيء يستاء من نفسه، وهذا دليلٌ على الصّحّة النّفسيّة، ويعمل الحسنة فتعجبه وتسرّه، ويشعر بالنّشوة والانتفاخ، وهذا دليل الانحراف النّفسيّ؛ هذان الإفرازان لهما قانون يعكس الحسنة والسّيّئة: إفراز السّيّئة -وهو النّدم والإحساس بالخجل بين يديّ الله - أفضل من إفراز الحسنة الّتي تسبّب للإنسان انتفاخاً وإعجاباً بنفسه وعمله.

وإنّما يكون إفراز السّيّئة حسناً؛ لأنّه إحساسٌ بالعمل السّيّئ وبالذّنب والمعصية حتّى يستقبح الإنسان من نفسه ويخجل منها، وهذا الإحساس يقع في

(١) نهج البلاغة: ٤٩٤، قصار الحكم: ٤١.

(٢) الشّيخ المفيد، الإرشاد: ٣٠٤/١.

دائرة التّقصير، ويشعر بالعجز عن أداء حقوق الله.

وأمّا الإحساس بالابتهاج والسّرور في عمل الحسنات مع الوقوع في شبك الإعجاب، وتعظيم العمل، ويصبح مُدِلاً[(١)] به على الله، وأكثر من ذلك قد يمنّ به على الله – والعياذ بالله – فيخرجه عن دائرة الإحساس بالتّقصير الّتي تدخله في دائرة العبوديّة لله، وما يخرجه عن دائرة العبوديّة لله يخرجه عن التّضرع، والخشوع، والخوف، والإخبات؛ فهذه مشاعر الإنسان وهو يعيش في دائرة العبوديّة، فإن فقدها فقد خرج عن دائرة تَخَضُّعِهِ وتَعَبُّدِهِ لله، وليس هناك أكبر من هذه الخسارة.

تَحْسيسُ النَّفْسِ بِالتَّقْصيرِ:

العبوديّة لله تعالى تتقوّم بالشّعور بالتّقصير؛ ولذلك جاءت الرّوايات والأحاديث الشّريفة مؤكّدة تأكيداً متواصلاً على لزوم تحسيس النّفس بالتّقصير؛ فعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنَّه قال لبعض ولده: «**يا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِالْجِدِّ، لا تُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ مِنْ حَدِّ التَّقْصيرِ في عِبادَةِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَطاعَتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعالى لا يُعْبَدُ حَقَّ عِبادَتِه**»[(٢)].

فهنا وصيّتان، وهما:

الأولى: الجدّ في طاعة الله، وعدم التّسامح مع النّفس في الطّاعة.

الثّانية: أن لا يخرج نفسه عن دائرة التّقصير.

---

(١) المُدِلّ: المنبسط المسرور الّذي لا خوف له من التّقصير في العمل، ينظر: النّهاية لابن الأثير: ١٣١/٢، باب (دلل).

(٢) الكافي: ١٨٥/٣، ح/١٦١٦.

عن الحسن بن الجهم أنّه سمع الإمام الرّضا عليه السلام: «**إنَّ رَجُلاً كانَ في بَني إسْرائيلَ عَبَدَ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى أَرْبَعينَ سَنَةً، فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، فَقالَ لِنَفْسِهِ: ما أُوتيتُ إلا مِنْكِ، وَلا الذَنْبُ إلا لَكِ، فَأَوْحى اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى إلَيْهِ: ذَمُّكَ نَفْسَكَ أَفْضَلُ مِنْ عِبادَةِ أَرْبَعينَ سَنَةٍ**»[1].

قد يكون المقصود بالحديث أنّ الإحساس بالذّنب والشّعور بالتّقصير هو نتيجة عبادة أربعين سنة؛ ولذا فهي ثمرة العبادة فهي أفضل منها.

عن الفضل بن يونس، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «**أَكْثِرْ مِنْ أَنْ تَقولَ: اللّهُمَّ لا تَجْعَلني مِنَ الْمُعارينَ، وَلا تُخْرِجْني مِنَ التَّقْصيرِ**»، قال: «قلتُ: أمّا الْمُعارونَ[2]، فقد عرفتُ أنّ الرّجل يُعار الدّينَ، ثمّ يخرج منه، فما معنى لا تخرجني من التّقصير؟ فقال عليه السلام: **كُلَّ عَمَلٍ تُريدُ بِهِ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فَكُنْ فيهِ مُقَصّراً عِنْدَ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ في أَعْمالِهِمْ فيما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ مُقَصّرونَ إلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

وفي كلّ زمان هناك أناس يعبدون الله على حرف، فإذا تراكمت الغيوم، واشتدَّت المحن، وتوالت الشّدائد يخرجون عن الإيمان؛ لأنَّ هذا الإيمانَ إيمانٌ معارٌ، أي عارية عندهم غير مستقرّ في قلوبهم، وليس جزءً من شخصيّة المؤمن؛

---

(١) الحميري، قرب الإسناد: ٣٩٢، ح/١٣٧١ .

(٢) المعارون: هم المتردّدون «بين الإيمان والكفر، مستضعفين في علمه، فمن آمن منهم كان إيمانه مستودعاً، فإن يشأ الله أن يتمّه لهم لحسن استعدادهم وإقبالهم إلى الله عزَّ وجلَّ أتمّه بفضله وتوفيقه، وجعله ثابتاً مستقرّاً فيهم، وإن يشأ أن يسلبهم إيّاه لزوال استعدادهم الفطريّ، وفساد استعدادهم الكسبيّ، سلبهم ورفع عنهم توفيقهم». بحار الأنوار للمحدّث المجلسي: ٢٢٤/٦٩ .

(٣) الكافي: ١٨٦/٢-١٨٧ ،ح/١٦١٩ .

ولهذا فإنَّ من ضرورات الإيمان الإحساس بالتّقصير حقيقـةً، وهـذا التّأكيـد على تحسيس الإنسان بالتّقصير إنّما جاء لأمر مهمّ خطير وهـو: أنَّ الخـروج مـن دائـرة التّقصير دخول في دائرة المنّ على الله، وهو الكفر بعينه.

إنَّ العبادة عن إيمان ووعي هي الّتي تغذّي الإنسـان بالإحسـاس بالتّقصـير، وهي العبادة الصحيحة، فالعبادة غير مقصودة لذاتها، وإنّما هـي وسـيلة لتحسـيس الإنسان بالتّقصير بين يدي الله تبارك وتعالى؛ ولهـذا يقـول تعـالى: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[١].

كما ورد في الحديث الشّريف: «**قالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِداودَ** عليه السلام: **يـا داودُ، بَشّرِ الْمُذْنِبينَ، وَأَنْذِرِ الصّدّيقينَ، قالَ: كَيْفَ أُبَشّرُ الْمُـذْنبينَ، وَأُنْـذِرُ الصّدّيقينَ؟ قال: يا داودُ، بَشّرِ الْمُذْنبينَ أَنّي أَقْبَلُ التَّوْبَةَ، وَأَعْفُوَ عَنِ الذَّنْبِ، وَأَنْذِرِ الصّدّيقينَ أَلا يُعْجَبوا بِأَعْمالِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ عَبْدٌ أَنْصِـبُهُ لِلْحِسـابِ إلا هَلَكَ**»[٢].

وعن الصّادق عليه السلام: «**إِنْ كانَ الْمَمَـرُّ عَلـى الصّـراطِ حَقّـاً فَالْعُجْـبُ لِماذا؟**»[٣].

إنَّ الإنسان العارف بالله تبارك وتعالى كلّما ازداد علماً وعبادة فإنَّـه يـزداد خشـوعاً وخضـوعاً وخوفـاً مـن الله، وشـعوراً بالتّقصـير: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[٤].

---

(١) الحجرات: ١٧.

(٢) الكافي: ٣/٧٦٥-٧٦٦، ح/٢٥٨٧.

(٣) الشّيخ الصّدوق، التّوحيد: ٣٧٦.

(٤) فاطر: ٢٨.

وفي عكسه الإنسانُ الأجوفُ يعجب بأعماله، وتنتفخ أوداجه؛ ولذلك فإنَّ الله تعالى يسلب العبد المعجب بعبادته لذّة المناجاة والنّشاط والاستمراريّة في عمله، فيُلْقي عليه نعاساً؛ ليرجعه إلى صوابه؛ لئلا يأخذه الإعجاب بعبادته، فعن أبي جعفر عليه السلام، عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، قال:

«قال الله تعالى: ... وَإنَّ مِنْ عِبادِيَ الْمُؤْمِنينَ لَمَنْ يَجْتَهِدُ في عِبادَتي، فَيَقومُ مِنْ رُقادِهِ وَلَذيذِ وِسادِهِ، فَيَتَهَجَّدَ لِيَ اللَّيالِيَ، فَيُتْعِبُ نَفْسَهُ في عِبادَتي، فَأَضْرِبُهُ بِالنُّعاسِ اللَّيْلَةَ وَاللَّيْلَتَيْنِ؛ نَظَراً مِنّي لَهُ، وَإبْقاءً عَلَيْهِ، فَيَنامُ حَتّى يُصْبِحَ، فَيَقومُ وَهُوَ ماقِتٌ لِنَفْسِهِ، زارئٌ[1] عَلَيْها، وَلَوْ أُخَلّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما يُريدُ مِنْ عِبادَتي لَدَخَلَهُ الْعُجْبُ مِنْ ذلِكَ، فَيُصَيِّرُهُ الْعُجْبُ إلى الْفِتْنَةِ بِأَعْمالِهِ، فَيَأْتِيَهُ مِنْ ذلِكَ ما فيهِ هَلاكُهُ؛ لِعُجْبِهِ بِأَعْمالِهِ، وَرِضاهُ عَنْ نَفْسِهِ، حَتّى يَظُنَّ أَنَّهُ قَدْ فاقَ الْعابِدينَ، وَجازَ في عِبادَتِهِ حَدَّ التَّقْصيرِ، فَيَتَباعَدُ مِنّي عِنْدَ ذلِكَ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ، فَلا يَتَّكِلِ الْعامِلونَ عَلى أَعْمالِهِمْ الّتي يَعْمَلونَها لِثَوابي؛ فَإنَّهُمْ لَوِ اجْتَهَدوا، وَأَتْعَبوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَفْنَوا أَعْمارَهُمْ في عِبادَتي كانوا مُقَصّرينَ، غَيْرَ بالِغينَ في عِبادَتِهِمْ كُنْهَ عِبادَتي فيما يَطْلُبونَ عِنْدي مِنْ كَرامَتي، وَالنَّعيمِ في جَنّاتي، وَرَفيعِ دَرَجاتي في جِواري، وَلكِنْ فَبِرَحْمَتي فَلْيَثِقوا، وَبِفَضْلي فَلْيَفْرَحوا، وَإلى حُسْنِ الظَّنِّ بي فَلْيَطْمَئِنّوا؛ فَإنَّ رَحْمَتي عِنْدَ ذلِكَ تَدارَكُهُمْ، وَمَنّي يُبَلِّغُهُمْ رِضْواني، وَمَغْفِرَتي تُلْبِسُهُمْ عَفْوي؛ فَإنّي أَنا اللهُ الرَّحْمنُ الرَّحيمُ، وَبِذلِكَ تَسَمَّيْتُ»[2].

(١) في مصادر أخرى: «زارٍ»، بقلب الهمزة إلى الياء ثم حذفها، ينظر هامش الحديث في كتاب الكافي.

(٢) الكافي: ١٥٧/٢-١٥٨، ح/١٥٨١.

مَصائِبُ الأنا:

العُجب مصيبةٌ من مصائب الأنا، ومصائب الأنا كثيرة جداً؛ منها: الحسد، والطّمع، والكذب، والغرور، والحرص، والجشع... الخ؛ فما هو الموقف العملي والموقف النظري في الإسلام من الأنا؟

هذه المشكلة في حياة الإنسان خطيرة وضخمة، فماذا يعمل لمواجهتها؟ هل يلغيها نهائيّاً من حياته؟ أم يعدّلها، ويقوّمها، ويوجّهها؟

هناك طريقتان:

الطّريقة الأولى: إلغاء وحذف الأنا من النّفس كليّاً، وهذه طريقة صوفيّة لا تتلاءم مع المنهج الإسلاميّ في بناء الشّخصيّة؛ لأنَّ الإسلام يحمل للبشريّة مشروعَ تعديلٍ وتلطيفٍ، لا حذفٍ وإلغاء.

ونحن لكي نعرف هذا المشروع لا بدّ أن ندخل في عمق الأنا، ونحلّله، ونجزّئه، فنقول: للأنا وجهان:

أولاً: وجه إلى الله تعالى.

ثانياً: وجه إلى الهوى، أو الميول والغرائز.

أمّا الوجه إلى الله فهو يجسّد الفقر والحاجة إلى الله تبارك وتعالى، وأمّا الوجه الآخر، وهو الشّطر المتدنّي من الأنا، (وجه الهوى إلى الأنا)، وهو وجه الاستغناء والملك؛ ولكلّ من هذين الوجهين خصائص وإفرازات:

أمّا الوجه الأول وهو المتّجه إلى الله تعالى، فيتّسم بالفقر، والحاجة، والخضوع، والخشوع، والخوف، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]، أي كلّ ما

(١) فاطر: ١٥.

فيكم محتاج إلى الله وفقير إليه، فقير من حيث المبدأ، وفقير من حيث المنتهى.

إنَّ تحسيس النَّفس بالفقر إلى الله في كلّ شيء هو من أهمّ مقوّمات العبودية لله، وهذا هو الوجه المشرق من الأنا، وهو المطلوب من الإنسان، والأنا بهذا المعنى لا يمقته الإسلام، ولا يرفضه؛ فهذا موسى بن عمران عليه السلام عندما استسقى لبنات شعيب الماء، ثم آوى إلى الظّلّ طرح أناته بين يدي الله متضرعاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[1]؛ فهذا الوجه من الأنا طيّبٌ، ومحمودٌ، ومرضيٌّ عند الله.

الوجه الثّاني من الأنا: وهو الوجه المتّجه إلى الهوى والأنانيّة، قوام هذا الوجه: الملك والاستغناء عن الله تعالى، حتّى يصل الإنسان إلى حدّ يعدّ نفسه مستغنياً عن كلّ أحد، وهذا الوجه هو الذي خدع به إبليسُ أبانا آدم، ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[2].

خدعه بأمرين اثنين:

أولاً: شجرة الخلد: وهي حبّ البقاء.

ثانياً: ملك لا يبلى: دغدغ في نفسه حبّ الملك.

وكِلا الأمرين - غريزة حبّ البقاء، وحبّ الملك وبقائه - مرتبطان بالأنا.

هذا الوجه من الأنا هو الوجه الممقوت من قبل الشّريعة؛ يعرضه القرآن في قصّة إبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥

(١) القصص: ٢٤.

(٢) طه: ١٢٠.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾[١].

وفي قصّة قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾[٢].

وفي قصّة فرعون: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣].

والأنا حجاب بين الإنسان وبين الله عزّ وجلّ، وبهذه الأنا يحجب نفسه عن الله تعالى.

هذه حالات، وحالة موسى حيث قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾[٤].

هنا: (الأنا) طريقٌ وجسرٌ إلى الله تعالى، مفتوحٌ إليه، وإفرازاته في الوجه الأوّل: هي العبوديّة، والتّوكّل على الله، والحاجة، والفقر إليه، والخشوع، والخضوع، والخوف، والاعتذار، والاسترحام منه.

أما إفرازات الأنا في الوجه الثّاني فهي: الكذب، والغرور، والاعتداد بالنّفس، والحرص، والطمع، والحسد، والعدوان على الآخرين؛ حرص على التّجميع وحبّ لتسليط الأضواء على كفاءاته، وخدماته، ونفوذه... وهكذا يبقى لاهثاً وراء نزواته في طلب السّمعة، والشّهرة، والظّهور تحت الأضواء، ولا شكّ أنّ هذا الطّلب من أخطر المخاطر على دين الإنسان، يروى عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشيرَ النّاسُ إِلَيْهِ بالأَصابِعِ في دِينِهِ وَدُنْياهُ إِلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ**»[٥]؛ لأنَّ «**حُبَّ الشَّرَفِ وَالذّكْرِ لا يَكونانِ في قَلْبِ**

(١) ص: ٧٥-٧٦.

(٢) القصص: ٧٨.

(٣) النّازعات: ٢٣-٢٤.

(٤) القصص: ٢٤.

(٥) إحياء علوم الدّين: ٢٧٥/٣.

الْخائِفِ الرّاهِبِ»[١].

وهذه الأنا تحبّ النّفوذ، والسّلطان، والنّهم، والجشع، ولا تشبع أبداً، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغى إِلَيْهِما ثالِثاً، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلا التُّرابُ**»[٢].

هذا الوجهُ ممقوتٌ في الإسلام، وهو الّذي يبعد الإنسان عن الله، ويحبسه في بوتقة الأنا، فلا يعد يرى غيرها.

الطَّرِيقَةُ الإِسْلامِيَّةُ في مُعالَجَةِ الأَنا:

أعطى الإسلامُ مجموعة توجيهات، نحصرها في أربعة محاور: علاقة الأنا بالله تعالى؛ وعلاقة الأنا بالنّاس؛ وعلاقة الأنا بالدّنيا؛ وعلاقة الأنا بذاتها.

١- العلاقة الأولى: علاقة الأنا بالله عزَّ وجلَّ:

كلّ التّعاليم الإسلاميّة تحاول أن تكرّس حالة الفقر إلى الله، وتحسيس الأنا بفقرها إلى الله، وتعميق الشّعور بالفقر في نفس الإنسان، وهناك ثلاثة محاور من مفردات الفقر إلى الله تعالى، وهي: محور الطّاعة، ومحور الحبّ، ومحور الفقر والحاجة.

هذه المحاور الثّلاثة هي محاور العلاقة بالله تعالى، والإسلام يلغي محوريّة الأنا في كلّ حركة يقوم بها الإنسان، ويستبدلها بمحورية الله سبحانه، ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[٣].

(١) الكافي: ٣/١٧٨، ح/١٦٠٥.

(٢) الفتّال النّيسابوري، روضة الواعظين: ٤٢٩.

(٣) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

والإسلام يعلّمنا المنهج العمليّ في العلاقة مع الله؛ كيف نقف بين يدي الله بخشوع وخضوع؟ كيف نشعر بالحقارة والذلّة أمام الله تعالى؟ ماذا نعطي لله؟ وماذا نأخذ منه تعالى؟ هذه العلاقة تشعرنا بجلال الله ورحمته تعالى، نقرأ في دعاء أبي حمزة الثّمالي في مقارنة بين الأخذ والعطاء من الله تعالى:

«الْحَمْدُ لله الَّذي أَدْعوهُ فَيُجيبُني، وَإِنْ كُنْتُ بَطيئاً حينَ يَدْعوني، وَالْحَمْدُ لله الَّذي أَسْأَلُهُ فَيُعْطيني، وَإِنْ كُنْتُ بَخيلاً حينَ يَسْتَقْرِضُني، وَالْحَمْدُ لله الَّذي أناديهِ كُلَّما شِئْتُ لِحاجَتي، وَأَخْلو بِهِ حَيْثُ شِئْتُ لِسِرّي»...

«أَنْتَ الْمُحْسِنُ، وَنَحْنُ الْمُسيؤونَ، فَتَجاوَزْ يا رَبِّ عَنْ قَبيحِ ما عِنْدَنا بِجَميلِ ما عِنْدَكَ»...

«يا غَفّار بنورِكَ اهْتَدَيْنا، وَبِفَضْلِكَ اسْتَغْنَيْنا، وَبِنِعْمَتِكَ أَصْبَحْنا وَأَمْسَيْنا، ذُنوبُنا بَيْنَ يَدَيْكَ، نَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ مِنْها، وَنَتوبُ إِلَيْكَ، تَتَحَبَّبُ إِلَيْنا بِالنِّعَمِ، وَنُعارِضُكَ بِالذُّنوبِ، خَيْرُكَ إِلَيْنا نازِلٌ، وَشَرُّنا إِلَيْكَ صاعِدٌ، وَلَمْ يَزَلْ وَلا يَزالُ مَلَكٌ كَريمٌ يَأْتيكَ عَنّا بِعَمَلٍ قَبيحٍ، فَلا يَمْنَعُكَ ذلِكَ أَنْ تَحوطَنا بِنِعَمِكَ، وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنا بِآلائِكَ»...

«سَيِّدي، أَنا الصَّغيرُ الَّذي رَبَّيْتَهُ، وَأَنا الْجاهِلُ الَّذي عَلَّمْتَهُ، وَأَنا الضّالُّ الَّذي هَدَيْتَهُ، وَأَنا الْوَضيعُ الَّذي رَفَعْتَهُ، وَأَنا الْخائِفُ الَّذي آمَنْتَهُ، وَالْجائِعُ الَّذي أَشْبَعْتَهُ، وَالْعَطْشانُ الَّذي أَرْوَيْتَهُ، وَالْعاري الَّذي كَسَوْتَهُ، وَالْفَقيرُ الَّذي أَغْنَيْتَهُ، وَالضَّعيفُ الَّذي قَوَّيْتَهُ، وَالذَّليلُ الَّذي أَعْزَزْتَهُ...»(١).

(١) ينظر: مصباح المتهجّد: ٥٨٢-٥٨٩.

هذا النّسغ النّازل من الله تعالى كلّه خير ورحمة وعطاء، ونحن من دون هذا النّسغ النّازل لا قيمة لنا، فأنا الخائف، والجاهل، والفقير، والسّقيم، والمذنب... ولولا رحمة الله لما كنت متعلّماً، ومؤمناً، ومستغنياً ...

أما النّسغ الصّاعد إلى الله: «**أَنا – يا رَبِّ – الَّذي لَمْ أَسْتَحْيِكَ فِي الْخَلاءِ، وَلَمْ أُراقِبْكَ في الْمَلاءِ، أَنا صاحِبُ الدَّواهي الْعُظْمى، أَنا الَّذي عَلى سَيِّدِهِ اجْتَرى، أَنا الَّذي عَصَيْتُ جَبّارَ السَّماء، أَنا الَّذي أَعْطى عَلى مَعاصي الْجَليلِ الرُّشا، أَنا الَّذي حينَ بُشِّرْتُ بها خَرَجْتُ إِلَيْها أَسْعى**...»[١].

أما اقتران النّسغ النّازل والصّاعد، فيذكرها الإمام عليه السلام: «**أَنا الَّذي أَمْهَلْتَني فَما ارْعَوَيْتُ، وَسَتَرْتَ عَلَيَّ فَما اسْتَحْيَيْتُ، وَعَمِلْتُ بِالْمَعاصي فَتَعَدَّيْتُ، وَأَسْقَطْتَني مِنْ عَيْنِكَ فَما بالَيْتُ**...»[٢].

وعلاقة النَّفس والأنا بالله سبحانه وتعالى هو تحسيس النّفس بالشّكر لله سبحانه، والشّكر أحسن وأفضل أداة لتعبيد الإنسان لله تعالى، وكسر الأنا وتحجيمها كذلك، إنَّ الشكر يكسر حالة الأنانيّة لدى النّفس ذاتها.

فالشُّكر هو تحسيس النَّفس بالعلاقة مع الله سبحانه في خطّين: خطّ صاعد، وخطّ نازل.

الخطّ الصّاعد: الشّكر يحسّس الإنسان بحاجته وفقره تجاه الله عزَّ وجلَّ.

والخطّ النّازل: الشّكر يحسّسنا بنعمة الله وفضله، وبتعبير آخر: الشّكر يقوم بعمل مزدوج، وإنَّ هذه العلاقة قائمة بين الإنسان وبين المولى عزَّ وجلَّ سواء

(١) مصباح المتهجّد: ٥٨٩.

(٢) المصدر نفسه.

وَعَيْناها أم لم نعِها.

إنَّ عملية الشّكر تسلّط الضّوء على هذه العلاقة الصّاعدة والنّازلة بين الله وبين الإنسان، وتجعلنا نعي ونشعر بفقرنا إلى الله من ناحية، ومن ناحية أخرى تجعلنا نشعر بنعمة الله وفضله.

وهذه هي أفضل أنماط العلاقة بين الإنسان وبين ربّه؛ لأنَّ حقيقة العلاقة بين كلّ طرفين طبيعة مزدوجة، وكلّ علاقة لا بدّ فيها من طرفين وهو أخذ وعطاء... ولا يمكن بدون هاتين العمليّتين أن تتمّ علاقة أبداً.

فعلاقتنا بالله سبحانه ماذا تقدّم وترفع إلى الله عزَّ وجلَّ؟ وماذا ينزل إلينا من الله تبارك وتعالى؟

الشّكر يبلور لنا ذلك، فالّذي نقدمه لله عزَّ وجلَّ هو: الفقر، والحاجة، والاعتذار، والشّعور بالذلّة تجاه الله تعالى، والله ينزل علينا الرَّحمة، والنّعمة، والفضل منه سبحانه، ومعرفة هذه العلاقة تُشعر الإنسان برحمة الله وبفقره إلى خالقه وربّه، فوعي الشُّكر إذن له تأثير عظيم في تحطيم وتحجيم الأنانيّة لدى النَّفس، وكسر كبريائها وجماحها، وبهذا الوعي لا يعود الإنسان يشعر بأناه الذّاتيّة، ولا يسمح لذاته أن تتحكّم فيه، فالإنسان الّذي يخضع نفسه لله، ويرجو رحمته وفضله، ويقرّ له بفقره وحاجته، فلا يمكن لأناه أن تبرز.

الشُّكْرُ تَعَلُّقٌ بِاللهِ وَالسُّكْرُ تَعَلُّقٌ بِالذّاتِ:

عندما يعيش الإنسان حالة الوهم والخيال يخرج عن حجمه الحقيقيّ، فيصيبه السّكر في مقابل عملية الشّكر، وهما ينطلقان من توجيهين مختلفين على وجه الأرض: الشّكر ينطلق من منطلق تعلّق الإنسان بالله عزَّ وجلَّ، والسُّكر ينطلق من منطلق تعلّق الإنسان بالذّات وذوبانه فيها؛ والسّكر والشّكر ينبثقان كلاهما من

النعمة، فالنّعمة في الوقت الّتي تسكر الغافل عن الله تعالى، تدفع الإنسان المرتبط بالله إلى شكر منعمها.

إنَّ نعمةَ المال والبنين والجاه والكرسيّ ... وغيرها هِبَةُ الله للإنسان، فإذا وضعها في إناء موصول بالله أنتجت الشُّكر؛ وأدلُّ كلمة في الفكر الإسلاميّ على ذلك ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «**ذاكَ حَيْثُ تَسْكَرونَ مِنْ غَيْرِ شَرابٍ، بَلْ مِنَ النّعْمَةِ وَالنَّعيمِ**»[١]، ويقول عليه السلام: «**فَاتَّقوا سَكَراتِ النّعْمَةِ، واحْذَروا بَوائِقَ النّقْمَةِ**»[٢].

ولأجل هذه الأهميّة للشّكر نجده يستوعب أكثر الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام كدعاء الافتتاح، ودعاء أبي حمزة الثّمالي، ودعاء الإمام الحسين يوم عرفة، وغير ذلك، فترى هذه الأدعية تبدأ بفصل طويل عن الشُّكر.

٢- العلاقة الثّانية: علاقة الأنا بالآخرين:

الإسلام يوصينا بأن نتواضع لإخواننا المؤمنين، نذلّ أنفسنا لهم، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، وهذا تلطيفٌ لجموح الأنا بالنسبة للآخرين من خلال التّواضع لهم، وتقديم الخدمات إليهم، والسّعي لقضاء حاجاتهم، وزيارتهم، وغير ذلك من ألوان الخدمة؛ كلّ ذلك يهذّب النفس، ويكسر توقانها وغرورها.

٣- العلاقة الثّالثة: علاقة الأنا بالدّنيا:

الإسلام عالج ذلك بتحرير الذّات الإنسانية من هذه الدُّنيا ومن تبعاتها،

---

(١) نهج البلاغة: ٣٠٧، خطبة: ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤١، خطبة: ١٥١.

(٣) المائدة: ٥٤.

وجعل التّعلّق بالدّنيا نوعاً من أنواع الأسر والرّقّ لها، لذا يقول الإمام عليّ عليه السلام في ذلك: «**الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ**»(١)؛ فالمؤمن يتحرّر من كلّ ما يشدّه إلى الدُّنيا، فلا يقع في قبضتها، بل لا بدّ أن تقع هي في قبضته، - جميل جداً أن يتحكّم الإنسان بميوله الدّنيويّة، وجميل أن تأتي إليه - أمّا أن يصير أسيراً لها فذلك ما يرفضه الإسلام؛ لأنَّه يريد من الإنسان أن يتحرّر، ويعلو على تراب الأرض، فحينئذٍ لا تؤثّر فيه لا واردها ولا شاردها، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الدُّنْيا دارُ مَمَرّ إلى دارِ مَقَرّ، وَالنّاسُ فيها رَجُلانِ: رَجُلٌ باعَ فيها نَفْسَهُ فَأَوْبَقَها، وَرَجُلٌ ابْتاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَها**»(٢).

وعنه عليه السلام: «**إِلَيْكِ عَنّي يا دُنْيا، فَحَبْلُكِ عَلى غارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهابَ في مَداحِضِكِ**»(٣).

فعندنا حالتان: حالة الانسلال، وهي حالة الخروج خيفة من الوقوع في شباك الشّيطان وجنوده؛ وحالة الانفلات، وهي حالة خروج وتمرّد على إرادة الشّيطان.

يقول عليه السلام: «**الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(٤)**»(٥).

المقطع الأول من الآية: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ وهو مفهوم، وهو أنَّ

---

(١) نهج البلاغة: ٥١٦، قصار الحكم: ١٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٥٠٩، قصار الحكم: ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ٤٤٢، كتاب ٤٥.

(٤) الحديد: ٢٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥٥٨، قصار الحكم: ٤٢٧.

المصيبة إذا أصابت المؤمن فلا يهتمّ ولا يتألّم؛ والمقطع الثّاني من الآية: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ غير مفهوم من أوّل وهلة لكن بالتّأمّل والتّفكير يفهم ذلك، وهو أنّ المؤمنين غرباء عن هذه الدُّنيا، يذهب عنهم شيءٌ فلا يحزنهم، ويأتيهم شيءٌ جديدٌ مُفرِحٌ فلا يفتنهم، يصف ذلك أمير المؤمنين عليه السلام: «**نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ في الْبَلاء كَالّتي نَزَلَتْ في الرَّخاء**»[1].

حالة المؤمن لا تَتغيّر في حزن ولا فرحٍ، وإنّما حالته واحدة متوازنة، أقبلت الدُّنيا عليه، أو أدبرت عنه، وهذا لا يحصل لدى الإنسان إلا في حالة ترفّع الإنسان على زخارف هذه الدُّنيا، فإذا استطعنا أن نترفّع عن زخارف الدُّنيا فسوف نكون مصداقاً للآية الكريمة المذكورة.

٤- العلاقة الرّابعة: علاقة الأنا بذاتها:

علاقة الإنسان بنفسه وهي علاقة الأنا بالأنا إذا صحَّ التّعبير، والإسلام لكي يلطّف علاقة الإنسان بنفسه أمره أن يسلّط الأضواء على نفس (الأنا)، أنت غير مأمور لكشف خبايا نفوس الآخرين، وإنَّما مأمور بالكشف عن خبايا وأعماق نفسك، ففيها دهاليز مُهْلِكةٌ، وسباعٌ مفترسةٌ، فعلى الإنسان أن يضع نفسه موضع التُّهمة، ويضعها على طاولة التَّشريح، ويكشف ما فيها من معايب وأمراض، ويعمل على علاجها، ولنعلم أنَّ أي مسامحة معها هو هلاك لها.

فأحسنوا الظَّنَّ بالآخرين، وأسيؤوا الظَّنَّ بأنفسكم، واجعلوها في موضع التُّهمة، يقول تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) النّجم: ٣٢.

ويقـــول تعـــالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾(١).

على الإنسان المؤمن دائماً أن تكون الأنا عنده في قفص الاتّهام أمام محكمة العقل؛ لكي ينقدها من غير رحمة، ويحذّر من أن يزكّي نفسه، أو يزكّيه الآخرون، يقول عليٌّ عليه السلام: «**إذا زُكّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خافَ مِمّا يُقالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنا أَعْلَمُ بِنَفْسي مِنْ غَيْري، وَرَبّي أَعْلَمُ مِنّي بِنَفْسي! اللَّهُمَّ لا تُؤاخِذْني بِما يَقولونَ**»(٢).

النَّقطة الثّانية في تعامل الإنسان مع الأنا الذّاتية هو إتعابها، وتحميلها أثقال الطّاعة، وإرهاقها؛ فإنَّ النَّفس أمّارة بالسّوء، والإنسان إذا لم يتعامل مع نفسه بشدّة تفلت من قبضته، أمّا لو تعامل بشدّة وقسوة تذلّ وتتطوّع، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فيما تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِها سُؤْلَها فيما تُحِبُّ**»(٣)، أي إذا استصعبت نفس المؤمن مشقّة الطّاعة يروّضها بأن لا يعطيها سؤلها المباح من النّوم، والأكل، والرّاحة... أي بمنعها عن المباحات لها.

النّفس إن لم يحكمها صاحبها تحكمه، وإن لم تقبل الهدى تسرح في تيّار الهوى، يقول عليٌّ عليه السلام: «**امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجامِها، وَزَمَّها بِزِمامِها، فَأَمْسَكَها بِلِجامِها عَنْ مَعاصي الله، وَقادَها بِزِمامِها إِلى طاعَةِ الله**»(٤).

(١) النّساء: ٤٩.

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٤، خطبة: ١٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٥، خطبة: ٢٣٨.

الفرس تحتاج إلى لجام وزمام، فلا يمكن أن توقف وتُحْكَمَ بلا لجام، كذلك الإنسان إذا لم يجعل لنفسه لجاماً وزماماً، فلا يمكن أن تطاوعه فلو أطلق عنانها، فلا يستطيع السَّيطرة عليها، ففي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام:

«وإنَّما هِيَ نَفْسي أُرَوِّضُها بالتَّقْوى؛ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلى جَوانِبِ الْمَزْلَقِ، وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّريقَ إلى مُصَفَّى هذا الْعَسَلِ، ولُبابِ هذا الْقَمْحِ، وَنَسائِجِ هذا الْقَزِّ، ولكِنْ هَيْهاتَ أَنْ يَغْلِبَني هَوايَ، وَيَقودَني جَشَعي إلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ، ولَعَلَّ بالْحِجازِ أَوْ بالْيَمامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ في الْقُرْصِ، وَلا عَهْدَ لَهُ بالشِّبَعِ، أَوْ أَبيتَ مِبْطاناً وَحَوْلي بُطونٌ غَرْثى، وَأَكْبادٌ حَرّى، أَوْ أَكونَ كَما قالَ الْقائِلُ: [من الطّويل]

وَحَسْبُكَ داءً أَنْ تَبيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبادٌ تَحِنُّ إلى الْقَدِّ»[1]

(١) نهج البلاغة: ٤٤١، كتاب: ٤٥.

(البَحْثُ السّادِسُ)

الْغُرورُ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾(١).

الغُرور – بضمّ المعجمة -: «الباطل، مصدر غُرِرْت، وما اغترّ به من متاع الدُّنيا. قوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢) أي الخداع الّذي لا حقيقة له، وهو المتاع الرديء الّذي يُدلَّس به على طالبه حتى يشتريه، ثم يتبيّن له رداءته، والشّيطان هو المدلّس»(٣).

فالغرور: هو الانخداع بالأباطيل، والانجرار وراء زخارفها من دون معرفة بما تخفي في باطنها، (ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارٍّ، مثل شاهد وشهود، وقاعد وقعود، والغُرور، بالضّمّ: ما اغْتُرّ به من متاع الدُّنيا، وفي التّنزيل العزيز: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾(٤)... وغرّر بنفسه وماله تغريراً وتَغِرَّةً: عرَّضهما للهلكة من غير أن يعرف... وفي حديث مطرف: إِنَّ لي نَفْساً واحِدَةً، وَإِنّي أَكْرَهُ أَنْ أُغَرِّرَ بِها، أي أحملها على غير ثقة، قال: وبه سُمّي الشيطان غَروراً؛ لأَنَّه يحمل الإنسان

(١) لقمان: ٣٣.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) الشّيخ الطّريحي، مجمع البحرين: ٤٢٢/٣، باب (غرر).

(٤) لقمان: ٣٣، وفاطر: ٥.

على محابّه، ووراء ذلك ما يسوءه)[(١)].

وعرَّفه بعض علماء الأخلاق بأنَّه: «سكون النّفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطّبع عن شبهة وخدعة من الشّيطان، فمن اعتقد أنَّه على خير إمّا في العاجل، أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور»[(٢)]..

أَسْبابُ الْغُرورِ:

طالما رأينا الإنسان يغترّ، وينخدع، وينجرّ وراء الآمال الموهمة، ويندفع مع الأهواء الجارفة، وفي كثير من الأحيان يتوقّف تفكيره، ويصبح ثملاً إلى حدّ يفقد توازنه، وتنطمس بصيرته، ولا يعود يبصر غيرها، ويلهث وراءها كما صوّر أمير المؤمنين عليه السلام: «**سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرورِ أَبْعَدُ إِفاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمورِ**»[(٣)].

والعبارة على قصرها تصوّر حالة الإنسان عندما تسيطر عليه الأماني، والأهواء فلا يكاد يصحو من سكرته إلا بعد أن تشبع رغباته؛ إلا أنّه بعد أن يحقّق بعض لهوات الهوى يصطدم بتفاهة ما حقّق؛ ثم يندم على ما فعل، وقد يفيق على نفسه، فيصحو من غفلته إن تفكّر في حالته البائسة، إلا أنَّ العادةَ غالبةٌ في أكثر النّاس؛ وتأسيساً على ذلك يمكن أن نذكر بعض أسباب الغرور:

١- عدم وضوح الرّؤية لسرّ الوجود، وعلّة الإيجاد نتيجة قصر النّظر، وضيق الأفق، وجدب المعرفة؛ فقد تكون أهدافُ الإنسان في الحياة ضيّقةً وقصيرة تنحصر في لذّات محدودة كجمع الأموال، والحصول على الجاه،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١٢/٥-١٤، باب (غرر).

(٢) الشّيخ النّراقي، جامع السّعادات: ٣/٣.

(٣) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٦، ح/٥٧٥٠.

والسّمعة، والشّهرة بأيّ طريق كان، وهـذا نـاتجٌ عـن عـدم معرفـة الإنسـان لـدوره الحقيقيّ في الحياة والكون، وبعبـارة أخـرى: لا يعـرف علّـة وجـوده فـي الحيـاة، فيصبح ويمسي لاهثاً وراء بوارق الآمال الصَّغيرة، فإذا ما تحقّق لـه بعضـها تصـوَّر أنَّه حقَّق كلّ ما يريد، وإذا به تـنتفخ أوداجـه، وتسـتعلي نفسـه، ويعـيش كـواذب الآمال، وإلا لو عرف أنَّ نفس الإنسـان لـيس لهـا ثمـن إلا الجنَّـة، فـلا يمكـن أن يبيعها بتلك التّوافه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلا حُرٌّ يَدَعُ هذِهِ اللُّماظَةَ**[١] **لأَهْلِها؟ إِنَّهُ لَـيْسَ لأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إلا الْجَنَّةَ فَلا تَبيعوها إِلا بِها**»[٢].

وورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**أَوَلا حُرٌّ يَدَعُ (هـذِهِ) اللُّماظَـةَ لأَهْلِها - يَعْني الدُّنْيا - فَلَيْسَ لأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إلا الْجَنَّةُ، فَلا تَبيعوها بِغَيْرِهـا، فَإِنَّهُ مَنْ رَضِيَ مِنَ اللهِ بالدُّنْيا فَقَدْ رَضِيَ بِالْخَسيسِ**»[٣].

٢- الجهل المركّب بحقائق الأشياء، والأحداث، فقد (يعتقد الشّيء، ويراه على خلاف ما هو بـه)[٤]، فقـد يـرى نفسـه كبيـراً وعظيمـاً لشـيء ملكـه، أو لعلـم اكتسبه، والسِّرُّ هنا هو جهله بحقيقة نفسه، وما تتميّز بـه مـن ضـعف، وفقـر، يقـول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ جَهِلَ اغْتَرَّ بِنَفْسِهِ، وَكانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أَمْسِهِ**»[٥]، فلـو عـرف نفسـه علـى حقيقتهـا، بأنَّهـا نفحـة ربانيـة لا تحيطهـا الآمـال، ولا تملكهـا

---

(١) اللُّمَاظة بالضّم: بقيّة الطعام في الفم، يريد بها الدُّنيا، أي ألا يوجد حرٌّ يترك هذا الشّيء الدّنيء لأهله.

(٢) نهج البلاغة: ٥٦٠، قصار الحكم: ٤٤٤.

(٣) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٣٩١.

(٤) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٣/٣٧٩.

(٥) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣١١، ح/٧١٨١.

الأموال، يجب أن تكدح نحو المثل الأعلى في الكمال، لَما فرح بما حصل من لذّة، وما امتلك من أشياء محدودة، ولو عرف حقائق الأشياء في الدُّنيا، وأنَّ كلّ شيء مهما عَظُمَ، وكَبُرَ، وكَثُرَ، وغلى ثمنه، فهو في طريق الزَّوال والنّفاد: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ** ﴾[(١)]، ولو تذكّر أنَّ كلّ ما يملكه الإنسان في الحياة الدُّنيا قليل بالنسبة إلى ما يناله في الآخرة: ﴿ **وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ** ﴾[(٢)] لما غرَّه ما يملك، ولو تذكّر بأنَّ المال، والسّلطان، والجاه، والسّمعة، والشّهرة، والقوّة، والصّحّة، والجمال كلّها تسير نحو الضّعف والزّوال: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾[(٣)] لما اغترَّ بشيء منها.

إذن يمكن القول: إنَّ من أهم أسباب الغرور هو الجهل بحقيقة الأشياء، والملكات، والغفلة عمّا يجري عليها من تحوّل وتغيّر، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تَغُرَّنَّكَ الْعاجِلَةُ بِزورِ الْمَلاهي، فَإِنَّ اللَّهْوَ يَنْقَطِعُ، وَيَلْزَمُكَ ما اكْتَسَبْتَ مِنَ الْمآثِمِ**»[(٤)].

٣- خطأ الإنسان في نظرته إلى نفسه: قد تكون نظرة الإنسان إلى نفسه بما هي، أي: كونها سرّاً من أسرار الله، بل فيها من الأسرار ما يقابل آفاق الكون كلّه، بل هي أعظم من آفاق الكون؛ لأنَّ الله سخَّر كلّ ما في الكون لها؛ ولذا لا ينبغي أن تخضع لشيء يذلّها، ولا يملكها شيء، بل يجب أن تملك كلَّ شيء، وقيمتها ليس بما تملك، وإنّما قيمتها بما تعرف من أسرارها وأسرار الكون، وما تعيشه من هموم رساليّة، ودوافع إلهيّة، وما تجسّده من سلوك مستقيم، وأخلاق رفيعة...

---

(١) النحل: ٩٦.

(٢) الأعلى: ١٧.

(٣) الرَّحمن: ٢٦.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦١، ح/١٠٥٦٣.

تلك هي النّفس الكبيرة، قال المتنبّي[(١)]: [من الخفيف]

وإذا كانت النّفوسُ كباراً   تَعِبَتْ في مرادها الأجسامُ

ومرّة يتصوّر الإنسان أنّ قيمة نفسه بما تملك من أشياء، وما تتسنّم من مواقع، وما تشغله من مناصب، وما تتمتّع به من مميّزات، وما تشتهر به من سمعة بين النّاس... الخ؛ ولهذا في الحالة الأولى لا يمكن أن تذلّ، أو تخضع، أو تنخدع، وبالعكس في الحالة الثّانية يخضع تصوّراته ومشاعره لما يتمتّع به من مال أو جاه أو سلطان لا بما يحمل من قيم، ومبادئ، ومُثُلٍ، وأخلاق سامية؛ وبعكسه في الحالة الأولى يشعر أنَّه مسؤول عنها، ومحاسب عليها، فلا يمكن أن يغترّ بشيء، بل بالعكس سيُخْضع ويُسَخّر كلّ شيء لكمالها.

عَلاماتُ الْمَغْرورِ:

لمّا كان الغرورُ سمةً مذمومةً، ومحتقرةً عند كلّ العقلاء مهما كان مسلكهم، ومذهبهم، وهذا أمرٌ فطريٌّ يحسه الإنسان بوجدانية، ولا يحتاج إلى برهان، ورغم ذلك قد يكون الإنسان مغروراً، ولكن لا يدري بغروره لغلبة الأهواء على العقول غالباً، ولم نجد أحداً اعترف بغروره إلا بعد أن يصطدم بالواقع، ويفقد ما اغترّ به من مال، أو جاه، أو سلطان، مثله كمثل السّمكة في الماء لا تحسّ به إلا حين تخرج منه.

وهنا نحاول أن نحدّد بعض حالات الغرور السّلوكية كالمشي، والجلوس، والكلام، وفي حكمة لقمان القرآنيّة إشارة جميلة رائعة تبيّن بعض مظاهر الغرور

(١) عبد الرّحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبّي: ٢٤٥/٢.

والتّكبّر: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[١].

(فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّاً، وهما أساس توهين وقطع الرّوابط الاجتماعيّة الصّميميّة: إحداهما التّكبّر وعدم الاهتمام بالآخرين، والأخرى الغرور والعجب بالنّفس، وهما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التّوهّم، والخيال، ونظرة التّفوّق على الآخرين، وإسقاطه في هذه الهاوية، وبالتّالي تقطعان علاقته بالآخرين، وتعزلانه عنهم، خاصّة وأنّه بملاحظة الأصل اللّغوي لـ(صَعَّر)[٢] سيتّضح أنّ مثل هذه الصّفات مرضٌ نفسيٌّ وأخلاقيٌّ، ونوع من الانحراف في التّشخيص والتّفكير، وإلا فإنّ الإنسان السّالم من النّاحية الرّوحية والنّفسيّة لا يبتلى مطلقاً بمثل هذه الظّنون والتخيّلات)[٣].

وظواهر الغرور قد تكون ظاهرة بيّنة في سلوك الإنسان، وقد تكون خفيّة مستترة في طيّات النَّفس، أمّا العلامات الظّاهرة كثيرة؛ نذكر منها:

١- عدم الاهتمام بالآخرين، والاستعلاء عليهم لا سيّما إذا شعر بأنّهم أقلُّ منه شأناً، أو من المحتاجين إليه، فتراه يتعامل بقسوة، أو خشونة، ولا مبالاة.

٢- عدم مراعاة الأدب مع من هم أكبر منه سنّاً، أو أرفع منه منزلةً وعلماً، سواء في الكلام، أو في الجلوس، أو في المماشاة، فتراه يتحدّث بكلام مضطرب مرتبك غير مترابط بطرف شفتيه، شامخاً بأنفه.

---

(١) لقمان: ١٨.

(٢) قال ابن منظور في باب (صعر): «الصَّعَر: مَيَلٌ في الوجه، وقيل: الصَّعَر المَيَل في الخدّ خاصّة، وربما كان خِلْقة في الإنسان والظّليم، وقيل: هو مَيَلٌ في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقّين، وقد صعّر خدّه وصاعره: أماله من الكِبْر... وقيل: الصَّعَر: داءٌ يأخذ البعير، فيلوي منه عنقه ويميله»، لسان العرب: ٤/٤٥٦.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٣/٤٧.

٣- عدم التّورّع في التّعامل مع أحكام الشّريعة من الحلال والحرام، وإذا ما نُبِّهَ على ذلك، فتراه يعرض بوجهه استكباراً، أو يردّ على ناصحه بعنف وخشونة، وقد أخذته العزّة بالإثم.

٤- المشي بتبختر، وتكلّف، وبصورة غير متعارفة، كضرب الأقدام على الأرض، وتحريك الكتفين، أو النّظر إلى الأعلى، أو الأسفل بصورة استعلائيّة.

٥- عدم القدرة على الاستماع لمحدّثه أو مقاطعته بصورة فجّة، ورفع الصّوت أو خفضه بصورة مستهجنة.

٦- النَّظر إلى الصّالحين، والأخيار، والعلماء بعين الازدراء، والاحتقار، والتّعالي، ومحاولة مناقشتهم، والتّفوّق عليهم أمام الآخرين؛ ليفتخر به بعد ذلك، ويثبت قدرته العلميّة أو الكلاميّة، ولا أنسى ذلك المغرور بقدرته الكلاميّة، والتّلاعب بالألفاظ يوم ادَّعى بأنَّه ناقش الإمام الحكيم قدس سره في مسألة وأفحمه، واستطاع أن يُغَيِّر رأي الشّهيد الصّدر قدس سره في مسألة بعد أن دخل في نقاش معه، فقلت له: إذن فلنقلّدك دونهم، فأنت أعلم منهم، وفاجأني بقول فجّ قائلاً: لا تعطي لهؤلاء أكثر من حجمهم!!

يا للعجب إلى أين يصل الغرور بمرضاه من التّدنّي؟

والأخطر من ذلك إذا كانت علائم الغرور مخفيّة ومستورة، كمن يعتقد بنفسه أنَّه أعلم، وأثقف من الآخرين، ويتظاهر بالتّواضع، وهو في غاية الاستعلاء، ويضرب بعض العلماء مثلاً لذلك ببعض طلبة العلوم الّذين يعتقدون أنَّهم أعلم وأقدر من الأستاذ الّذي يدرسون عنده.

ما يَغْتَرُّ بِهِ الإِنْسانُ:

يتنوّع الغرور بتنوّع ما يمتلك الإنسان من قدرات مادّيّة كالمال، والجمال، والقوّة الجسديّة، والسّلطان، وكثرة الأتباع والمريدين، أو إمكانات معنويّة كالعلم.

١- الغرور العلميّ: وهو من أخطر أنواع الغرور، فقد يتفرّغ الإنسان لطلب العلم، ويبذل جهوده في طلبه، وينال منه درجات عالية، ولكنَّ تأثيره على نفسه قد يكون سلبيّاً، فكلّما أصاب باباً من أبواب العلم شعر في نفسه أنَّه مُتقدِّم على الأقران، ومتميِّزٌ على الآخرين، وهكذا يزداد اغتراراً بما حصل، ويصبح ناظراً لنفسه بعين العظمة، وينحصر همُّهُ بالعناوين البرّاقة الّتي يعتقد أنَّها ترفع من منزلته، وكلّما ارتفع في عين نفسه استصغر الآخرين من دونه، وهؤلاء هم الّذين يطلبون العلم للدّنيا كما وصفهم رسول الله ، بقوله: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلدُّنْيا، وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ النّاسِ، وَالْحَظْوَةِ عِنْدَ السُّلْطانِ لَمْ يُصِبْ مِنْهُ باباً إلا ازْدادَ في نَفْسِهِ عَظَمَةً، وَعَلى النّاسِ اسْتِطالَةً، وَبالله اغْتراراً، وَمِنَ الدّينِ جَفاءً، فَذلِكَ الَّذي لا يَنْتَفِعُ بِالْعِلْمِ، فَلْيَكُفَّ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الْحُجَّةِ عَلى نَفْسِهِ، وَالنَّدامَةِ، وَالْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[(١)].

فهؤلاء لا يطلبون العلم إلا ليرتفعوا عند أنفسهم منزلةً في النّاس، ولينالوا الحظوة عند السّلاطين، وبذلك يصيبهم الغرور، ويستطيلون على النّاس استعلاء واستكباراً، وأكثر من ذلك أنّهم يغترون بالله؛ لتصوّرهم أنَّ لهم مكانةً عظيمةً عند الله، فيضعف خوفهم من الله، ويسلب الله منهم لذّة مناجاته وذكره؛ وهكذا عاد

(١) الفتال النّيسابوري، روضة الواعظين: ١١.

العلم عليهم وبالاً: بعداً من الله، وجفاءً في الدّين، ولا أظنُّ أنَّ هناك عقوبةً لهم أكبر من ذلك، ومن هنا كان جزاؤهم أنَّهم أُبعِدوا عن رحمة الله تعالى كما ورد ذلك في كثير من الأحاديث الشّريفة، نذكر منها:

يقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمّا يُبْتَغى بِهِ وَجْهُ الله لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[1].

ويقول ﷺ لابن مسعود: «**يا ابْنَ مَسْعودٍ: مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ يُريدُ بِهِ الدُّنْيا، وَآثَرَ عَلَيْهِ حُبَّ الدُّنْيا وَزينَتَها، اسْتَوْجَبَ سَخَطَ الله عَلَيْهِ، وَكانَ في الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ مَعَ الْيَهودِ وَالنَّصارى الَّذين نَبَذوا كِتابَ الله تَعالى، قالَ الله تَعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾**[2]»[3].

والسِّرُّ في غرور هؤلاء أنَّهم أرادوا أن يسخروا ما لله عزَّ وجلَّ - وهو أقدس ما في حياة الإنسان - للدُّنْيا، أي أرادوا تسخير الأسمى للأدنى، والأخسّ للأرفع، يقول صدر المتألّهين: «والسِّرُّ في ذلك أنَّهم يريدون أن يتوسّلوا بأشرف الأشياء، وهو العلم بالله وأحكامه إلى أخسّ الأشياء، وهو الجاه والمنزلة في الدُّنيا، والتّفاخر بما فيها، والرّكون إلى زخارفها، والإخلاد إلى الأرض، وهذه أمور وهميّة باطلة كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ**﴾[4]»[5].

(١) المتّقي الهندي، كنز العمال: ١٩٣/١٠، ح/٢٩٠٢٠.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) الشّيخ الطّبرسي، مكارم الأخلاق: ٤٥١.

(٤) العنكبوت: ٦٤.

(٥) صدر المتألّهين، تفسير القرآن الكريم: ٢١٠/٦.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نسوا أنّ العلم ليس له حدودٌ، وأنّ العلمَ درجاتٌ متفاوتة، ومتباعدة، فهناك علم الرُّسل والأنبياء، وهناك علم الأئمّة الطّاهرين، والأولياء الصّالحين، وفوق ذلك كلّه علم الله تعالى: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾[1]، قال ابن عبّاس: «عليٌّ عليه السلام عَلِمَ علماً عَلَّمَهُ رسول الله ،، ورسول الله ، علّمه الله، فعلم النّبيّ ، من علم الله، وعلم عليّ من علم النّبيّ ،، وعلمي من علم عليّ عليه السلام، وما علمي وعلم أصحاب محمّد ، في علم عليّ إلا كقطرة في سبعة أبحر»[2].

ولهذا رأينا أنّ العلماء العارفين بالله، ورسوله، واليوم الآخر كلّما ازدادوا علماً ازدادوا تواضعاً، واستقلّوا ما عندهم من معرفة وازدادوا عطشاً لطلب العلم، وبعكسهم علماء المصطلحات والمفاهيم كلّما ازدادوا علماً بها ازدادوا شعوراً بالعظمة والكبرياء في أنفسهم كما تقدّم في حديث رسول الله ،: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلدُّنْيا...**».

فالعالم بالله كلّما أصاب باباً من أبواب العلم شعر أنّ هناك آلافاً من الأبواب لم يصل إليها؛ ولهذا لا يصاب بالغرور العلميّ، إنّما يزداد تصاغراً أمام العلماء، وتواضعاً للنّاس، وشوقاً للعمل بما علم؛ ولهذا تراهم يزدادون معرفةً؛ لأنّ «**مَنْ عَمِلَ بِما يَعْلَمُ، عَلَّمَهُ اللهُ ما لا يَعْلَمُ**»[3].

ولعلَّ السر في اغترار بعض النّاس بعلمهم أنّهم إضافةً لطلب العلم للدُّنيا

(١) يوسف: ٧٦.

(٢) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٩٢/١٠٥.

(٣) الدّيلمي، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٣٠١.

نسوا أنّ العلم في الإسلام للعمل، وأنّ العمل بالعلم هو أفضل دليل على عالميّة العالم، وأمّا الحامل للعلم غير العامل به، والذي شُبِّهَ في كتاب الله تعالى بالحمار الذي يحمل أسفاراً: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وفي آية أخرى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وبالتّالي فتارك العمل بما يعلم من أجهل الجاهلين، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إلا بِمَعْرِفَةٍ، ولا مَعْرِفَةً إلا بِعَمَلٍ، فَمَنْ عَرَفَ دَلَّتْهُ الْمَعْرِفَةُ على الْعَمَلِ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ، فَلا مَعْرِفَةَ لَهُ، أَلا إِنَّ الإيمانَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ**»[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام يحدّث عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال في كلام له: «**الْعُلَماءُ رَجُلانِ: رَجُلٌ عالِمٌ آخِذٌ بِعِلْمِهِ، فهذا ناجٍ، وَعالِمٌ تارِكٌ لِعِلْمِهِ، فَهذا هالِكٌ، وَإِنَّ أَهْلَ النّارِ لَيَتَأَذَّوْنَ مِنْ ريحِ الْعالِمِ التّارِكِ لِعِلْمِهِ، وَإِنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النّارِ نَدامَةً وَحَسْرَةً رَجُلٌ دَعا عَبْداً إلى الله، فَاسْتَجابَ لَهُ، وَقَبِلَ مِنْهُ، فَأَطاعَ اللهَ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَأَدْخَلَ الدّاعِيَ النّارَ بِتَرْكِهِ عِلْمَهُ، وَاتّباعِهِ الْهَوى، وَطولِ الأَمَلِ، أَمّا اتّباعُ الْهَوى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَطولُ الأَمَلِ يُنْسي الآخِرَةَ**»[4].

---

(١) الجمعة: ٥.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ١٠٧/١، ح/١٠٩.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٨/١، ح/١١١.

٢- غرور العبادة: وهنا شكل آخر من أشكال المغرورين الّذين يُسَمَّون عُبَّاداً، فهم يصرفون أعمارهم بعبادة من العبادات كالصّلاة، أو الصّوم، أو الحجّ، وتوهّموا أنَّ هذه العبادةَ فضيلةٌ لهم، وقد يصل بهم الوهم أن يمنّوا على الله تعالى بعبادتهم.

والسِّرُّ في غرورهم أنَّهم عرفوا أشكال العبادة، وجهلوا حقيقتها وجوهرها، ولم يدركوا أنَّ العبادة ليست كلمات يردّدونها، أو طقوس يؤدّونها، وإنّما هي: تسليمٌ، وانقيادٌ، وطاعةٌ، وامتثالٌ لأوامر الله، فحين يعرف الإنسان ربَّه، وخالقه يتنوّر قلبه بهذه المعرفة، فتنكشف عن قلبه ظلمات الوهم، وحجب الإنيّة والأنانيّة، فينجذب لله خاشعاً، خاضعاً، منيباً، مخبتاً، قانتاً، وكلّما ازداد عبادةً ازداد شعوراً بالتَّقصير أمام الله، وفي خلاف ذلك (الشّعور بالتّقصير) تكون عبادتهم كعبادة أصحاب الجباه السّود الّذين تنقدح الشُّبهة في قلوبهم لأدنى شبهة، وينقلبوا أعداءً لأولياء الله كما وقع للخوارج في موقفهم من إمام العابدين وسيّد العارفين عليّ عليه السلام.

ولهذا لا يمكن أن يغترّ بعبادته من كان عارفاً بحقيقتها، وأنَّها شكرٌ لله تعالى، وتلك عبادة الشّاكرين كما في الرّوايات، ومن هنا رأينا أكمل الخلق وسيّد العارفين والعابدين رسول الله ، يقول: «**ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ، وَما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ**»(١).

إذن الغرور بالعبادة هو الجهل بحقيقتها، وعدم معرفة المعبود، وإنَّ الله

(١) بحار الأنوار: ٢٣/٧١ .

تعالى «**لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصاهُ، وَلا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَطاعَهُ**»[١]، وإنما النّفع والضّرّ مرجعه إلى الإنسان نفسه.

٣- غرور السّلطان: للسّلطة، والحكم، والموقع السّياسيّ المتقدّم بريقٌ يجذب القلوب، ويسحر النّفوس؛ لشعور الحاكم بالتّفوّق والتّسلّط، وحاجة النّاس إليه؛ ولذا رأينا كم من صعلوك رفعته السّلطة في القلوب المريضة، وكم من مجرمٍ سفّاحٍ عُدَّ بطلاً، وانقادت له النّفوس، فصار يشعر بأنّه فوق مستوى أبناء جنسه، وربما جرَّه الغرور إلى ادّعاء الألوهيّة والرّبوبيّة كما في حالة فرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[٢].

فغرور السّلطان يأتي من الشّعور بالتّسلّط، والتّفوّق، والسّيطرة على الآخرين، وهؤلاء ينسون أنَّ انقياد النّاس لهم ليس لأشخاصهم، وإنّما لحاجة النّاس إلى ما في أيديهم من حطام الدُّنيا، فلو ارتفعت حاجة النّاس من ذلك لاستغنوا عنهم.

والسّلاطين والحكّام الّذين يغترّون بمناصبهم، وهم الأعمّ الأغلب من هذا الصّنف إنّما طلبوا السّلطان لحبّ الظّهور، والتّسلّط، وإبراز القوّة، لا لأجل إقامة عدل، أو ردّ باطل، وهؤلاء عادة يجهلون أنَّ قيمة السّلطة بما تحقّقه من عدلٍ، وقسط بين أبناء المجتمع، والعكس صحيح كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «دخلْتُ على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: **ما قيمَةُ هذا النَّعْلِ؟** فقلت: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: **وَاللهِ**

(١) نهج البلاغة: ٣٣٢، خطبة: ١٩٣.

(٢) النازعات: ٢٤.

لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلا أَنْ أُقيمَ حَقّاً، أَوْ أَدْفَعَ باطِلاً»[١].

وهنا يتّضح لنا الفرق بين من يتّخذ السّلطة وسيلةً للعلوّ، والاستعلاء، والسّيطرة؛ ليتزيّن بها، ويظهر شخصه، وقدراته، ويتحكّم بالنّاس، وبين من يحكم لينشر العدل، والقسط، ويرفع الظّلم عن المظلومين، ويأخذ الحق من الظّالم، ويردّه إلى أهله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الذَّليلُ عِنْدي عَزيزٌ حَتّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدي ضَعيفٌ حَتّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ**»[٢].

ويقول عليه السلام: «**وَأَيْمُ اللهِ، لأَبْقُرَنَّ الْباطِلَ حَتّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِن خاصِرَتِهِ**»[٣].

فمن طلب السّلطة لإقامة العدل لا يمكن أن يصيبه الغرور، والاستعلاء، وإنّما يزداد تواضعاً لله تعالى، وخوفاً منه، وحذراً من الوقوع في ظلم أحد كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلى الْبَلى قُفولُها، وَيَطولُ في الثَّرى حُلولُها**»[٤].

هذا هو الحاكم الّذي يُزَيِّنُ السُّلْطة، ولا تزيّنه كما وصف صعصعةُ بن صوحان أميرَ المؤمنين عليه السلام: «والله، يا أمير المؤمنين، لقد زيَّنْتَ الخلافة، وما زانتك، ورفعتها، وما رفعتك، ولهي إليك أحوج منك إليها»[٥].

والّذين يغترّون بالمواقع السّياسيّة والسّلطة بها ينسون أنَّها ظلٌّ زائلٌ لم تدم

(١) نهج البلاغة: ٩١، خطبة: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٩٧–٩٨، خطبة: ٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٩، خطبة: ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٧٣، خطبة: ٢٢٣.

(٥) تأريخ اليعقوبي: ١٧٩/٢.

لأحـــد، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[(١)].

ورحم الله شيخنا الأستاذ عبد الحسين آل خليفة قدس سره القائل:

وتـــذكّر هتلـــــراً	إن كنـت للعقبـى مبـال
شـحن الـدُّنيا بـلاء	مـن جنـوب لشـمال
ورمـى الشَّـرق بنـار	الغـرب فـي شـرّ وبـال
كـم حصـونٍ شـامخاتٍ	دونهـا شـمّ الجبـال
هـدَّها نسـفاً وقـد	حطّـم أعـلام الرّجـال
وعتـى ظلمـاً وبغيـاً	بـين قتـل واعتقـال
هـا أنـا أسـأل عنـه،	فأجـب حقّـاً سـؤالي
أين ولّى..؟ أبقعر البحر؟	أم خلـف الـتّلال؟
أم بغابـات تخفّـى	خوف بطش الاحتلال؟
أو رمـاداً مسـتحيلاً	صـار فـي نـار النّضـال؟
أم حـديثاً شـاع ذكـراً	مـن أقاصـيص الخيـال
كعجيـب وغريـب	وأبـي زيـد الهلالـي
هـذه عقبـى غـرور	هـام فـي طـيش الخبـال

٤- غرور المال: ومما يسبّب الغرور والعجب للإنسان كثرة ماله حين يستقطب مشاعره، ويسيطر على أحاسيسه، ويصبح قطب الرَّحى في حياته حتّى يدور مداره أينما دار، وهنا يصبح جمع المال، وتخزينه، وعدّه غايةً في وجوده،

---

(١) آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

فيصبح مملوكاً لماله، وليس بمالك له؛ لأنَّ وَهْمَهُ جَرَّهُ إلى أنَّ وجوده، وشرفه، واستمراريّته في الحياة بالمال، ولربّما توهّم خلوده بالمال، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾(1).

وكيف يخلّده المال؟! وهو يرى بأم عينه أنَّ مَن أكثر منه مالاً وولداً لم يخلدوا بل تركوا المال، ورحلوا مرغمين محمولين على أعواد إلى دار لا يخرجون منها، وهذا هو نتيجة الغرور والانخداع بالمال، وعدم التّأمّل في حياة الأمم، والشعوب، والملوك، والطغاة، وقد أشار القران إلى ذلك في آيات عديدة، يقول تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(2).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾(3).

وخير مثال على الإغترار بالمال ما في قصة قارون حيث آتاه الله من المال ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، ولم يتوقّف غروره عند حدود نفسه، بل امتدَّت فتنته إلى الآخرين، وتمنّوا لو حصلوا ما حصل، فكان من أمر ما كان، وهو درسٌ لمن تأمَّل به، له دلالته لتهذيب النّفوس، وتحصينها من الغرور، حتى

(1) الهمزة: ٢-٣.

(2) التّوبة: ٦٩.

(3) غافر: ٢١.

نَسِيَ نعم الله عليه، وجَرَّهُ وهمُهُ بأنَّ الَّذي حصل عليه كان من قدرته العلميّة، فحين وعظه قومه قائلين له: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، كان جوابه جواب المغرور المتغطرس الذي أعمى بصره بريق المال، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، ثم إنَّ القرآن يوضّح لنا سبب هذا الغرور والعجب، وهو نسيانه ما أصاب من قبله ممن هم أكثر أموالاً وأشدّ قوّة، ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1].

ومن الشّواهد الرّائعة على الغرور قصّة صاحب الجنّتين الّذي وقع في فخّ الغرور والعجب حتى تصوّر الخلود، والبقاء، أو الكرامة على الله في الآخرة لتمليكه في الدّنيا، يصوّر لنا القرآن الكريم تلك القضيّة: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾.

إلى هنا اكتملت الصّورة الجذّابة للعقول والقلوب بصورة مزرعتيه السّاحرتين، فغطّى الغرور نورانيّة العقل، وتاه في غروره، ﴿ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾.

ويدخُلُ جَنَّتَهُ، ويزداد انسحاره وانسحاقه أمام غرور المال، فيجرُّه وهمُهُ أنَّ ذلك لا يبيد، بل هو خالد، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ

---

(١) القصص: ٧٧–٧٨.

أَبَدًا ﴾.

ولم يتوقّف عند هذا الحدّ بل راح يتوهّم بأنّ لا شيء بعد هذا الخلود الوهميّ حتّى أنّه لا تقوم السّاعة، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾، وحتّى لو قامت السّاعة فهو كريم عند الله؛ لأنّه في الدنيا كريم بملكه، فيقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

تلك هي أبشع صور الغرور بالمال، وما يجرّ به مملوكه إلى تصوّرات وهميّة لا تتوقّف عند حدّ، ولا يستيقظ من استغراقه وانبهاره، ولا يتناقص غروره حتى تأتيه صعقة ربانيّة ترجعه إلى رشده كما في حالة هذا المغرور: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[1].

هذه بعض صور الاغترار، وغيرها كثير، نكتفي بذلك، لئلا نخرج عن المنهج المرسوم في هذه المختصرات.

(١) الكهف: ٣٢-٤٣.

(البَحْثُ السّابِعُ)

الرِّياءُ

سُئِلَ الإمام الصّادق عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[1]، فقال عليه السلام: «**الرَّجُلُ يَعْمَلُ شَيْئاً مِنَ الثَّوابِ لا يَطْلُبُ بِهِ وَجْهَ الله، إِنَّما يَطْلُبُ تَزْكِيَةَ النّاسِ، يَشْتَهي أَنْ يُسْمِعَ بِهِ النّاسَ، فَهذا الّذي أَشْرَكَ بِعِبادَةِ رَبِّهِ**»، ثمّ قال: «**ما مِنْ عَبْدٍ أَسَرَّ خَيْراً، فَذَهَبَتِ الأَيّامُ أَبَداً حَتّى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ خَيْراً، وَما مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ شَرّاً، فَذَهَبَتِ الأَيّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ شَرّاً**»[2].

قيمة العمل في الإسلام بما يحمل العامل من دوافع صالحة بعيدة عن الذّاتيّة، والأنانيّة، والمصالح الخاصّة، ولذا أشدّ ما تواجه البشريّة من صعوبات هي التّضارب بين المصالح الذاتيّة الخاصّة، وبين المصالح الاجتماعيّة العامّة، وهذا نابعٌ من غريزة حبّ الذّات الّتي تحاول أن تستقطب كلّ شيء لصالحها؛ فحبُّ الذّات أعمق، وأعرق غريزة في النَّفس، ومنها تنبعث غريزة حبّ الظّهور، وهي الّتي تدفع الإنسان إلى حبّ الرّئاسة، والتّميّز على الأقران، والتّفوّق في كلّ ميدان؛ فهي تحاول إشباع نهمها في الظّهور، فتحرص على سماع الحمد،

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٧١٩/٣، ح/٢٤٩٠.

والمدح، والثّناء على ما تعمل، وما تمتلك من ملكات خيّرة، أو أموال وفيرة، أو علم، أو عبادة، أو ما إلى ذلك من الشّؤون الإنسانيّة؛ لأجل إلفات نظر الآخرين، وكسب قلوبهم؛ لجعلها وسيلةً لنيل الجاه الواسع، أو المال الوفير، أو السّلطة القويّة بالتّظاهر بالكمال في وجه من الوجوه؛ لاستمالة القلوب إليها؛ لأنَّ (القلوب إنّما تتسخّر بالحبّ، ولا تحبّ إلا باعتقاد الكمال؛ فإنَّ كلّ كمال محبوب)[1].

لماذا يُحِبُّ الإِنْسانُ الْمَدْحَ:

ذكر علماء الأخلاق عدّة أسباب لحبّ الإنسان للمدح، وهذا الحبُّ أيضاً نابعٌ من حبّ الظّهور الّذي هو فرع حبّ الذّات، فسبب حبّ المدح إذن:

١- إنَّ المدحَ إشعارٌ للنّفس بالكمال، والكمال محبوبٌ لذاته.

٢- إنَّ المدحَ يوحي للممدوح أنَّه قد امتلك قلب المادح، وسخَّره إليه؛ لاعتقاده بكماله فيُسَخّر لمشيئته.

٣- قد يكون ثناء المثني، ومدح المادح يؤدي إلى جذب قلوب الآخرين، ويرفع منزلته الاجتماعيّة.

٤- وقد يكون سبب الارتياح للمدح؛ لأنَّ فيه لذّة الاستيلاء، والسّيطرة على القلوب.

ولكن لو رجع الإنسان إلى عقله، وحَكَّمَهُ في مشاعره، وغرائزه لوجد أنَّ ذلك كلّه من توقان النَّفس إلى إشباع غريزة حبّ الظّهور؛ فالتّظاهرُ بالكمال مع

(١) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ١٢٠/٦ .

فقدِهِ حقيقةً - وهو يعلم ذلك في نفسه- دلالةٌ على نقصان العقل، وإلا فهل يصدّق عاقل لو مُدِحَ لوجود جوهرةٍ ثمينةٍ في جيبه، أو يده، وهو يعلم ليس في جيبه شيءٌ، أو في يده فحمة.

ولهذا ورد عن روح الله عيسى عليه السلام: «**بحَقّ أَقولُ لَكُمْ: إنّ أَحَدَكُمْ لَيَغْضَبُ إذا ذُكِرَ لَهُ بَعْضُ عُيوبِهِ وَهِيَ حَقٌّ، وَيَفْرَحُ إِذا مُدِحَ بِما لَيْسَ فيهِ**»[(١)].

ولذا يتعجّب حكماء البشر لفرح الإنسان إذا امتدح لشيء ليس فيه، أو يغضب إذا ذمّ لشيء فيه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَجِبْتُ لِمَنْ يوصَفُ بِالْخَيْرِ الَّذي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فيهِ كَيْفَ يَرْضى**»[(٢)].

وأما السَّبب الثّاني فهو أوهى من الأول، فليس من المعلوم أنَّ المادح إنّما مدح لإحساسه بكمال الممدوح، أو أنَّه مسخّر له، وإنّما قد يجوز أنَّ المدح كان لتملّق أو لتحقيق مصلحة، أو ما إلى ذلك.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّها النّاسُ، اعْلَموا أَنَّهُ لَيْسَ بعاقِلٍ مَنِ انْزَعَجَ مِنْ قَوْلِ الزّورِ فيهِ، وَلا بحَكيمٍ مَنْ رَضِيَ بثَناءِ الْجاهِلِ عَلَيْهِ**»[(٣)].

وعنه عليه السلام: «**إنَّ مادِحَكَ لَخادِعٌ لِعَقْلِكَ، غاشٌّ لَكَ في نَفْسِكَ بكاذِبِ الإطْراءِ وَزورِ الثَّناءِ، فَإِنْ حَرَمْتَهُ نَوالَكَ، أَوْ مَنَعْتَهُ إِفْضالَكَ، وَسَمَكَ بِكُلِّ فَضيحَةٍ، وَنَسَبَكَ إِلى كُلِّ قَبيحَةٍ**»[(٤)].

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٣٨٨.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤، ح/٤٦٩٣.

(٣) الكافي: ١/١٢٥، ح/١٤١.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٦، ح/١٠٧٢٨.

والثّالث: قد يثير المدح السّخريّة، ولا يجذب الآخرين بل يثير امتعاضهم؛ لأنَّ الجمال والكمال الّذي يجذب القلوب هو الكمال الذّاتيّ، وليس بالوساطة، أو الدّعوة إليه، وقد يكون المدح سخريّة بالممدوح لأجل الانتقاص منه؛ لأنَّ مدح الإنسان بما ليس فيه استهزاء وسخرية به، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ مَدَحَكَ بِما لَيْسَ فيكَ فَهُوَ ذَمٌّ لَكَ إِنْ عَقَلْتَ**».

«**مادِحُ الرَّجُلِ بما لَيْسَ فيهِ مُسْتَهْزِئٌ بهِ**».

«**مادِحُكَ بما لَيْسَ فيكَ مُسْتَهْزِئٌ بِكَ، فَإِنْ لَمْ تُسْعِفْهُ بِنَوالِكَ بالَغَ في ذَمِّكَ وَهِجائِكَ**»[1].

أمّا لذّة الشّعور بالمدح فهي لذّة وهمية لا تدوم إلا دقائق، وتزول وتنتهي إلى الأبد.

وعلى كلّ حال حبّ المدح، وحبّ الجاه النّابع من غريزة حبّ الظّهور قد يدفع الإنسان إلى الرّياء؛ لإشباع غرائزه.

والرّياء من الأمراض المهلكة لدين الإنسان، وربّما دنياه، فما هو الرّياء؟

الرّياء: هو محاولة الظهور والبروز في مَعْلَم من معالم الكمال؛ كالعلم الغزير، والعمل الصّالح، أو الاعتقاد السّليم، أو الخُلق القويم، أو الصّفات الحميدة، أو المال الوفير، أو النّسب الرّفيع أمام النّاس؛ لأجل نيل منزلة رفيعة في قلوبهم، والاشتهار بينهم بتلك المعالم المحبوبة بدون نيّة إلهيّة صحيحة، وإنّما لأغراض دنيويّة لإشباع الغرائز النّفسيّة.

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٧، ح/١٠٧٤١-١٠٧٤٢-١٠٧٤٣.

المَجالاتُ الّتي يُرائي بِها الإِنْسانُ:

يمكن تقسيم الأمور الّتي يرائي بها الإنسان على مجالات دنيويّة ومجالات أخرويّة، فأهل الدّنيا يراؤون بخمسة أشياء: البدن، والزَيّ، والقول، والعمل، والأتباع، (إلا أنَّ طلبَ الجاه، وقصدَ الرّياء بأعمال ليست من جملة الطّاعات أهون من الرّياء بالطّاعات)[1].

والمتظاهرون بالتّديّن يراؤون: بالعبادة، والخوف، والخشية من الله، وكثرة الذّكر، والدّعاء، والتّخشّع، كما يتظاهرون بالتّخاضع، وطأطأة الرّؤوس، وطول اللّحية، وربما كبر العمامة، وغزارة العلم... والنّتيجة يتظاهرون ويراؤون بكلّ ما يوحي للآخرين أنَّهم من الأتقياء، والصّالحين، والواعين، والورعين، والمُجِدّين في خدمة عباد الله تعالى، ولكن في الواقع أنَّهم فارغون من ذلك أجمع، وسبب هذا الرّياء هو ضعف الإيمان بالله تعالى، إن لم يكن انعدامه، فمن كان يعبد الله تعالى الّذي بيده كلّ شيء، متفرّغاً له، فما حاجته بقلوب الآخرين؟! مع أنَّ قلوب الآخرين بيده تعالى، يوجّهها لعباده الّذين أخلصوا الطّاعة له.

وأما أساليب الرِّياء فتأخذ أشكالاً مختلفة: فمرّة يتحدّث المرائي عن علاقته بالعلماء الكبار، والعباد المشهورين، ويذكر مدى احترامه لهم، واحترامهم له، وقربه منهم؛ ومرّة يتحدث عن المستوى العلمي، والبحث الفكري للعالم والمفكّر فلان، ونقاشه معه، وإشكاله عليه، وإقناعه برأيه، وهو يعتقد أنَّ ذلك يقدّم به خدمة للإسلام، وهو في الواقع يريد أن يثبت جدارته العلميّة، ومنزلته العلمائيّة؛ ليثبت له منزلة في قلوب المخاطبين؛ ومرّة يتحدّث عن درسه،

---

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٢/٢٦٦.

وتدريسه، وكثرة طلابه، وحضور أهل الفضل في حلقة درسه، وتارة يرائي بآرائه العلميّة، وأنّ رأيه في المسألة الفلانيّة كذا مقابل رأي المجتهد الفلاني.

ومن أساليب الرِّياء التّظاهر بكثرة العبادة كقيام اللَّيل، وأداء النّوافل والسّهر في تلاوة القرآن، وعدد ختمات القرآن، ويتحدث عن برنامجه العباديّ من صلاة، وصيام، ودعاء، وأوراد مخصوصة، ولو بصورة غير مباشرة كأن يقول: ينبغي أن نذكر الله في كذا موقف وكذا حالة، وهي نافعة بالتَّجربة كما جرّبنا ذلك؛ ليشير بأنَّه قد قام بذلك، وهذه الحالة هي من تسويلات النَّفس وطرقها الملتوية الّتي يقع فيها الإنسان غالباً، ولا ينجو منها إلا ذوو الفطنة والمراقبة الدقيقة.

أَسْبابُ الرِّياءِ:

بغضّ النّظر عن جميع أسباب الرّياء من حبّ الشّهرة، وطلب السّمعة الطّيّبة بين النّاس، وحبّ انتشار صيت الحمد والمدح، فإنَّ السَّبب الأساسيّ في الرّياء هو **ضعف الإيمان بالله تعالى**، فإنَّ كلّ أنواع الرّياء سواء كان في الأمور الدّينيّة، أو الدّنيويّة راجعٌ إلى عدم رسوخ الإيمان بالله تعالى، فلو كان الإنسان موقناً بأنَّ الرِّفعة والسّموّ الإنساني بيد الله تعالى دون سواه، وأنَّ الله هو الرّافع الخافض، وأنَّ من يرفعه الله لا يستطيع أحد أن يضعه، أقول: لو أيقن الإنسان بذلك، فهل يطلب الرّفعة من أحد؟ ولو اعتقد أنَّ الله هو الّذي ينشر الذّكر الطّيّب له بين النّاس، ويُقبل بقلوبهم عليه، فهل يطلب لنفسه ذلك من غير الله، ويضع لها النّياشين والعناوين، حتى لو كانت فارغة المحتوى، ومن هنا أكَّدت الرّوايات الشَّريفة أنَّ الإنسانَ المخلص الّذي يعمل الصّالحات، ويخفيها فلا بدّ وأن يظهرها

الله للنّاس، ويُعْلي ذكره فيها مهما حاول إخفاءها؛ فعن أبي بصير، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **ما مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ خَيْراً إلا لَمْ تَذْهَبِ الأَيّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ خَيْراً، وَما مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ شَرّاً إلا لَمْ تَذْهَبِ الأَيّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ شَرّاً**»(١).

عِلاجُ الرِّياءِ:

في علاج الأمراض النّفسيّة لا بدّ للإنسان أن يعلم بها، ويعترف بها، ومشكلة الرّياء أنّ الإنسانَ قد يرائي، ولكن يعتقد أنّه قد أخلص في عمله، وأنّه يريد به وجه الله تعالى، فدهاليز النّفس كثيرة، ومتعرّجة، ومخفيّة؛ ولذا مُثّل الشّرك في السّنّة الشّريفة بمثال في منتهى الدّقة حيث جاء المثال من الخفاء بدرجة لا يحسّها إلا الّذين بَصَّرَهم الله بعيوبهم؛ فعن أبي هاشم الجعفريّ، قال: «سَمِعت أبا محمّد عليه السلام يقول: **مِنَ الذُّنوبِ الّتي لا تُغْفَرُ قَوْلُ الرَّجُلِ: لَيْتَني لَمْ أؤاخَذْ إلا بِهذا**، فَقَلْتُ في نَفْسي: إنَّ هذا لهو الدقيق، وقد ينبغي للرّجل أن يتفقّد من أمره، ومن نفسه كلّ شيء، فأقبل عليَّ أبو محمّد، فقال: **صَدَقْتَ يا أَبا هاشِمٍ، فَالْزَمْ ما حَدَّثَتْكَ بِهِ نَفْسُكَ؛ فَإِنَّ الإشْراكَ في النّاسِ أَخْفى مِنْ دَبيبِ الذَّرِّ عَلى الصَّفا في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ، أَوْ مِنْ دَبيبِ الذَّرِّ عَلى الْمَسْحِ الأَسْوَدَ**»(٢).

ولدقّة أمر الرّياء فإنّ العلاج يحتاج إلى أن ينتبه الإنسان إلى تصوّراته، ودوافعه، وآرائه، وأهدافه، وأعماله بدقّة متناهية، ويضعها في ميزان الشّرع؛

---

(١) الكافي: ٧٢٣/٣، ح/٢٤٩٨.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٤٧٢/٤.

ليمحّصها، ويغربلها، ويميّز ما كان منها لله، وما كان منها لأهواء نفسه ورغباتها، ويدرس خواطره الّتي تتوارد أثناء العمل؛ ليستطيع أن يميّز بين العمل الّذي يقوم به لله، وبين العمل الّذي يريد به جلب أنظار النّاس، وكسب قلوبهم؛ فإذا استطاع أن يميّز بين دوافعه وخواطره، ويشخّص الصّالح منها عن الفاسد استطاع أن يعالج ما يحتمل أنّه من الرّياء فضلاً عن الرّياء الحقيقيّ.

بَيانُ مَخاطِرِ الرِّياءِ في حَياةِ الإنْسانِ:

لقد جاءت النّصوص المقدّسة قرآناً وسنّة مبيّنة خطورة هذا المسلك السقيم في حياة الإنسان، حيث يُخْسِرُه عمله في الدُّنيا وفي الآخرة، يقول تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾[1].

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[2].

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[4].

---

(١) الماعون: ٤-٧.

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) النّساء: ١٤٢.

(٤) البقرة: ٢٦٤.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[(١)].

هذا ما بيّنه الكتاب الكريم، وأمّا الأحاديث الشّريفة فهي أكثر من أن تعدّ، نذكر منها:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال لعَبّاد بن كثيرٍ البصريّ في المسجد: «**وَيْلَكَ يا عَبّادُ، إيّاكَ وَالرِّياءَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ الله وَكَلَهُ اللهُ إلى مَنْ عَمِلَ لَهُ**»[(٢)].

٢- عن عليّ بن عقبة، عن أبيه، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **اجْعَلوا أَمْرَكُمْ هذا لله، وَلا تَجْعَلوهُ لِلنّاسِ، فَإِنَّهُ ما كانَ لله فَهُوَ لله، وَما كانَ لِلنّاسِ فَلا يَصْعَدُ إلى الله**»[(٣)].

٣- قال أبو عبد الله عليه السلام: «**كُلُّ رِياءٍ شِرْكٌ، إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنّاسِ كانَ ثَوابُهُ عَلى النّاسِ، وَمَنْ عَمِلَ لله كانَ ثَوابُهُ عَلى الله**»[(٤)].

٤- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: إنَّ الْمَلَكَ لَيَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ، فَإِذا صَعِدَ بِحَسَناتِهِ يَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اجْعَلوها في سِجّينٍ، إنَّهُ لَيْسَ إيّايَ أَرادَ بِها**»[(٥)].

---

(١) النّساء: ٣٨.

(٢) الكافي: ٧١٨/٣، ح/٢٤٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ح/٢٤٨٨.

(٤) المصدر نفسه: ح/٢٤٨٩.

(٥) المصدر نفسه: ٧٢١/٣، ح/٢٤٩٣.

٥- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**مَنْ أَرادَ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْقَليلِ مِنْ عَمَلِهِ، أَظْهَرَ اللهُ لَهُ أَكْثَرَ مِمّا أَرادَ، وَمَنْ أَرادَ النّاسَ بِالْكَثيرِ مِنْ عَمَلِهِ في تَعَبٍ مِنْ بَدَنِهِ، وَسَهَرٍ مِنْ لَيْلِهِ، أَبى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلا أَنْ يُقَلِّلَهُ في عَيْنِ مَنْ سَمِعَهُ**»[1].

٦- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: سَيَأْتي عَلى النّاسِ زَمانٌ تَخْبُثُ فيهِ سَرائِرُهُمْ، وَتَحْسُنُ فيهِ عَلانِيَتُهُمْ، طَمَعاً في الدُّنْيا، لا يُريدونَ بِهِ ما عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَكونُ دينُهُمْ رِياءً، لا يُخالِطُهُمْ خَوْفٌ، يَعُمُّهُمُ اللهُ بِعِقابٍ، فَيَدْعونَهُ دُعاءَ الْغَريقِ، فَلا يَسْتَجيبُ لَهُمْ**»[2].

٧- عن عليّ بن أسباط، عن بعض أصحابه، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**الإِبْقاءُ عَلى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ**»، قال: وما الإبقاءُ على العمل؟ قال: «**يَصِلُ الرَّجُلُ بِصِلَةٍ، وَيُنْفِقُ نَفَقَةً للهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، فَكُتِبَ لَهُ سِرّاً، ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُمْحى، فَتُكْتَبُ لَهُ عَلانِيَةً، ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُمْحى، وَتُكْتَبُ لَهُ رِياءً**»[3].

٨- وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**تَعَوَّذوا بِاللهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ**»، فسُئل: «يا رسولَ الله، وما جُبُّ الحزن؟»، قال: «**وادٍ في جَهَنَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعْمائَةِ مَرَّةً**»، قالوا: «يا رسول الله، ومن يدخله؟»، قال: «**أُعِدَّ لِلْقُرّاءِ الْمُرائينَ بِأَعْمالِهِمْ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الْقُرّاءِ إِلى اللهِ الَّذينَ يَزورونَ الأُمَراءَ**»[4].

---

(١) الكافي: ٧٢٣/٣-٧٢٤، ح/٢٤٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ٧٢٤/٣، ح/٢٥٠٠.

(٣) المصدر نفسه: ٧٢٥/٣، ح/٢٥٠٢.

(٤) سنن ابن ماجة: ٩٤/١، ح/٢٥٦.

٩- رُوِيَ عن النّبي صلى الله عليه وآله، أنَّه قال: «**قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنا أَغْنى الشُّرَكاء عَنِ الشّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لي عَمَلاً أَشْرَكَ فيهِ غَيْري، فَأَنا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلّذي أَشْرَكَ**»(١).

١٠- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ الشّرْكُ الأَصْغَرُ**»، قالوا: «وما الشّرك الأصغر يا رسول الله؟»، قال: «**الرِّياءُ، يَقولُ اللهُ تَعالى إذا جازى الْعِبادَ بأَعْمالِهِمْ: اذْهَبوا إلى الّذينَ كُنْتُمْ تُراؤونَهُمْ في الدُّنْيا، فَاطْلُبوا جَزاءَكُمْ مِنْهُمْ**»(٢).

١١- قال شداد بن أوس: «رأيتُ النَّبيّ صلى الله عليه وآله يبكي، فقلتُ: يا رسولَ الله، ما يُبكيك؟ قال: **إنّي تَخَوَّفْتُ عَلى أُمَّتي الشّرْكَ، أَما إنَّهُمْ لا يَعْبُدونَ صَنَماً، وَلا شَمْساً، وَلا قَمَراً، وَلا حَجَراً، وَلكِنَّهُمْ يُراؤونَ بِأَعْمالِهِمْ**»(٣).

١٢- عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام، قال: «**إنَّ رَسولَ اللهِ** صلى الله عليه وآله **سُئِلَ فيما النّجاةُ غداً، فَقال: إنَّما النَّجاةُ في أَلا تُخادِعوا اللهَ، فَيَخْدَعَكُمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُخادِعِ اللهَ يَخْدَعْهُ، وَيَخْلَعْ مِنْهُ الإيمانَ، وَنَفْسَهُ يَخْدَعُ لَوْ يَشْعُرُ! فَقيلَ لَهُ: فَكَيْفَ يُخادِعُ اللهَ؟ فَقالَ: يَعْمَلُ بما أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، ثُمَّ يُريدُ بِهِ غَيْرَهُ، فاتَّقوا الرّياءَ؛ فَإِنَّهُ شِرْكٌ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إنَّ الْمُرائي يُدْعى يَوْمَ الْقِيامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْماءَ: يا كافِرُ، يا فاجِرُ، يا غادِرُ، يا خاسِرُ، حَبِطَ عَمَلُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ، وَلا خَلاقَ لَكَ الْيَوْمَ فَالْتَمِسْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ**»(٤).

---

(١) المصدر نفسه: ١٤٠٥/٢، ح/٤٢٠٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧٩/٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣٤١.

(البَحْثُ الثّامِنُ)

الْحِقْدُ

الحقد لغة: «الانطواءُ على العداوة والبغضاء... والجمع أحقاد»[1].

وقال ابن منظور: «الحِقْدُ: إمساك العداوة في القلب، والتّربّص لفرصتها، والحِقْدُ: الضَّغْن، والجمع أحقاد وحُقود»[2].

واصطلاحاً: الحقد حالة نفسيّة يضمر فيها العداء، ويختزن فيها الشّحناء، ويتربّص الفرص للوقيعة بالمحقود عليه، وتبقى تلك الحالة مختزنة في طوايا النّفس تتفاعل مع الأحاسيس والمشاعر، وتخلق حالة توتّر داخليّ، يولد القلق والاضطراب، ويسلب حاملها الرّاحة والهناء، كأنَّ لهيباً يستعر في قلبه يفتّش عن منفذ؛ ليخرج منه، حتى إذا وجده تفجّر بركاناً مدمّراً...

وبعبارة أوضح: إنَّ الحقد بمثابة (لغم) مدفون تحت التّراب فإذا ما لاقى ضغطاً انفجر فدمَّر من مسّه وأحرق نفسه، أو كـ(برميل) بارود إذا مسَّته قَدْحَةُ نارٍ تفجّر، فأحرق واحترق...

وإذا أردنا أن نعرف بدقّة حقيقة الحقد لا بدّ وأن نرجع إلى خبراء النّفس البشريّة لنسمع ما يقولون؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام في كلمات عدّة يذم فيها الحقد بل الحقود:

---

(١) الفيّومي، المصباح المنير: ١٤٣، باب (الحقد).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ١٥٤/٣، باب (حقد).

«الْحِقْدُ أَلأَمُ (لامُ) الْعُيوبِ».

«الْحِقْدُ خُلُقٌ دَنيٌّ، وَمَرَضٌ (عَرَضٌ) مُرْدٍ».

«الِحْقدُ نارٌ لا تُطْفَئُ إلا بِالظَّفَرِ، (كامِنَةٌ لا يُطفِئُها إلا مَوْتٌ، أَوْ ظَفَرٌ)».

«رَأْسُ الْعُيوبِ الْحِقْدُ».

«شَرُّ ما سَكَنَ الْقَلْبَ الْحِقْدُ»(١).

ومن هذه الأحاديث يتبيّن لنا خطورة هذا المرض، فهو موبئ، أي معدٍ، هو مردٍ أي مهلك؛ لأنَّه يردي حامله في المهالك، ويسقطه في قعر سحيق لا يقوم منه، وهو قذارة تسلب الإنسان الرّاحة، والسّعادة، والهناء... ثم إنَّه عيب فاضح، بل هو رأس العيوب؛ لأنَّه أقبح «**طَبائِعِ الأَشْرارِ**»(٢)؛ لأنَّه يغلق القلب عن الله تعالى، وعن النّاس، ويجعله قاسياً، فظّاً، غليظاً، خالياً من الرَّحمة، أشدّ قسوة من الحجارة، وإنَّ من الحجارة لتتفجّر الأنهار، وقلب الحاقد يتفجّر منه الغيض، والغضب، والانتقام، بل الشّرّ بكلّ ألوانه.

أَسْبابُ الْحِقْدِ:

يولد الإنسان على الفطرة، أي إنَّ قلبه نقيٌّ طاهرٌ من الأوضار كالأرض الخالية من الأشواك والأملاح تنتظر من يبذر فيها ويسقيها، لتخرج حَبّاً، ونباتاً، وأزهاراً، وأثماراً؛ فالتّربية الصحيحة هي الّتي تبذر الحُبّ، والرّأفة، والرّحمة، والأخوّة؛ لتجعل القلب منبعاً للخير شفّافاً رقيقاً؛ والعكس صحيح، فإنَّ الإنسان إذا نشأ على سوء الظّنّ بالآخرين، وتعمّقت في نفسه الأنانيّة، والإثرة، وعاش الخوف

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٩، ح/٦٧٦٣-٦٧٦٤-٦٧٦٦-٦٧٧٠-٦٧٧٢ .

(٢) المصدر نفسه: ح/٦٧٦٧ .

والقلق، والاضطراب العائلي فإنَّه ينشأ سيّئ الظّنّ، وسوء الظّنّ يورث الحقد على الآخرين؛ لأنَّه يغرس الشَّكَّ في كلّ أحد، فلا يدع للإنسان فرصةً يتوقّع فيها الخير من أحد.

ومن أسباب الحقد أيضاً معاشرة الحاقدين ومجالستهم؛ فإنَّها تُسَرِّب إلى النَّفس روح الشَّك والرَّيب في الآخرين من حيث يشعر المرء، أو لا يشعر، فإنَّ الطِّباع الشّرّيرة تعدي، ويمتد وباؤها إلى النّفوس، ويتأثّر بها الإنسان من حيث يريد أو لا يريد.

ثم إنَّ هناك ترابطاً بين الحسد والحقد، فإنْ حَسَدَ الإنسانُ أحداً تمنى زوال ما في يده من خير، ومعلوم أنَّ الحسد لا يُزيل ذلك الخير، بل يبقى، فحينئذٍ يشتدّ حقده على المحسود بلا ذنب جناه... وأكبر أسباب الحقد ورأسها هي الأنانيّة وحبّ الذّات الّذي يحبس الإنسان في قوقعة النَّفس الأمّارة بالسّوء، فتصبح قطب الرّحى في حياته، يدور حيثما تدور، وهكذا تستحوذ عليه حتى تقطعه عن كلّ أحد، وهذا أشدّ ما يركز الحقد في النّفس.

آثارُ الحِقْدِ:

للحقد آثارٌ خطيرةٌ مدمّرة لحياة الإنسان، نذكر منها:

١- يسلب الإنسان راحته وسعادته؛ وذلك لأنَّ الحقد يُوَلِّد القلق والاضطراب والتّوتّر الدّاخليّ، ويجعل الإنسان في عذاب دائم لا يتوقّف حتّى يأكل روحه وبدنه، يقول سيّد العارفين عليٌّ عليه السلام: «**الْحَقُودُ مُعَذَّبُ النَّفْسِ مُتَضاعِفُ الْهَمِّ**» و«**الحَقودُ لا راحَةَ لَهُ**»[1].

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٩، ح/٦٧٧٨-٦٧٧٧.

ورُوِيَ أنَّه مكتوب على باب الجنّـة: «**لا إلهَ إلا اللهُ، مُحَمَّـدٌ رَسـولُ اللهِ، عَلِيٌّ وَلِيُّ اللهِ، لِكُلِّ شَيْءٍ حيلَةٌ، وَحيلَةُ الْعَيْشِ أَرْبَعُ خِصالٍ: الْقَناعَةُ، وَبَـذْلُ الْحَقِّ، وَتَرْكُ الْحِقْدِ، وَمُجالَسَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ**»(١).

٢- يفقد الإنسـان حالـة التّـوازن الرّوحـي، والأخلاقـيّ، والاجتمـاعيّ؛ لأنَّ قلب الحقود مقيّد بأغلال العداوة والبغضاء، فهو ينظر دائماً إلى النّاس من جانبهم السّلبي، فلا يكاد يبصر حسنةً لأحد، يقول أمير المـؤمنين عليه السلام: «**أَشَـدُّ الْقُلـوبِ غِلاً قَلْبُ الْحَقودِ**»، و«**لا مَوَدَّةَ لِحَقودٍ**»(٢).

٣- قلنا: إنَّ الحقد نارٌ تكمن في قلب الإنسـان، وتبقـى مسـتعرةً فـي داخلـه إلى أن تحوّله إلـى رمـاد، ولا تضـرّ المحقـود عليـه إلا إذا انفجـرت، يقـول أميـر المـؤمنين عليه السلام: «**الحِقْدُ نارٌ لا تُطْفَئ إلا بِالظَّفَرِ، (كامِنَةٌ لا يُطفِئُها إلا مَـوْتٌ، أَوْ ظَفَرٌ)**»(٣).

٤- إنَّ الحقد من أهم مناشئ التّشتّت والتّمزّق الاجتماعي؛ لأنَّه يمنـع روح الوفـاق، والوئـام، والمحبّـة، ويخلـق الفـتن والمحـن، يقـول أميـر المـؤمنين عليه السلام: «**سَبَبُ الْفِتَنِ الْحِقْدُ**»، و«**الْحِقْدُ مَثار الْغَضَبِ**»(٤).

٥- إنَّ الحاقد قد ينفّس عن نفسه عنـدما تسـنح لـه الفرصـة بالانتقـام ممّـن يحقد عليه، إلا أنَّه قد ينقلب هذا الانتقـام إلـى حالـة نـدم يحـرّك ضـمير حاملـه، ويؤدّي به إلى الهلاك، كما وقع للحجّاج الثّقفي في ذلك؛ فقد روى الطّبـري: إنّ

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ١٤٤/٨.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٩، ح/٦٧٦٩-٦٧٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ح/٦٧٦٦.

(٤) المصدر نفسه: ح/٦٧٨١-٦٧٧٦.

الحجّاج حين ضُرِبَت عنق سعيد بن جبير بأمره «التبس مكانه، فجعل يقول: قيودُنا قُيودُنا، فظنّوا أنَّه قال: القيود الّتي على سعيد بن جُبَير، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه، وأخذوا القيود»، ثمّ قال الطّبريّ: «فلم يلبث بعده إلا نحواً من أربعين يوماً، فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه، فيقول: يا عدوَّ الله، لِمَ قَتَلْتَني؟ فيقول: ما لي ولسعيد بن جُبَير! مالي ولسعيد بن جُبَير!»[(١)].

وقيل: «إنَّ الحجّاج لمّا حضرته الوفاة كان يغوص ثمّ يفيق، ويقول: ما لي ولسعيد بن جُبير؟!»[(٢)].

وقيل: «إنّه رُؤِيَ الحجّاج في النّوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكلّ قتيل قتلتُه قتلةً، وقتلني بسعيد بن جُبَير سبعين قتلةً»[(٣)].

٦- إنَّ الحقد من أهم المهلكات للإنسان في الدُّنيا والآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثَلاثٌ لا يَهْنَأ لِصاحِبِهِنَّ عَيْشٌ: الْحِقْدُ، وَالْحَسَدُ، وَسوءُ الْخُلُقِ**»[(٤)]، ولا أعرف أمراً يهلك الإنسان ويفتّت دينه، بل يحرمه لذّة العيش كالحقد؛ لأنَّه هو الّذي يدفع الإنسان إلى ارتكاب مختلف المحرّمات الشّرعية، والمخالفات الأخلاقيّة؛ فالكذب، والغيبة، والبهتان، وهتك السّتر، والشّماتة كلّها من نتائج الحقد...

٧- وأخطر من ذلك كلّه أنَّ الحقد يحرم الإنسان من رحمة الله، وغفرانه، وليس هناك من أثر خطير أعظم من هذا، والسّرّ في حرمانه من رحمة الله أنَّ

---

(١) تاريخ الطّبري: ٦/٤٩٠-٤٩١.

(٢) ابن خلّكان، وفيات الأعيان: ٢/٣٧٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٩، ح/٦٧٧٩.

الظّرف النّفسيّ للحاقد كثيف بالرّين، مغلق لا يقبل نور الله تعالى، وفيوضاته؛ فهو كالأرض السّبخة الّتي لا يزيدها الماء العذب إلا عفونة وخشونة؛ فقد روي في كنز العمال للمتّقي الهندي عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «**إِنَّ اللهَ تَعالى يَطَّلِعُ عَلى عِبادِهِ في لَيْلَةِ النّصْفِ مِنْ شَعْبان، فَيَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرينَ، وَيَرْحَمُ الْمُسْتَرْحِمينَ، وَيُؤَخِّرُ أَهْلَ الْحِقْدِ كَما هُمْ عَلَيْهِ**».

وفي رواية أخرى: «**وَيَدَعُ أَهْلَ الْحِقْدِ بِحِقْدِهِمْ حَتَّى يَدْعوهُ**».

وفي ثالثة: «**تُعْرَضُ أَعْمالُ بَني آدَمَ كُلَّ يَوْمِ اثْنَيْنِ وَخَميس، فَيَرْحَمُ الْمُتَرَحِّمينَ، وَيَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرينَ، ثُمَّ يَذَرَ أَهْلَ الْحِقْدِ بِحِقْدِهِمْ**»[1].

الْفَرْقُ بَيْنَ الْحِقْدِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ:

كلٌّ من الحالتين فيها إضمار لغيظ، إلا أنَّ الفرق هو:

إنَّ الحاقد يريد أن يشفي غيظه بالانتقام من خصمه إلا أنَّه غير قادرٌ على التّنفيس عن نفسه بالانتقام منه.

أمّا كاظم الغيظ فهو قد يكون قادراً على الانتقام، أو الرّدّ إلا أنَّه يترك ذلك قربة إلى الله تعالى، ورجاءً ثوابه.

وشتّان ما بين الاثنين، فالأول كظمه لنفسه، والثاني كظمه لله.

خَصائِصُ الْحاقِدِ:

ذكر صاحب كتاب (الشّخصيّة النّاجحة) يوسف ميخائيل أسعد

---

(١) المتّقي الهندي، كنز العمال: ٣/٤٦٤-٤٦٦، ح/٧٤٥٠-٧٤٥١-٧٤٥٩.

الخصائص السّلوكيّة والنّفسيّة للحاقد؛ نذكرها باختصار لأهميّتها ودقّتها:

«أوّلاً: إنَّ الحاقدَ شخصٌ لا يرغب في بذل الجهد الّذي يوصله إلى ما وصل إليه المحقود عليه، أو هو يعجز عن بذل ذلك الجهد لأسباب تتعلّق بالبنية، أو بالتّكوين النّفسيّ، أو بالوضع الاجتماعي، أو بغير ذلك من أسباب متباينة.

ثانياً: إنَّ الحاقدَ شخصٌ يحسب أنَّ أيَّ تقدّم يحرزه غيره، إنَّما هو تقدّم على حسابه شخصياً، فكلّ ميزة يتمتع بها غيره هي في نفس الوقت انتقاص من قدره، وسلب من ميّزاته الشّخصيّة.

ثالثاً: إنَّ الحاقدَ شخصٌ يحسّ بالغبطة والسّعادة إذا ما وقع أيّ شر لأيّ إنسان، أو إذا وقعت نكبة لأيّة أسرة، أو أيّة مجموعة، إنَّه يعتقد أنَّ مصائب النّاس تجلب له الخير، وأنَّ ما يقلّ عند غيره يزيد عنده.

رابعاً: إنَّ الحاقدَ ليس بحاجة إلى معرفة سابقة بمن يحقد عليه، إنَّه قد يحقد على أشخاص لا تربطه بهم أيّة صلة، ولا تجمعهم به رابطة، أو علاقة عمل، أو جوار، أو قرابة؛ ذلك أنَّ الحقد يعتمل في دخيلة الحاقد، ويبحث جاهداً عن شمّاعة يعلق عليها حقده بغَضّ النّظر عن تعيين تلك الشّماعة.

خامساً: إنَّ الحاقدَ شخصٌ مُهْتَمٌّ دائماً بأخبار الآخرين، إنَّه يهتم بما يفعله الآخرون أكثر من اهتمامه بما يجب عليه هو فعله، وهو دائم البحث عن نقاط الضّعف، أو عن سقطات، وأخطاء غيره، كما أنَّه يحزن لكُلّ نجاح، أو لأيّ تقدّم يحرزه غيره، فهو يستغلّ مزالق الآخرين في التّشهير بهم، كما أنَّه يحاول عرقلة تقدّمهم، ويجتهد في وقف ارتقائهم وتفوّقهم في الحياة»[1].

(١) يوسف ميخائيل أسعد، الشّخصيّة النّاجحة: ٩٤-٩٥.

هل يَحْقِدُ الْمُؤْمِنُ؟

إنّ من أشدّ ما ركّز عليه الإسلام في بناء الشّخصيّة الرّساليّة هو تزكية النَّفس من رذائل الأخلاق، ومن أدران الذّنوب؛ ولهذا فقد وجدنا في آثار النّبوّة كثيراً من الأحاديث تؤكّد على وجوب تجنّب حالة الحقد، ووجوب تخليص القلب منه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**طَهِّروا قُلوبَكُمْ مِنَ الْحِقْدِ؛ فَإِنَّهُ داءٌ موبِئٌ**»(١).

بل نهى الإسلام عن كلّ ما يكون سبباً للحقد، وحذَّر من الوقوع فيه كالشّحناء والمخاصمة، والمِراء... وأكثر من هذا أراد الإسلام من دُعاته أن يحرّروا الناس من عقدهم؛ ليزيلوا الحقد من قلوبهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لمالك الأشتر النّخعيّ:

«**أَطْلِقْ عَنِ النّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغابَ عَنْ كُلِّ ما لا يَضِحُ(٢) لَكَ، وَلا تَعْجَلَنَّ إِلى تَصْديقِ ساعٍ؛ فَإِنَّ السّاعي(٣) غاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنّاصِحينَ**»(٤).

والمعنى: افتح القلوب بإحسانك، وابتعد عن كلّ ما يثير تشنّج الآخرين، وتغافل عمّا لا يعجبك؛ فإن من الحكمة أن يتغافل الإنسان عمّا لا يستطيع تفسيره أو تغييره، قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قد جمع محمّد بن علي بن الحُسَين عليه السلام صلاح شأن الدُّنيا بحذافيرها في كلمتين، فقال: **صَلاحُ شَأْنِ جَميعِ**

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٩، ح/٦٧٧٣.

(٢) يضح: يظهر ويتّضح، والماضي وضح.

(٣) السّاعي: هو النّمّام بمعائب النّاس.

(٤) نهج البلاغة: ٤٥٢، كتاب: ٥٣.

التَّعايُشِ وَالتَّعاشُرِ، مِلْءُ مِكْيال، ثُلُثاهُ فِطْنَةٌ، وَثُلُثُهُ تَغافُلٌ»[١].

كما جعل الإسلام من صفات المؤمن سلامة القلب من الحسد والحقد والعداوة... بل تلك أعظم شهادة يقدم بها الإنسان على الله تعالى ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[٢].

وفي التّعامل الاجتماعي ينبغي أن يراعي الإنسان حقوق إخوانه، فلا يحقد عليهم حتى لو أساؤوا إليه، يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «**إنّ مِنْ واجِبِ حَقِّ أَخيكَ أَنْ لا تَكْتُمَهُ شَيْئاً تَنْفَعُهُ بِهِ لأَمْرِ دُنْياهُ وَآخِرَتِهِ، وَلا تَحْقِدَ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَساءَ...**»[٣].

فقوله عليه السلام: «**وَلا تَحْقِدَ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَساءَ**» لإيجاد حصانة في النفس تمنع من ترسّب الحقد في القلب؛ ولعلّه لهذا السّبب جعل الإسلام الدُّعاء للأخ والاستغفار له من المستحبّات الأكيدة؛ لأنَّ الاستغفار له طلب من الله تعالى، وتوسّل إليه أن يطهّره ممّا ارتكب من آثام، وذنوب، وتقصير بحقّ إخوانه؛ وبذلك يتقرّب إلى قلب الدّاعي، (فإنّ الإنسانَ إذا انفتح على إخوانه بين يدي الله، وأزال من نفسه ما بينه وبينهم من ضغن ونفور، فَتَحَ اللهُ عليه أبواب رحمته؛ فإنَّ انفتاح المؤمنين بعضهم على بعض، وتعميق حالة التّحابب، والتّعاطف، والمودّة فيما بينهم، من مفاتيح رحمة الله تعالى للدّاعي والمدعوّ له)[٤].

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ٨٤/١.

(٢) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

(٣) بحار الانوار: ٢٤٤/٤٨.

(٤) الشّيخ محمّد مهدي الآصفي، الدّعاء عند أهل البيت عليهم السلام: ٢٥١.

والإسلام حين ترك باب التّوبة مفتوحاً جعل من شروط قبولها بعد الإقبال الصّادق على الله نزع الحقد من القلب، قال الإمام الرِّضا عليه السلام لأبي الصّلت الهُرَويّ: «...**وَتُبْ إلى الله مِنْ ذُنوبكَ؛ لِيُقْبِلَ شَهْرُ الله إلَيْكَ، وَأَنْتَ مُخْلِصٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَلا تَدعَنَّ أَمانَةً في عُنُقِكَ إلا أَدَّيْتَها، وَلا في قَلْبِكَ حِقْداً عَلى مُؤْمِنٍ إلا نَزَعْتَهُ**...»(١).

إذن من شروط قبول التّوبة أن يطهّر الإنسان قلبه من الأحقاد والأضغان على الإخوان سواء كان بالاستغفار والدّعاء لهم، أو إبراء ذممهم ممّا علق بها من حقوقه، ليُقبل القلب على الله، وهو خالٍ من أيّ رين وشكّ، ورغم ذلك كلّه ومهما واظب الإنسان على مراقبة قلبه ومشاعره وأحاسيسه فإنّ مشاكل الحياة الدّنيا، والاختلافات الّتي تقع بين الإخوان قد تعكّر الأجواء، وتثير الغضب والانفعال السّلبيّ، وقد يدخل قلبَ المؤمن شيءٌ من الحقد على أخيه، إلا أنّ هذا لا يمكن أن يستمرّ طويلاً فضلاً عن أن يبقى، بل ما في قلب المؤمن من نور الإيمان لا بدّ وأن يزيل ما خيّم عليه من ظلام الغضب والانفعال، فينعشه ويعيده إلى صفائه الأول، يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «**حِقْدُ الْمُؤْمِنِ مَقامُهُ، ثُمَّ يُفارِقُ أَخاهُ فَلا يَجِدُ عَلَيْهِ شَيْئاً، وَحِقْدُ الْكافِرِ دَهْرُهُ**»(٢).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**وَالْمُؤْمِنُ يَحْقدُ ما دامَ في مَجْلِسِهِ، فَإذا قامَ ذَهَبَ عَنْهُ الْحِقْدُ**»(٣).

---

(١) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٢/٥١.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥/٢١١.

(٣) ابن شعبة، تحف العقول: ٢٢٩.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتّقي: «**وَعَفْوُهُ يَعْلو حِقْدَهُ**»[١].

إذن الحقد قد يصيب قلب المؤمن في حالات معيّنة، ولكن بصورة مؤقّتة، ثم يزول بعد قليل، لا سيّما إذا استغفر المؤمن لأخيه، وأناب إلى ربّه، وهذا هو خلق أنبياء الله ورسله وأوليائه؛ فهذا الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله رغم ما أوذي من قومه يقول متضرّعاً إلى الله: «**اللّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ**»[٢].

ومن قبله خليل الرَّحمن يقابل تهديد أبيه بالهجران بقوله: ﴿**سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا**﴾[٣]، وهذا الاستغفار وإن كان عن موعدة وعدها أباه إلا أنَّه يعبّر عن سلامة القلب من الحقد والضغينة.

ويوسف الصّدّيق عليه السلام رغم ما لاقى من إخوانه من أذيّة حَمّلَتْهُ متاعب جمّة لا تُنْسى، ولا يمكن أن يُمحى من النَّفس ذكرها إلا أنَّه حين ظفر بهم، وأصبحوا تحت يده، وفي إمكانه أن ينزل بهم أشدّ العقوبات، لم يقل لهم إلا كلمة عتاب رقيقة: ﴿**هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ**﴾[٤].

وحين أحسّ منهم النّدم والانكسار، ﴿**قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾[٥].

تلك هي النُّفوس الكبيرة لا تحمل الحقد، ولا الضغينة، ولا ترتّب عليه أثراً؛ ولهذا رأينا يوسف عليه السلام لم يؤاخذ إخوانه الّذين أرادوا قتله، ولا وبّخهم،

(١) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٣/٥٨٠، ح/٢٢٨٠.

(٢) بحار الأنوار: ٩٨/١٦٧.

(٣) مريم: ٤٧.

(٤) يوسف: ٨٩.

(٥) يوسف: ٩٢.

ولا قرّعهم، بل استغفر لهم الله تعالى، وبشّرهم بغفرانه تعالى لهم، وكأنّه يقول لهم[١]: [من الطّويل]

ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهُمُ   وليس رئيسَ القومِ من يحملُ الحقدا

عِلاجُ الْحِقْدِ:

لمّا كان الحقد مرضاً نفسيّاً قد يصاب به الإنسان فلا بدّ أن نتطرّق إلى علاج هذا المرض الخطير، ويمكن أن نذكر العلاج على نحوين: علاج نظريّ، وعلاج عمليّ.

أمّا العلاج النّظريّ، فهو أن يعي الإنسان خطورة هذا المرض الفتّاك الوبيء الّذي ما حلَّ بقلب إلا ولَوَّثه بقذارات الهجر، والشّحناء، والكذب، والغيبة، والبهتان، وإفشاء السِّرِّ، وهتك السّتر، وإظهار العيوب، والشّماتة بما يصيب الآخرين من البلاء، والسّرور والانبساط لضرر الآخرين، وكلّ تلك المشاعر والأعمال تبعده عن الله كما تبعده عن سعادة نفسه، وتكدّر صفو عيشه، وتحوّله إلى تنّور ملتهب، فلا يرى الرّاحة والاستقرار، بل دائماً يعيش القلق والاضطراب والتّرقّب لحلول البلاء بالآخرين؛ وفوق ذلك كلّه لا بدّ أن يعلم أن ذلك يقطعه عن رحمة الله، ويعرّضه لنقمته، ولا أظنَّ عاقلاً يعي كلّ تلك الأمور، ويعرف عللها وأسبابها، ثم يبقى على تلك الحالة، كما لا بدّ وأن يعلم أنَّ الحقد من خصال النّفوس الصّغيرة الوضيعة، وقد قال الشّاعر[٢]: [من البسيط]

لا يحمِلُ الحقدَ من تعلو به الرُّتَبُ   ولا ينال العُلا من طَبْعُه الغضبُ

---

(١) د. أحمد سامي، شعر المقنّع الكندي: ١٠٤، وفي رواية: «وليس كريم القوم»، وما أثبتناه هو المشهور والمتداول.

(٢) ديوان عنترة بن شدّاد: ٧٢.

أمّا العلاج العمليّ: فهو الجِدُّ في إزالة الأسباب الّتي تؤدّي إلى حصول الحقد في القلب، وذلك من خلال ما يأتي:

١- مجاهدة النَّفس، وإرغام الهوى، وتجاوز الذات الضّيّقة المتحوّرة على نفسها، وتوسيع الآفاق النّفسيّة، والتّمرّن على حمل النّاس على الصّحّة، وحسن الظّنّ بالآخرين، والتماس العذر للمسيئين، وقبول أعذار المعتذرين، والعفو عن الخاطئين؛ فقد رُوِيَ عن عليّ بن الحسين عليه السلام عن أبيه الحُسين بن عليّ عليه السلام قال: «**لَوْ شَتَمَني رَجَلٌ في هذِهِ الأُذْنِ - وَأَوْمى إِلى الْيُمْنى - وَاعْتَذَرَ لي في الأُخْرى لَقَبِلْتُ ذلِكَ مِنْهُ؛ وَذلِكَ أَنَّ أَميرَ الْمُؤْمِنينَ عَلِيّ بن أَبي طالِبٍ عليه السلام حَدَّثَني أَنَّهُ سَمِعَ جَدّي رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يَقولُ: لا يَرِدُ الْحَوْضَ مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْعُذْرَ مِنْ مُحِقٍّ أَوْ مُبْطِلٍ**»(١).

٢- المعاتبة بالحسنى؛ فإنَّ اللّقاء الحسن، والعتاب الجميل، والمكاشفة الهادفة اللّطيفة تزيل الأسباب المؤدّية إلى الحقد؛ وأفضل طرق المعاتبة هي الإحسان، وتقديم الخدمات، أو الهدايا المتواضعة دون تكلّف أو تملّق، بل إحسان وإفضال، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عاتِبْ أَخاكَ بِالإِحْسانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعامِ عَلَيْهِ**»(٢).

وقد ذكر مؤلّف كتاب الشّخصيّة النّاجحة علاجات عمليّة لها دور جيّد في إزالة حالة الحقد من النّفس، قال:

«أوّلاً: اجتهد لتتفوّق، ولتثبت جدارتك في الحياة... اعلم أنَّ الحقد لا

---

(١) الزّرندي الحنفي، نظم درر السّمطين: ٢٠٩.

(٢) نهج البلاغة: ٥١٤، قصار الحكم: ١٥٨.

يصيب المجتهدين المثابرين، فطالما أنَّ الطّريقَ مفتوحٌ أمامك فإنَّك سوف تتفاءل وترجو التَّقدّم، إنَّك لا تستشعر الحقد إلا إذا وجدتَ الطريقَ مسدوداً أمامك، بيد أنَّ من المؤكد أنَّ السبيل إلى فتح الطّريق أمامك متوافر لك وبين يديك... فلا تترك الكسل يتسرّب إلى حياتك حتّى لا تسمح للحقد بالاستيقاظ إذا كان نائماً في أعماقك، وقد تشكّلت نفسيّتُك على الحقد منذ طفولتك.

ثانياً: حاول أن تعثر على نقط التقاء مع غيرك... التّركيزُ على نقط الالتقاء يؤدّي إلى بزوغ السلوك التّعاونيّ المتّسم بالحبّ والوداد، وحتّى إذا وجدت شخصاً منافساً لك، بحيث تجد نفسك مركّزاً على نقط الافتراق بينك وبينه، فإنك عندئذ تستطيع أن تبحث عن نقطة التقاء أو أكثر تجمع بينكما... فإنك تكون بذلك قد أجّلت الموقف المؤدي إلى الحقد إلى موقف آخر متسم بالود والتّعاون الوجدانيّ والاجتماعي بينك وبينه.

ثالثاً: جدّدْ أهدافك باستمرار حتّى لا تذبل أهدافك القديمة، وتصبح مفلساً فيما تصبو إليه من أهداف...

رابعاً: تجنّب الحاقدين؛ لأنَّ الحقد قابل للانتشار كالوباء، فقد لا تكون شخصاً حاقداً، ولكن إذا ما جالستَ الحاقدين وعاشرتهم، فإنَّ الحقد سرعان ما ينتشر إلى نطاق نفسك، فخليق بك أن تتجنّب الحاقدين، وأن تجالس وتعاشر المحبّين غير الحاقدين.

خامساً: داوم على الاطّلاع، ووسّع ذهنك بالتّفكير والتّأمّل، فكلّما كنتَ واسع التفكير كنتَ بالتّالي أكثر قدرة على تقدير الآخرين، والنّظر إلى الأمور من زاويتهم الشّخصيّة...»[1].

---

(١) الشّخصيّة النّاجحة: ٩٧-٩٨.

(الْبَحْثُ التّاسِعُ)

أَخْطَارُ الْغَفْلَةِ

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1].

لقد منح الله تعالى الإنسان قوًى مختلفة، وحواسّاً مهمّة؛ ليتّخذها وسيلةً لمعرفته تعالى، ونافذةً يطلّ من خلالها على الكون والحياة، فيأخذ ويعطي ويتكامل بسَيْره واختياره؛ فالسّمع، والبصر، والفؤاد مكوّناتٌ أساسيّة يبتني عليها كيان الإنسان، إلا أنّ الانتفاع بهذه الحواس متوقّف على يقظة الإنسان وفاعليّته في استثمارها، لأجل سعادته في الدُّنيا والآخرة، ولكنّ الإنسان قد يعطّل هذه الجوارح عن الدّور المناط بها، والهدف المرسوم لها، ويخرجها عمّا أريد له منها، وبذلك ينزل درجات عن الحيوان الأعجم؛ لأنّ الحيوان وإن كانت له هذه الجوارح إلا أنَّه لم يُكلّف كما كُلّف الإنسان، ولم يعطَ قوّة حواسّ الإنسان.

والسّبب المهمّ في تعطيل هذه الحواس هي الغفلة، فهي بمثابة مخدّر لتلك القوى عن أهدافها المرسومة لها، والمراد منها؛ فالغافلون (لم يفتحوا القلوب الّتي أُعْطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود، وفي الرّسالات تدركها القلوب المفتوحة، والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

آيات الله الكونيّة، ولم يفتحوا آذانهم؛ ليسمعوا آيات الله المتلوّة.. لقد عطّلوا هذه الأجهزة التي وُهبوها، ولم يستخدموها.. لقد عاشوا غافلين لا يتدبّرون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾(١).

تَعْرِيفُ الْغَفْلَةِ:

الغفلة لغةً: «غيبة الشّيء عن بال الإنسان، وعدم تذكّره له، وقد استعمل فيمن تركه إهمالاً وإعراضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾(٢)»(٣).

وفي مفردات الرّاغب: «الغفلةُ سَهْوٌ يعتري الإنسانَ من قِلَّةِ التَّحَفُّظِ وَالتَّيَقُّظِ»(٤).

وأمّا **اصطلاحاً**: فالغفلة هي «فتور النَّفس عن الالتفات والتّوجّه إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلاً، أو آجلاً، وضدّها: النّيّة، وترادفها: الإرادة والقصد، وهي انبعاث النَّفس، وميلها وتوجّهها إلى ما فيه غرضها حالاً أو مآلاً»(٥).

فالغفلة إذن حالة ركود عقليّة في جانب نافع؛ لفساد في الحسّ، أو انصراف إلى جانب آخر ضارّ، وهذا الخدر أو الرّكود يعطّل الحواسّ عن عملها المراد منها، وهو التّوجّه إلى ما فيه ارتقاؤها إلى سلّم الكمال، فيعطّل القلب عن وعي الحقائق الكونيّة - لا سيّما إذا تلبّدت عليه الأدران والآثام -، والسّمع عن

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٦٨٤/٣.

(٢) الفيّومي، المصباح المنير: ٤٤٩، باب (الغفلة).

(٣) الأنبياء: ١.

(٤) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٥٠٠، باب (غفل).

(٥) النّراقي، جامع السّعادات: ١٠٥/٣-١٠٦.

التّوجّه إلى الكلمة الحقّة، والبصر عن رؤية النّافع ودفع الضّارّ... فالحواسّ موجودة، ولكنّها منصرفة إلى أمرٍ قد يضرّها، ويبعدها عن منافعها، فهي تبصر ولكن غير الحقيقة، وتسمع ولكن تسمع الباطل، وتفكّر ولكن في أمر غلبت فيه الشّهوة، وسيطرت عليه الغرائز، فكأنَّ العقل مغطى والقلب لاهٍ، ومن هنا حذّرت أحاديث أهل بيت العصمة من هذه الحالة الخطيرة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْغَفْلَةُ أَضَرُّ الأَعْداء».

«الْغَفْلَةُ شيمَةُ النَّوكى[1]».

«الْغَفْلَةُ ضَلالُ النُّفوسِ وَعُنْوانُ النَّحوسِ».

«احْذَروا الْغَفْلَةَ؛ فَإِنَّها مِنْ فَسادِ الْحِسِّ».

«إِنْ كُنْتُمْ لِلنَّجاةِ طالِبينَ فَارْفَضوا الْغَفْلَةَ وَاللَّهْوَ، وَالْزَموا الاجْتِهادَ وَالْجِدَّ».

«سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرورِ أَبْعَدُ إِفاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمورِ»[2].

أَخْطارُ الْغَفْلَةِ:

كثير من الّذين أصبحوا أسراء شهواتهم وأهوائهم كانوا غافلين عن سرّ وجودهم، وعلّة إيجادهم، وكثير من الذين وقعوا أسراء في أيدي أعدائهم كانوا غافلين عن تخطيط المتربّصين بهم... ولذلك نرى اليوم جميع الحكومات والدّول والمنظّمات والأحزاب تجعل لها أجهزة رقابة على أعضائها، وأجهزة تتابع أخبار

(١) النّوكى: الحمقى.

(٢) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٥-٢٦٦، ح/٥٧٤٤-٥٧٤٥-٥٧٤٦-٥٧٤٧-٥٧٤٨-٥٧٥٠.

وخطط أعدائها، وتتابع ذلك بدقّة كي لا تغفل، فتقع فريسة في شباكهم؛ ولأجل هذا أسّست وكالات الاستخبارات العالميّة؛ لكي تترصّد كلّ جديد في حركة أعدائها، بل وحتّى أصدقائها، وتعدّ هذه المؤسسات هي صمام الأمان والجهاز المنذر بالخطر قبل وقوعه، قال صلاح نصر: «يتوقّف مستقبل أيّ أمة على دقّة المعلومات الّتي تصل إليها المخابرات، والّتي تنير الطّريق أمام القرارات العليا للدّولة في سياستها القوميّة، ولا سيّما في عالم مضطرب تتقاطع فيه أغراض قوى عديدة، وأيديولوجيات متباينة. ففي هذا العصر، عصر التّطوّر الذّرّي، يتوقّف كيان الدّولة وأمنها على مدى المعرفة الّتي تتجمّع لديها. والمعرفة المبكّرة للدّولة أمرٌ لا بدّ منه؛ لتجنّب المفاجأة، ولتمكّنها من وضع سياستها وإدارة دفّة دبلوماسيّتها قبل المعارك الاستراتيجيّة الطّاحنة»[(١)].

هذا على مستوى الدّول والجماعات، أمّا على المستوى الفرد نفسه فلا بدّ أن يكون له جهاز رقابة على عدوّه الدّاخلي والخارجي الّذي يرصده ليل نهار وهو الشّيطان، فعندما يغفل الإنسان عن ذكر ربّه يستغلّ الشّيطان هذه الغفلة؛ ليوقعه في شباكه، وإذا غفل عن عظمة الله أصابه الكبر، وإذا غفل عن نعم الله أصابه العجب، وإذا غفل عن رحمة الله تعالى أصابته القسوة؛ وهكذا كلّ الأمراض النفسية كالغرور، والحسد، والنّفاق، والنّزق، والمكر، والخداع، وظلم الآخرين، كلّها نتيجة الغفلة الّتي تصيب الإنسان، فتبعده عن الله تعالى، وتنسيه ذكره، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[(٢)].

---

(١) صلاح نصر، الحرب النّفسيّة: ٤٧٩.

(٢) الحشر: ١٩.

هذه هي عاقبة الغافلين عن خطط أعدائهم، وليس هناك أعدى للإنسان من الشّيطان، قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(١).

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَأَفِقْ أَيُّها السّامعُ مِنْ سَكْرَتك، واسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، واخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ... وَضَعْ فَخْرَكَ، واحْطُطْ كِبْرَكَ، واذْكُرْ قَبْرَكَ؛ فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ**»(٣).

«**...فَإِنَّما هُوَ الشَّيْطانُ: يَأْتي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمينِه، وَعَنْ شِمالِهِ؛ لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ**»(٤).

أَسْبابُ الْغَفْلَةِ:

قبل أن نذكر الأسباب الّتي توقع الإنسان في الغفلة لا بدّ أن نشير أنَّ الله تعالى أودع في الإنسان طاقات ضخمة، وأراد منه أن يتصرّف بها باختياره وإرادته، ولكن وفق شريعته تعالى؛ فهذه الطّاقات مودعة في الإنسان، وعليه أن يصرفها فيما أمره الله تعالى، ويحذّر أن يستغل نعمه في معاصيه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَقَلُّ ما يَلْزَمُكُمْ للهِ أَلا تَسْتَعينوا بِنِعَمِهِ عَلى مَعاصيهِ**»(٥).

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) فاطر: ٦.

(٣) نهج البلاغة: ٢٤٤، خطبة: ١٥٣.

(٤) المصدر نفسه: ٤٣٩، كتاب: ٤٤.

(٥) المصدر نفسه: ٥٤١، قصار الحكم: ٣٢١.

ولما كانت دوافع الإنسان وغرائزه مختلفة ومتباينة، بل متصارعة في نفسه إذن فهو بحاجة إلى فطنة ويقظة دائمة؛ لكي يستطيع الموازنة بين هذه الغرائز، فأيّ غلبة لجانب على حساب جانب آخر يخلق خللاً في الشّخصيّة، وإذا لم يكن العقل هو الحاكم في توجيه هذه الغرائز، أو ضعف عن توجيهها فسوف تكون السّيطرة الكلّيّة للشّهوة والغضب، وما يتبعهما من الغرائز الأخرى، وفي هذه الحالة يهبط المرء من علوّ الإنسانيّة إلى حضيض الحيوانيّة؛ لتضييعه أهمّ جوهرة ميّزه الله بها على سائر خلقه، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «...**فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهائِمِ**»(١).

أسباب الغفلة تأتي من عوامل عدّة:

١- ترك محاسبة النَّفس: وهذا السَّبب من أهمّ عوامل الغفلة، فإنَّ من ترك محاسبة نفسه، ولم يرصد دوافعها لا بدّ أن يغفل عن عيوبها ونواقصها، وينتهي به ذلك إلى السّقوط والانحدار إلى حافّة الهاوية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْها خَسِرَ**»(٢).

«**مَنْ كانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ يَقْظَةٌ كانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَفَظَةٌ**»(٣).

٢- الاستغراق في حبّ الدُّنيا والاطمئنان إليها: فإنَّ من استولى حبَّ الدُّنيا على قلبه فسوف ينصرف إليها بكلّه، ولا ينتبه إلى غيرها؛ فحبُّ المالِ، والأولادِ،

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥١/١، ووسائل الشّيعة للحرّ العاملي: ١٦٤/١١.
(٢) نهج البلاغة: ٥٢٠، قصار الحكم: ١٩٨.
(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٥، ح/٤٧٢٥.

والجاهِ، والسلطانِ فتنٌ كبرى، فإذا لم ينتبه الإنسان إلى نفسه، ولم يُحَذّرها عن الاستغراق في حبّ الدّنيا تعميه عن رؤية غيرها، وبالتّالي ينتهي إلى الخسران الأبدي، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[(١)].

فعندما يركن الإنسان إلى الدُّنيا، ويطمئنّ إليها فسوف تستحوذ على قلبه وفكره، فلا يعود يفكّر بغيرها، وهذا سيؤدّي به إلى الغفلة، ونسيان الموت، ولقاء الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[(٢)].

ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[(٣)].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بعَيْنٍ غَيْرِ صَحيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بأُذْنٍ غَيْرِ سَميعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَواتِ عَقْلَهُ، وَأَماتَتِ الدُّنْيا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْها نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَها، ولِمَنْ في يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْها، حَيْثُما زالَتْ زالَ إلَيْها، وَحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْها، لا يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزاجِرٍ، وَلا يَتَّعَظُ مِنْهُ بِواعِظٍ**»[(٤)].

---

(١) المنافقون: ٩.

(٢) يونس: ٧-٨.

(٣) النَّحل: ١٠٧-١٠٨.

(٤) نهج البلاغة: ١٨٨-١٨٩، خطبة: ١٠٨.

هذه هي حالة من يستغرق في حبّ الدّنيا، فلا يعد يرى شيئاً وراءها، فهي تستلبّ لبّه، وتخدّر عقله، وتملكه ولا يملكها، وهكذا يغفل عمّا سواها، وينشغل بها دون غيرها.

٣- اتّباع الهوى وطول الأمل[١]: أمّا اتّباع الهوى فقد يغطّي صفحة القلب، ويحجبه عن إدراك الحقّ، ورؤية الحقيقة، فهو غشاء يغطّي البصيرة، فلا تعد ترى النّور، يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

عَواقِبُ الْغَفْلَة:

للغفلة عواقب وخيمة يقع فيها الإنسان من حيث لا يعلم، وأهمّ هذه العواقب السّيّئة:

١- **الاستدراج:** ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الغافلَ عن سرّ وجوده غافلٌ عن الله تعالى، وهذا لا بدَّ أن يُسْتَدرَجَ بتوالي النّعم عليه، فتلهيه عن ذكر الله تعالى، وذكر مآله، وينتهي به الشّوط حتّى يحسب أنَّ يومه دهره، وما درى أنَّه يقود نفسه إلى الهلاك الدّائم، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

فقوله تعالى: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدلّ على غفلتهم ونسيانهم لعواقب

---

(١) راجع بحث «الأهواء والميول النّفسيّة في القرآن» في هذا الكتاب.

(٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) الأعراف: ١٨٢.

الغفلة في الدّنيا، وما يترتّب عليها من آثار، قال العلامة الطّباطبائي: «وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدّلالة على أنَّ هذا التَّقريب خفيّ غير ظاهر عليهم، بل مستبطن فيما يتلهّون فيه من مظاهر الحياة المادّيّة، فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم، فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتّى يصرفهم التّلذّذ بها عن التّأمّل في وبال أمرهم»[(١)].

فعندما تتوالى النّعم على الإنسان تستولي على قلبه حتى تنسيه نفسه وربّه، وكلّما تراكمت هذه النّعم عليه غمرته أكثر، فيحسب أنَّ ذلك خيراً له، وهو لا يعلم أنَّ هلاكه فيها، يقول تعالى: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[(٢)].

ويقول أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام:

«**إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذاتِ يَدِهِ، فَلَمْ يَرَ ذلِكَ اسْتِدْراجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخوفاً**»[(٣)].

«**كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرورٍ بِالسِّتْرِ عَلَيْهِ**»[(٤)].

«**وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمى**»[(٥)].

وصفوة الكلام: إن الإنسان لو انتبه إلى نفسه، وتفكّر في عواقب أمره، وتأمّل في حوادث دهره لما غفل عن نفسه، ووقع فيما اسْتُدْرِج به، ومثله كمثل

(١) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٦/٨.

(٢) القلم: ٤٤.

(٣) نهج البلاغة: ٥٤٤، قصار الحكم: ٣٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ٥٢٧، قصار الحكم: ٢٥١.

(٥) نهج البلاغة: ٥٣٣، قصار الحكم: ٢٦٤.

طير وُضِعَتْ لَهُ حبوبٌ تحت شبك، فلما امتلأ وأراد أن يطير، وإذا به مقيّد بالشّباك، وأصبح فريسة الصياد.

٢- الانخداع: وهي حالة أخرى يقع فيها الإنسان حين يغفل عن نفسه، ويظنّ أنّه كسب خيراً بإخفاء الحقيقة، ولكنَّ الحقيقة أنَّه مخدوع بغفلته؛ لأنَّ الله يعلم ما تكنّ الصّدور فضلاً عما تعمل الجوارح، يقول تعالى:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾(٢).

فقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّهم غفلوا عن أنفسهم، وسقطوا في ورطة لم يُقدّروا عواقبها، (إنَّهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور! إنَّ الله بخداعهم عليم؛ والمؤمنون في كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللّئيم. أمّا أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشّونها. يخدعونها حين يظنّون أنَّهم أربحوها، وأكسبوها بهذا النّفاق، ووقوها مغبّة المصارحة بالكفر بين المؤمنين، وهُمْ في الوقت ذاتِهِ يوردونها موارد التّهلكة بالكفر الّذي يضمرونه، والنّفاق الّذي يظهرونه، وينتهون بها إلى شرّ مصير)(٣).

٣- الوقوع في شباك الأعداء: إنَّ العدو يتربّص بعدوّه دائماً وأبداً، فإذا لم يكن الإنسان حَذِراً يقظاً فإنَّه بلا شكّ سيقع في يد عدوّه فيأسره، ويذلّه إن لم نقل يقتله، وفي أغلب الأحيان: إنَّ العدو يفتك بعدوّه نتيجة الغفلة، يقول تعالى:

---

(١) البقرة: ٩.

(٢) النّساء: ١٤٢.

(٣) في ظلال القرآن: ٤٦/١.

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾(١).

وما وقوع كثير من المسلمين في شراك الكفر العالمي اليوم إلا نتيجة لغفلتهم عن دينهم، وما يحاك لهم من وراء الكواليس حيث دسّوا لهم السمّ في الدّسم، وأظهروا الباطل بثوب الحقّ، وعبّروا كثيراً من مكائدهم في أزمنة غفلة العلماء والعاملين، فضلاً عن عوامّ المسلمين، ولذلك حذّر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وهو المعصوم المؤيّد من السّماء، والمسدّد بالوحي من هذه المكائد؛ لبيان خطورتها في مستقبل الرّسالة، يقول تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾(٣).

﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾(٤).

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى الآثار الخطيرة للغفلة بكلمات مختصرة رائعة؛ نذكر من تلك الآثار:

أوّلاً: تقرّب الهلاك: يقول عليه السلام:

«الْغَفْلَةُ تُكْسِبُ الاغْتِرارَ، وَتُدْني مِنَ الْبَوارِ».

«مَنْ طالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتُهُ»(٥).

ثانياً: تُفْسِدُ الأعمال: يقول عليه السلام: **«إِيّاكَ وَالْغَفْلَةَ وَالإغْتِرارَ بِالْمُهْلَةِ؛**

(١) النّساء: ١٠٢.

(٢) المائدة: ٤٩.

(٣) النّساء: ٧١.

(٤) النّساء: ١٠٢.

(٥) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٦، ح/٥٧٥٩-٥٧٦٤.

فَإنَّ الْغَفْلَةَ تُفْسِدُ الأَعْمالَ وَالآجالَ، [وَ]تَقْطَعُ الآمالَ»[1].

ثالثاً: تُميت القلب: يقول عليه السلام:

«مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ ماتَ قَلْبُهُ».

«بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغِرَّةِ»[2].

رابعاً: تعمي البصيرة: يقول عليه السلام:

«دَوامُ الْغَفْلَةِ يُعْمي (تُعْمي) الْبَصيرَةَ»[3].

خامساً: تؤدّي إلى الضّلال، بل هي الضّلال بعينه: يقول عليه السلام:

«كَفى بِالْغَفْلَةِ ضَلالاً».

«الْغَفْلَةُ ضَلالُ النُّفوسِ وَعُنْوانُ النَّحوسِ»[4].

سادساً: وهي علامة من علامات الحمق: يقول عليه السلام:

«الْغَفْلَةُ شيمَةُ النَّوْكى»[5].

«إلهي، لَمْ يَكُنْ لي حَوْلٌ، فَأَنْتَقِلُ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إلا في وَقْتٍ أَيْقَظْتَني لِمَحَبَّتِكَ، فَكَما أَرَدْتَ أَنْ أَكونَ كُنْتُ، فَشَكَرْتُكَ بِإِدْخالي في كَرَمِكَ؛ وَلِتَطْهيرِ قَلْبي مِنْ أَوْساخِ الْغَفْلَةِ عَنْكَ»[6].

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٦، ح/٥٧٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ح/٥٧٦٥-٥٧٦١.

(٣) المصدر نفسه: ح/٥٧٦٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٥-٢٦٦، ح/٥٧٦٣-٥٧٤٦.

(٥) المصدر نفسه: ٢٦٦، ح/٥٧٤٥.

(٦) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٩٨/٩٤، من المناجاة الشّعبانيّة لأمير المؤمنين عليه السلام.

(الْبَحْثُ الْعاشِرُ)

سوءُ الظَّنِّ

قـــال تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

الصّـورة الّتـي نكوّنها فـي نفوسـنا عـن الأشـخاص: صـفاتِهم، أخلاقِهـم، أعمالِهم، علاقاتِهم، قد تكون صـورة جميلـة، وقـد تكـون قبيحـة؛ وعلـى هـاتين الصّورتين تترتّب آثار كثيرة، فإذا كانت الصّورة جميلةً نكـون قـد أحسـنّا الظّـنّ، وإذا كانت بالعكس فبالعكس.

وهذا الظّنّ الحسن أساس نجاح علاقة الإنسان بالآخرين.

ندرس حالة سوء الظّنّ من خلال الآية على عدّة محاور:

١- أسباب سوء الظّنّ.

٢- آثار سوء الظّنّ.

٣- علاج سوء الظّنّ.

٤- الوقاية من مضاعفات حسن الظّنّ.

---

(١) الحجرات: ١٢.

أسبابُ سوءُ الظَّنِّ:

سوءُ الظَّنِّ مرآةٌ لسريرة الإنسان، فالخائن يعتقد أنّ كلّ النّاس على شاكلته، وهكذا الكاذب والفاسق، لأنّ «**الرَّجُلَ السُّوءَ لا يَظُنُّ بِأَحَدٍ خَيْراً؛ لأَنَّهُ لا يَراهُ إلا بِوَصْفِ نَفْسِهِ**»[1]، وقد قيل: «إنّ الكافر يتصوّر النّاس على دينه»؛ فأسباب سوء الظن كثيرة جداً، نذكر منها:

١- **الجبن**: وضعف النّفس، وهبوط الإرادة؛ ولذلك فإنّ النَّفس تستسلم لكلّ فكر فاسد يتوارد عليها.

٢- **التّلوّث الرّوحي والقلبي**: حيث إنّ حسن الظّنّ هو نتيجة للصّفاء القلبيّ والطّهارة النّفسيّة، وسوء الظّنّ بالعكس هو أثر من آثار التّلوّثات الرّوحيّة.

٣- **التّكبّر والأنانيّة**: وهذا نابعٌ عن شعور بالنّقص؛ ولذا فإنّ هؤلاء يسعون لإثبات شخصيّاتهم، وقوّتهم عن طريق تحطيم شخصيات الآخرين، وتصغيرهم، وإرضاء هذا الميل الخبيث.

٤- **مجالسة أهل السّوء**: حيث إنّ الجلوس عند العناصر الفاسدة ينعكس على مجالسيهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**صُحْبَةُ الأَشْرارِ توجبُ سوءَ الظَّنِّ بالأَخْيارِ**».

«**صُحْبَةُ الأَشْرارِ تُكْسِبُ الشَّرَّ كَالرّيحِ إذا مَرَّتْ بِالنَّتِنِ حَمِلَتْ نَتْناً**»[2].

٥- **النّفاق**: المنافق شخصيّة يتظاهر بشيء، وباطنه شيء آخر؛ فهي شخصيّة قائمة على أساس الازدواجيّة، ونحو من أنحاء التّلوّن والتّقلّب.

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٣، ح/٥٦٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣١، ح/٩٨٢٧-٩٨٢٦.

٦- **الحسد**: الحسد ينقلب على الإنسان، ويتحوّل في نفسه إلى سوء الظّنّ، فعندما يحسد أحداً يستبطن له سوء الظّنّ إذا لم يستطع أن يضرّه فيُكَوِّن في داخله صورة قبيحة عنه.

الآثارُ الَّتي تَتَرَتَّبُ عَلى سوءِ الظَّنِّ:

الآثار الّتي تترتّب على سوء الظّنّ كثيرة جداً، نذكر منها:

الأوّل: هو مرض روحيٌّ خبيثٌ، يفتك بالفرد والمجتمع، وقد يشتدّ هذا المرض عند المريض، فيجعله يظنّ سوءاً بكل إنسان؛ ولذا فهو من الأمراض الاجتماعيّة الّتي تعطّل عجلة الحياة الاجتماعيّة كالغيبة، والبهتان، والنّميمة؛ فهو يخلق حالة ريبة في الآخرين، ويعطّل العلاقات، وخصوصاً إذا صار الشَّكُّ أساسَ العلاقة؛ حيث إنَّ الشك والريبة يقلّلان من فرص التّعاون مع الآخرين في الحياة الاجتماعيّة، فلو كانت علاقة صاحب المعمل مبنيّة على أساس سوء الظّنّ فلا يمكن أن يدير المعمل، ولا يستطيع أن يواصل الإنتاج، وهكذا القائد مع جنوده، والتّاجر مع زبائنه... وهلمّ جرا.

كما أنَّ سوء الظّنّ يعطّل حركة المجتمع السّياسيّ، فكلّ قائد يتحرّك لإحداث عمل تغييري إذا اكتنفته الشّائعات تختلّ الثّقة بينه وبين القاعدة، فلا القيادة تثق بالقاعدة، ولا القاعدة تعطي ثقتها للقيادة؛ لذا الآية الكريمة أمرت باجتناب كثير من سوء الظّنّ.

(ولمّا كان الظَّنُّ أمراً غير اختياريّ، فقد أمر الشّارع المقدس بتجنّب ترتيب الأثر عليه، فالمنهيّ عنه هو ترتيب الأثر على ما يخطر في النَّفس من أوهام وخيالات، فلا يوجّه الإهانة والقذف وغير ذلك على المظنون به).

الثّاني: إنَّ سوء الظَّنّ يحجب الإنسان عن العمل الاجتماعي؛ لأنَّ المصاب به يفقد القدرة على العمل والتّعامل مع المجتمع الّذي يعيش فيه، فهو يسلب ثقة الأفراد بعضهم ببعض، ويمنع التّعاون بينهم، ويفتّت وحدة الكلمة، ويجعل القلوب متنافرة، ويثير الحقد على الآخرين، بل يسبّب الفتن والحروب؛ لأنَّه يطفئ شعلة الحبّ والمودّة، ويزرع بذرة الشّقاق والاختلاف، والفرقة والنّفاق.

الثّالث: إنَّ سوء الظّنّ ينعكس على معاملة الآخرين؛ لأنَّه يجعل المصاب به يستبطن السّوء، ويتظاهر بالإحسان، فيكون ذات نوعين من التّعامل مع الآخرين وبذلك تكون علاقاته مع الآخرين مبنيّة على النّفاق...

الرّابع: ومن آثاره أيضاً أنَّه يعزل الإنسان عن مجتمعه، فلا يستطيع أن ينسجم معه، ولا يستطيع أن يتحرّك به، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ سوءُ الظَّنِّ لَمْ يَتْرُكْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَليلٍ صُلْحاً**»[1].

الخامس: يكون سبباً لمشاكل أخرى، فتترتّب عليه الغيبة والتّجسّس، وأحياناً قد يؤدّي سوء الظّنّ إلى حرب كقضية الوليد بن عقبة في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ** ﴾[2].

السّادس: إنَّ سوء الظَّنِّ يؤدّي إلى آلام نفسيّة تؤدّي بالإنسان إلى الاضطراب والقلق، فصاحبُهُ في هَمّ دائم، تملأ نفسه الحسرة والألم.

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٤، ح/٥٦٨٢.

(٢) الحجرات: ٦.

السّابع: إنَّ المصاب به يعيش حالة الخوف من أيّ شخص، ومن كلّ شيء، ويحسب كلّ صيحة عليه.

الثّامن: إنّه يعيق الإنسان عن التّكامل والرّشد الأخلاقيّ والرّوحيّ والاجتماعيّ؛ لأنه يبقى منشغلاً بعيوب النّاس، وينسى عيوب نفسه.

عِلاجُ سوءِ الظَّنِّ:

إذا توجّه الإنسان إلى نفسه، وأدرك خطورة سوء الظَّنِّ فلا بدّ له أن يفكر في علاجه، من خلال الطّرق الآتية:

١- العمل على إصلاح النّفس، وتزكيتها من الأمراض الخبيثة، وبدون ذلك لا يفلح الإنسان.

٢- التماس وجوه الصّحّة للآخرين: وهذا أمرٌ مهمٌّ في العلاج، وقد وردت أحاديث كثيرة تحثّ على ذلك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«اطْلُبْ لأَخيكَ عُذْراً، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْراً فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْراً»(١).

«ضَعْ أَمْرَ أَخيكَ عَلى أَحْسَنِهِ حَتّى يَأْتِيَكَ ما يَغْلِبُكَ مِنْهُ، ولا تَظُنَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخيكَ سُوءاً، وَأَنْتَ تَجِدُ لَها في الْخَيْرِ مَحْمِلاً»(٢).

«إِيّاكَ أَنْ تُسيءَ الظَّنَّ فَإِنَّ سُوءَ الظَّنِّ يُفْسِدُ الْعِبادَةَ، وَيُعَظِّمُ الْوِزْرَ».

«سوءُ الظَّنِّ بِالْمُحْسِنِ شَرُّ الإِثْمِ، وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ».

«لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ بَدَرَتْ مِنْ أَحَدٍ سوءاً، وَأَنْتَ تَجِدُ لَها في الْخَيْرِ

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٦٢٢/٢.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٩٤/٤، ح/٢٧٧٩.

مُحْتَمَلاً»[١].

«**لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضاءُ على الثِّقَةِ بِالظَّنِّ**»[٢].

٣- أن يجعل حسن الظَّنِّ هو الأصل في نظرته إلى الآخرين، عن محمّد بن فُضَيل، عن الإمام الكاظم عليه السلام، قال: «جعلت فداك، الرّجل من إخواني يبلغني عنه الشّيء الّذي أكرهه، فأسأله عنه، فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال لي: **يا مُحَمَّدُ، كَذِّبْ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ عَنْ أَخيكَ، فَإِنْ شَهِدَ عِنْدَكَ خَمْسونَ قَسّامَةً، وَقالَ لَكَ قَوْلاً فَصَدِّقْهُ وَكَذِّبْهُمْ، وَلا تُذيعَنَّ عَلَيْهِ شَيْئاً تُشينُهُ بِهِ، وَتَهْدمُ بِهِ مُرُوَّتَهُ، فَتَكونَ مِنَ الَّذين قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾**[٣]»[٤].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّها النّاس، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخيهِ وَثيقَةَ دينٍ، وَسَدادَ طَريقٍ، فَلا يَسْمَعَنَّ فيهِ أَقاويلَ الرِّجال، أَما إِنَّهُ قَدْ يَرْمي الرّامي، وَتُخْطِئُ السِّهامُ، وَيَحيكُ الْكَلامُ، وَباطِلُ ذلِكَ يَبورُ، وَاللهُ سَميعٌ وشَهيدٌ. أَما إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ إِلا أَرْبَعُ أَصابِعَ**»، فسُئِلَ عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه، ووضعها بين أذنه وعينه، ثمّ قال: «**الْباطِلُ أَنْ تَقولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقولَ رَأَيْتُ**»[٥].

إذن إذا بنى الإنسان على أن يُحسن الظَّنَّ بالآخرين فإنّه يتجنّب كثيراً من

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٣-٢٦٤، ح/٥٦٦٨-٥٦٧٢-٥٦٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٧٢، ح/١٠٨٠.

(٣) النّور: ١٩.

(٤) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٦٠٩/٨، باب تحريم إذاعة سرّ المؤمن: ح/٤.

(٥) نهج البلاغة: ٢٢٨، خطبة: ١٤١.

المآثم، ويكسب حبَّ الناس، ورد في الحديث: «**مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِالنّاسِ حازَ مِنْهُمْ الْمَحَبَّةَ**»(١).

قال الشّهيد الثّاني: «ومهما خطر لك خاطر سوء عن مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته، وتدعو له بالخير؛ فإنَّ ذلك يغيظ الشّيطان، ويدفعه عنك»(٢).

٤- المكاشفة: عندما نسمع عن إنسان شيئاً علينا أن نكاشفه، وقد ثبت بالتّجربة أنَّ ٩٠٪ من أصل القضيّة وهمٌ لا واقع له؛ فعلى الإنسان أن لا يبقي شيئاً في نفسه على أخيه دون أن يكاشفه بالحسنى؛ فإن إضمار ذلك في نفسه يعقّده، وقد يوقعه في أوهام لا حقيقة لها، كما أنَّ المكاشفة بين الإخوان تزيل ما في القلوب من ظنون، وتوقف الإنسان على حقيقة الأمر، وتجعله في بيِّنَةٍ من أمره.

٥- علينا أن نتذكّر دائماً أنَّ اتّهام المؤمنين يؤدّي إلى زوال الإيمان من قلب الإنسان، يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «**إذا اتَّهَمَ الْمُؤْمِنُ أَخاهُ انْماثَ(٣) الإيمانُ مِنْ قَلْبِهِ كَما يَنماثُ الْمِلْحُ في الْماء**»(٤).

وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنَّ أَقْرَبَ ما يَكونُ الْعَبْدُ إلى الْكُفْرِ أَنْ يُؤاخِيَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلى الدّينِ، فَيُحْصيَ عَلَيْهِ عَثَراتِهِ وَزَلاتِهِ؛ لِيُعَنِّفَهُ بها يَوْماً ما**»(٥).

٦- أن ينظر إلى الجوانب الإيجابيّة في النّاس، ويتجاوز عن السلبيّات، أو

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٣، ح/٥٣٣١.

(٢) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠٢/٧٥.

(٣) ماث يميث ميثاً: أذاب الملح في الماء، لسان العرب لابن منظور: ١٩٢/٢، باب (ميث).

(٤) الكافي: ٩٣/٤، ح/٢٧٧٧.

(٥) المصدر نفسه: ٧٨/٤، ح/٣٧٤٨.

يتغافل عنها.

٧- أن يواجه التّصوّرات النّفسيّة والخيالات الوهميّة بروح المؤمن الّذي يعاكس هواه، ويترفّع عن خسائس الأمور، وصغائرها... ويكون مثاله كالشّمس الّتي تطلع على كلّ شيء، وتؤثر فيه.

٨- أن يُجَنّبَ نفسه مواضع التُّهم، أي أن لا يدخل في مداخل تثير ظنون النّاس حوله، ولا يتصرّف تصرّفاً مريباً يثير شكوك الآخرين؛ ولذا قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا مَواضِعَ التُّهَمِ**»(١).

ويقول أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَواضِعَ التُّهَمِ فَلا يَلومَنَّ مَنْ أَساءَ الظَّنَّ بِهِ**»(٢).

وقد رُوِيَ: «رأى بعضُ الصّحابةِ رسولَ الله ﷺ واقفاً في دربٍ من دروب المدينة، ومعه امرأةٌ، فسَلَّمَ عليه، فردَّ عليه، فلما جاوزه ناداه، فقال: **هذِهِ زَوْجَتي فُلانَةٌ**، قال: يا رسول الله، أَوَفيكَ يُظَنّ! فقال: **إِنَّ الشَّيْطانَ يَجْري مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرى الدَّمِ**»(٣).

وجاء في الحديث المرفوع: «**دَعْ ما يُريبُكَ إِلى ما لا يُريبُكَ**»(٤).

كَيْفَ نَتَّقي مُضاعَفاتِ حُسْنَ الظَّنِّ؟

مما يلزم الإشارة إليه أنّ الإسلام وإن كان قد حرَّم سوء الظَّنِّ إلا أنّه لم

(١) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء: ٦٧/٥.

(٢) نهج البلاغة: ٥١٤، قصار الحكم: ١٤٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٨٠/١٨.

(٤) المصدر نفسه.

يجعل هذا الحكم مطلقاً في كلّ الأحوال؛ ففي الحديث المتقدّم عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**حَتّى يَأْتِيَكَ ما يَغْلِبُكَ مِنْهُ**»، فإذا ثبت انحراف شخصٍ ما فلا ينبغي للمؤمن أن يحسن الظَّنَّ به، لأنَّ هذا يفسح المجال أمام الخائبين لأنْ يعبثوا في المجتمع الإسلامي، يقول أبو عبد الله الصّادق صلى الله عليه وآله: «**لَيْسَ لَكَ أَنْ تَأْتَمِنَ مَنْ خانَكَ، وَلا تَتَّهِمَ مَنِ ائْتَمَنْتَ**»[1].

إذن سوء الظَّنِّ شيءٌ، والحذر شيء آخر، وقد يكون الجوّ الاجتماعيّ مريضاً، حينئذٍ حسن الظَّنِّ في مثل هذا الجوّ غير محمود، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**قَدِّمِ الاخْتِبارَ، وَأَجِدِ الاسْتِظْهارَ في اخْتِيارِ الإخْوانِ، وَإِلا أَلْجَأَكَ الاضْطِرارُ إِلى مُقارَنَةِ الأَشْرارِ**»[2].

وقال عليه السلام: «**إِذا اسْتَوْلى الصَّلاحُ عَلى الزَّمانِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ أَساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خِزْيَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ، وَإِذا اسْتَوْلى الْفَسادُ عَلى الزَّمانِ وَأَهْلِهِ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ**[3]»[4].

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يطمئنّ إلى كلّ أحد خصوصاً في وقت تصاعد الفتن، واضطراب المجتمع، وفي الظّروف الأمنيّة القاسية، وإنّما ينبغي دائماً أن يختبر الأشخاص والأحداث قبل أن يتعامل معها كي لا يوقع نفسه في مطبّات

(١) وسائل الشّيعة: ٢٢٩/١٣.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤١٦، ح/٩٤٩١.

(٣) قال ابن منظور: «غرّر بنفسه وماله تغريراً وتَغِرّةً: عرَّضهما للهلكة من غير أن يعرف، والاسم: الغرر، والغرر: الخطر»، لسان العرب: ١٣/٥، باب (غرر).

(٤) نهج البلاغة: ٥٠٥، قصار الحكم: ١٠٨.

تعرّضه إلى متاعب هو في غنى عنها؛ لأنَّ «**مَنِ انْقادَ إلى الطَّمْأَنينَةِ قَبْلَ الْخِبْرَةِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ، وَالْعاقِبَةِ الْمُتْعِبَةِ**»[١]، ولأنَّ «**الطَّمْأَنينة قَبْلَ الْخِبْرَةِ ضِدُّ الْحَزْمِ**»[٢]، فالحذر هنا محمود عقلاً وشرعاً.

(١) بحار الأنوار: ٣٤٠/٧١.

(٢) ابن شعبة، تحف العقول: ٥٩.

(الْبَحْثُ الْحادي عَشَرَ)

آثارُ الذُّنوبِ

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[1].

تشير هذه الآية وغيرها من الآيات الكريمة أنَّ سبب هلاك الأمم واندثار الحضارات وسقوطها هو ذنوب الناس وانحرافهم عن جادّة الصواب، فالذُّنوب هي العامل الأهمّ في إهلاك الأمم واندثار الحضارات.

ما هُوَ الذَّنْبُ؟

لغة: الذَّنب هو الإثم، والجرم، والمعصية، وهو (في الأصل الأخذ بذَنَب الشّيء، يقال ذَنَبْتُهُ أصبتُ ذَنَبَهُ، ويستعمل في كلّ فعل يُسْتَوْخَمُ عقباه اعتباراً بذنب الشّيء؛ ولهذا يسمّى الذّنب تبعةً اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذّنب ذنوب، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾[2]، وقال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾[3]...)[4].

---

(١) الأنعام: ٦.

(٢) آل عمران: ١١، والأنفال: ٥٢، وغافر: ٢١.

(٣) العنكبوت: ٤٠.

(٤) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٢٥٢-٢٥٣، باب (ذنب).

وأما **اصطلاحاً**، فالذَّنب في الشريعة الإسلامية الغراء هو «ارتكاب فعل منهيّ عنه، أو ترك فعل مأمور به».

وأما في القوانين الوضعيّة، فإنَّ الذّنب معناه: «الخروج عن دائرة القوانين والمقرّرات الموضوعيّة؛ لحفظ مصلحة الجماعة، وصيانة نظامها».

والشَّريعة هنا توافق القانون حيث إنَّ القرآن الكريم عدَّ الخروج عن الأحكام ذنباً، وعبَّر عنها بتجاوز الحدود الشّرعيّة، يقول تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[(١)].

ولهذا فكلّ ما يصاب به الإنسان من مصائب وتبعات إنّما هو نتيجة مخالفاته الشّرعيّة؛ فعن هِشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**أَما إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِرْقٍ يَضْرِبُ، وَلا نَكْبَةٍ، وَلا صُداعٍ، وَلا مَرَضٍ إِلا بِذَنْبٍ، وَذلِكَ قَولُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - في كتابِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[(٢)]**»[(٣)].

وورد عن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**يا عَلِيُّ، ما مِنْ خَدْشِ عودٍ، وَلا نَكْبَةِ قَدَمٍ إِلا بِذَنْبٍ**»[(٤)].

الذَّنْبُ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْقانونِ:

يختلف الذّنب في الشّريعة عنه في القانون الوضعيّ في عدّة نقاط:

(١) البقرة: ٢٢٩.

(٢) الشّورى: ٣٠.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٦٦٨/٣، ح/٢٤١٣.

(٤) الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٧/٩.

١- الجريمة في القانون الوضعيّ بصورة عامّة: هي كلّ فعل يمسّ مصالح المجتمع بشكل مباشر كالسّرقة والقتل، وأمّا في الشّريعة الإسلاميّة، فالجريمة كلّ فعلٍ يمسّ مصالح المجتمع سواء كان مباشراً، أو غير مباشر؛ فالكذب، والغيبة، والنّميمة، والافتراء، والحسد، والحرص، والتّكبّر، والحقد... لها مساسٌ بمصالح المجتمع، وهذا غير معتبر في القوانين الوضعيّة.

٢- إنّ الإسلام لا يكتفي بوضع العقوبة على الجريمة، بل يسعى إلى استئصال جذورها من النّفس؛ وأمّا القوانين الوضعيّة فتكتفي بتعيين العقوبة فقط.

ولأجل حماية الإنسان من الوقوع في المعاصي لم يسمح الإسلام للمؤمنين أن يحدّثوا أنفسهم بالمعاصي، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ في الْمَعاصي دَعَتْهُ إِلَيْها**»(١).

كما أنّ التّفكير بالمعاصي يلوّث أرضيّة النّفس، ويكدّرها، ومن أجل حفظها سليمة لا بدّ من طرد كلّ خاطر سوء، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**اجْتَمَعَ الْحَواريّونَ إلى عيسى عليه السلام، فَقالوا لَهُ: يا مُعَلّمَ الْخَيْرِ، أَرْشِدْنا، فَقالَ لَهُمْ: ... إنّ موسى نَبيُّ الله عليه السلام أَمَرَكُمْ أَنْ لا تَزْنوا، وَأَنا آمُرُكُمْ أَنْ لا تُحَدِّثوا أَنْفُسَكُمْ بِالزّنى فَضْلاً عَنْ أَنْ تَزْنوا؛ فَإِنّ مَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالزّنى، كانَ كَمَنْ أَوْقَدَ في بَيْتٍ مُزَوَّقٍ، فَأَفْسَدَ التَّزاويقَ الدُّخانُ، وَإِنْ لَمْ يَحْتَرِقِ الْبَيْتُ**»(٢).

ولذا جعل الإسلام للنّيّة أهميّة كبيرة، بل جعل قيمة العمل منوطة بمدى

---

(١) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٨٦، ح/٣٥٤٣.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي: ٢٤٦/١١، ح/١٠٣١٣.

سلامة النّيّة؛ لأن قيمة العمل في الإسلام بدوافع العامل لا بمنافعه، فـ«**إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيّاتِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوى**»(١)؛ يقول رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه: «**نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ**»(٢)، وعن الصّادق عليه‌السلام: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَنْوي الذَّنْبَ، فَيُحْرَمُ رِزْقَهُ**»(٣).

٣- إنّ القوانين الوضعيّة تحدّد للجرائم المختلفة عقوبات معيّنة محدودة كالسّجن أو الغرامة بينما الإسلام يجعل عاقبة الذّنب خسران الدُّنيا والآخرة إن لم يتب، ويصلح، ويعمل عملاً صالحاً بصدق وإخلاص في سبيل الله تعالى(٤).

الذُّنوبُ إِفرازاتُ أَمْراضِ الْقُلوبِ:

لقد أكّد القرآن الكريم أنّ الذّنوب إفرازات مرضيّة كامنة في القلب، يقول تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾(٥).

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾(٦).

فلا يقدم الإنسان على إثم، أو جريمة إلا وفي نفسه دافع إليها، وهذا الدّافع هو المرض القلبيّ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لا بدّ أن نعرف أنّ هناك أثراً متبادلاً بين العمل الّذي يصدر من الإنسان، وآثار ذلك العمل؛ فكلّ عمل يعمله له أثر في قلبه وأخلاقه وسلوكه سلباً أو إيجاباً، يقول أمير المؤمنين عليه‌السلام: «**لا**

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة: ٧/٧.

(٢) الكافي: ٢١٨/٣، ح/١٦٧٦.

(٣) البرقي، المحاسن: ١١٦/١، ح/٣٦٢.

(٤) هذه النقاط الثّلاثة المتقدمة مستفادة من كتاب (آثار الذّنوب) بتصرف.

(٥) البقرة: ١٠.

(٦) الأحزاب: ١٢.

وَجَعَ أَوْجَعُ لِلْقُلوبِ مِنَ الذُّنوبِ...»[١].

آثار الذُّنوب:

لا شكَّ أنَّ لكلّ ذنب يرتكبه الإنسان أثراً على نفسه، وعلى مجتمعه، فإذا تفاقم الذَّنْبُ، وتضاعف أصبح خطراً على الجميع؛ ويمكن أن نشير إلى بعض آثار الذَّنوب كما أشارت إليها الأحاديث الشّريفة:

١- **إفساد القلب**: إنَّ القلبَ مركزُ الإحساس، والشّعور، والإدراك، والحبّ، والبغض... وإذا ما ارتكب الإنسان ذنباً من الذّنوب انعكس على قلبه ريناً وأدراناً كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢]، إذن (روح الإنسان تتعامل طرديّاً مع الذّنوب، فمع استمرار الذّنوب تغوص الرّوح في أعماق الظّلام لحظة بلحظة، حتّى تصل إلى درجة يرى سيّئاته حسنات)[٣]، وهذا هو صاحب (القلب المنكوس) الَّذي انقلبت لديه الموازين، وتغيَّرت عنده المقاييس، فصار يرى الجميل قبيحاً، والقبيح جميلاً.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كانَ أَبي يَقولُ: ما مِنْ شَيْءٍ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَطيئَةٍ، إنَّ الْقَلْبَ لَيُواقِعُ الْخَطيئَةَ، فَما تَزالُ بِهِ حَتّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ، فَيُصَيَّرَ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ**»[٤].

وهذا هو القلب المنكوس - كما عبَّرت عنه بعض الرّوايات - يصير

---

(١) الكافي: ٦٨٢/٣، ح/٢٤٣٨.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣١/٢٠.

(٤) الكافي: ٦٦٧/٣، ح/٢٤١١.

(كالإناء المقلوب المكبوب الّذي لا يستقرّ فيه شيءٌ من الحقّ، ولا يؤثر فيه شيءٌ من المواعظ، كما روي: **الْقُلوبُ ثَلاثَةٌ: قَلْبٌ مَنْكوسٌ لا يَعي شَيْئاً مِنَ الْخَيْرِ، وَهُوَ قَلْبُ الْكافِرِ...**)[(١)].

وعن ابن بُكَيْر، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**ما مِنْ عَبْدٍ إلا وَفي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضاء، فَإذا أَذْنَبَ ذَنْباً، خَرَجَ في النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْداءُ؛ فَإنْ تابَ ذَهَبَ ذلِكَ السَّوادُ، وَإنْ تَمادى في الذُّنوب زادَ ذلِكَ السَّوادُ حَتّى يُغَطِّيَ الْبَياضَ، فَإذا غُطِّيَ الْبَياضُ لَمْ يَرْجِعْ صاحِبُهُ إلى خَيْرٍ أَبَداً، وَهُوَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[(٢)]»[(٣)].

وأصرح من ذلك قوله صلى الله عليه وآله: «**كَثْرَةُ الذُّنوبِ مَفْسَدَةُ الْقُلوبِ**»[(٤)].

إذن أشدّ ما يفسد القلب هو ارتكاب الذّنوب، فهي بمثابة دخان يتصاعد على زجاجة صافية فيلوّثها، ويحجبها عن النّور، فلا يدخلها نور، ولا يخرج منها نور! وأيّ فساد بعد هذا؟

قال المحدّث المجلسي: «وأمّا الآثار المذمومة فإنّها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرّة بعد أخرى إلى أن يَسْوَدَّ ويظلم، ويصير بالكليّة محجوباً عن الله تعالى، وهو الطّبع والرّين، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٥)]»[(٦)].

---

(١) المحدّث المجلسي، بحار الأنوار: ٧٣/٣١٣.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) الكافي: ٣/٦٧٦-٦٧٧، ح/٢٤٣٠.

(٤) السّيوطي، الدّرّ المنثور: ٦/٣٢٦.

(٥) المطففين: ١٤.

(٦) بحار الأنوار: ٧٣/٣٢٧-٣٢٨.

٢- سلب النّعم: إنّ النعم الّتي أنعمها الله على الإنسان سواء كانت ماديّة أو معنويّة أراد منها أن تستعمل لطاعته، أمّا عندما تستعمل خلاف أحكامه تعالى فلا بدّ أن تسلب تلك النّعم من ذلك الشّخص الّذي استعمل نعم الله في معاصيه، عن أبي عمرو المدائنيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سَمِعْتُهُ يَقولُ: **كانَ أَبي عليه السلام يَقولُ: إنَّ اللهَ قَضى قَضاءً حَتْماً أَلا يُنْعِمَ عَلى الْعَبْدِ بِنِعْمَةٍ فَيَسْلُبَها إِيّاهُ، حَتّى يُحْدِثَ الْعَبْدُ ذَنْباً يَسْتَحِقُّ بِذلِكَ النَّقِمَةَ**»[1].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام، يقول: «**إنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعَثَ نَبيّاً مِنْ أَنْبيائِهِ إِلى قَوْمِهِ، وَأَوْحى إِلَيْهِ: أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ، وَلا أُناسٍ كانوا عَلى طاعَتي، فَأَصابَهُمْ فيها سَرّاءُ، فَتَحَوَّلوا عَمّا أُحِبُّ إِلى ما أَكْرَهُ، إِلا تَحَوَّلْتُ لَهُمْ عَمّا يُحِبّونَ إِلى ما يَكْرَهونَ...**»[2].

وهذا ما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[3].

وواضح معنى الآية (أنّ العقاب الّذي يعاقب به الله سبحانه إنّما يعقب نعمةً إلهيّةً سابقةً بسلبها واستخلافها، ولا تزول نعمة من النّعم الإلهيّة، ولا تتبدّل نقمةً وعقاباً إلا مع تبدّل محلّه، وهو النّفوس الإنسانيّة، فالنّعمة الّتي أنعم بها على قوم إنّما أُفيضت عليهم لمّا استعدّوا لها في أنفسهم، ولا يسلبونها، ولا تتبدّل بهم نقمةً وعقاباً؛ إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد، وملاك الإفاضة، وتلبّسهم

(١) الكافي: ٦٧٨/٣، ح/٢٤٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ٦٧٩/٣-٦٨٠، ح/٢٤٣٥.

(٣) الأنفال: ٥٣.

باستعداد العقاب.

وهذا ضابط كليٌّ في تبدّل النّعمة إلى النّقمة والعقاب، وأجمع منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(١)][(٢)]؛ ولهذا يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «**ما أَنْعَمَ اللهُ عَلى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَسَلَبها إِيّاه، حَتّى يُذْنِبَ ذَنْباً يَسْتَحِقُّ بذلِكَ السَّلْبَ**»[(٣)].

وأما الذّنوب الّتي تغيّر النّعم فهي كما جاء عن الإمام السّجّاد عليه السلام قوله: «**الذُّنوبُ الّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ: الْبَغْيُ عَلى النّاسِ، وَالزَّوالُ عَنِ الْعادَةِ في الْخَيْرِ، واصْطِناعُ الْمَعْروفِ، وكُفْرانُ النِّعَمِ، وَتَرْكُ الشُّكْرِ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**»[(٤)].

٣- الحرمان من الرّزق: إنَّ الرزق نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان، وعندما يستعملها في معصية الله فقد عرَّض نفسه إلى نقمته وغضبه تعالى؛ لاستعماله النّعمة فيما لا يُرْضي الله؛ فحينئذٍ يستحقّ العقاب والرّدع، فيحرم من الرّزق، وهذا ما أكّدته الأحاديث الكثيرة؛ فقد ورد عن الفُضَيْل، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيُدْرَأُ عَنْهُ الرِّزْقُ**، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[(٥)]»[(٦)].

(١) الرّعد: ١١.

(٢) العلامة الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٩/١٠١.

(٣) الكافي: ٣/٦٧٩، ح/٢٤٣٤.

(٤) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٢٧٠.

(٥) القلم: ١٧-١٩.

(٦) الكافي: ٣/٦٧٢-٦٧٣، ح/٢٤٢٢.

وعن محمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سمعتُهُ يقول: **إِنَّ الذَّنْبَ يَحْرِمُ الْعَبْدَ الرِّزْقَ**»(١).

وفي رواية بكر بن محمّد الأزديّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَنْوِي الذَّنْبَ فَيُحَرَمُ رِزْقَهُ**»(٢).

٤- **نزول البلاء**: إنّ ارتكاب الذّنوب والمعاصي ينزل البلاء على العاصي، وهو له عقوبة أو تأديب، أمّا للمؤمن فهو تمحيصٌ، وللكافر محقٌ وإهلاكٌ، يقول تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٣).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾(٤).

ورُوِيَ عن عليّ عليه السلام في تفسير الآية المتقدّمة أنه قال: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: خَيْرُ آيَةٍ في كِتابِ الله هذِهِ الآيَةُ، يا عَلِيُّ، ما مِنْ خَدْشِ عودٍ، وَلا نَكْبَةِ قَدَمٍ، إلا بِذَنْبٍ، وَما عَفا اللهُ عَنْهُ في الدُّنْيا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعودَ فيهِ، وَما عاقَبَ عَلَيْهِ في الدُّنْيا فَهُوَ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلى عَبْدِهِ**»(٥).

وعن الإمام الرّضا عليه السلام قال: «**كُلَّما أَحْدَثَ الْعِبادُ مِنَ الذُّنوبِ ما لَم يَكونوا يَعْمَلونَ، أَحْدَثَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْبَلاءِ ما لَمْ يَكونوا يَعْرِفونَ**»(٦).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**يَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذا عَصاني مَنْ**

---

(١) المصدر نفسه: ٦٧٢/٣، ح/٢٤٢١.

(٢) المحاسن: ١١٦/١، ح/٣٦٢.

(٣) آل عمران: ١٤١.

(٤) الشّورى: ٣٠.

(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٧/٩.

(٦) الكافي: ٦٨٢/٣، ح/٢٤٣٩.

عَرَفَني، سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لا يَعْرِفُني»[١].

وهكذا يتّضح من خلال ما ورد من آيات وروايات كثيرة في هذا الباب أنّ سبب كثير من البلايا والمصائب الّتي تحلّ بالبشريّة هي نتيجة لمخالفتهم أوامر الله، قال تعالى:

﴿ **فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾[٢].

﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾[٣].

٥- إنّ بين الأعمال وبين ما يحدث في الخارج ارتباطاً؛ فكلّ عملٍ محرّمٌ أو واجبٌ له تأثير في الواقع الخارجيّ، فلكلّ من السّيّئات والحسنات تأثيرٌ مختلفٌ؛ أمّا السّيّئات فقد أكّد القرآن الكريم أنّ المفاسد الاجتماعيّة الّتي تحدث في الواقع الخارجي، إنّما هي من آثار الذّنوب، يقول تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾[٤].

ويقول تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[٥].

قال العلامة الطّباطبائي: «المراد بالفساد الظّاهر: المصائب، والبلايا الظّاهرة فيهما الشّاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزّلازل، وقطع الأمطار، والسّنين،

---

(١) الكافي: ٦٨٣/٣، ح/٢٤٤٠.

(٢) الأنعام: ٦.

(٣) الإسراء: ١٦-١٧.

(٤) الشّورى: ٣٠.

(٥) الرّوم: ٤١.

والأمراض السّارية، والحروب، والغارات، وارتفاع الأمن، وبالجملة كلّ ما يفسد النّظام الصّالح الجاري في العالم الأرضيّ سواء كان مستنداً إلى اختيار بعض النّاس أو غير مستند إليه، فكلُّ ذلك فسادٌ ظاهرٌ في البرّ أو البحر، مخلٌّ بطيب العيش الإنساني»[1].

وأمّا امتثال الواجب الإلهي فله تأثير في الواقع الخارجي من حيث الإصلاح، والإعمار، وإفاضة، بركات السّماوات والأرض، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2].

٦- إنّ الذّنوب تعطّل الإنسان عن فعل الطّاعات، وتصبح قيوداً وأغلالاً تحجز الإنسان عن مواصلة السّير والكدح إلى الله تعالى، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ يُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيُحْرَمُ صَلاةَ اللَّيْلِ، وَإِنَّ الْعَمَلَ السَّيِّئَ أَسْرَعُ في صاحِبِهِ مِنَ السِّكِّينِ في اللَّحْمِ**»[3].

٧- **تحبس الدّعاء أو تردّه**: قد يكثر الإنسان من الدّعاء، ولكن لا يرى لدعائه أثراً، ولعلَّ السِّرَّ في عدم الإجابة هو ارتكابه للذّنوب؛ فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**الْمَعْصِيَةُ تَمْنَعُ الإِجابَةَ**»[4]، وكما ورد عن الإمام السّجّاد عليه السلام أنّه قال: «**وَالذُّنوبُ الّتي تَرُدُّ الدُّعاءَ: سوءُ النِّيَّةِ، وَخُبْثُ السَّريرَةِ،**

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٦/١٩٥-١٩٦.
(٢) الأعراف: ٩٦.
(٣) الكافي: ٤/٦٧٥، ح/٢٤٢٦.
(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٩٣، ح/٣٧٦٦.

وَالنّفاقُ مَعَ الإخْوانِ، وَتَرْكُ التَّصْديق بالإجابَةِ، وَتأخيرُ الصَّلَواتِ الْمَفْروضاتِ حَتّى تَذْهَبَ أَوْقاتُها، وَتَرْكُ التَّقَرُّبَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَةِ، وَاسْتِعْمالُ الْبِذاء، وَالْفُحْشِ في الْقَوْل»(١).

٨- **إنّ ارتكاب الذّنوب يقصّر العمر**: لا شكَّ أنَّ الذّنوب مخالفة للفطرة السّليمة، ومخالفة لسنّة التّكوين والتّشريع؛ ولذا فلها تأثير سلبيٌّ على جسم الإنسان ونفسه وعقله، وهذا يؤدّي إلى قصر عمره، ورد في الحديث الشَّريف عن أبي عبد الله عليه السلام: «**مَنْ يَموتُ بِالذُّنوبِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَموتُ بِالآجالِ، وَمَنْ يَعيشُ بِالإحْسانِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعيشُ بِالأَعْمارِ**»(٢)؛ فنظرة محرَّمة كم تأخذ من فكر الإنسان، وتشغله عن بناء نفسه وحمايتها من الأخطار؟ وكلمة خبيثة كم يكون لها من تأثير سلبيّ على وجدان المتكلّم وعلى السّامع؟ وهكذا بقية الذّنوب.

٩- وللذّنوب تأثيرٌ على عقل الإنسان، فكلّما أذنب الإنسانُ ذنباً فارقه عقلٌ لا يعود إليه إلا بالتّوبة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ قارَفَ ذَنْباً فارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعودُ إلَيْهِ أَبَداً**»(٣).

والسِّرُّ في ذلك أنَّ العقل عندما يكون تحت حكومة الأهواء والشّهوات، فإنّه يصيبه الضّعف، والضّمور، والهوان، والعكس صحيح، قال العلامة الطّباطبائي: «وأنتَ إذا حلّلتَ المفاسد الاجتماعيّة والفرديّة حتّى في المفاسد

---

(١) معاني الأخبار: ٢٧١.

(٢) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٤٥٨، وترتيب الأمالي للمحمودي: ٦٧١/٦، ح/٣٦٢١.

(٣) الفيض الكاشانيّ، المحجّة البيضاء: ٢٤/٥.

المسلّمة الّتي لا ينكرها منكرٌ وجدتَ أنَّ الأساسَ فيها هي الأعمالُ الّتي يبطل بها حكومة العقل، وإنَّ بقيّة المفاسد وإن كثرت وعظمت مبنيّة عليها»[١].

سُنَّةُ اللّٰهِ في إِهْلاكِ الأُمَمِ:

إنَّ كلّ ما وقع، وما يقع في المجتمع البشريّ لا يقع اعتباطاً وصدفةً، وإنّما يجري وفق قوانين وسنن وضعها الله تعالى، وأجراها على خلقه، وهي مستمرّة إلى يوم القيامة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه السُّنّة في آيات عديدة، نذكر منها:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[٢].

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٣].

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[٤].

فهذه الآيات وغيرها كثير تشير إلى سنّة من سنن الله تعالى الجارية في الخلق في كلّ زمان ومكان؛ هذه السُّنَّة هي سنّة (المجازاة في الشّكر والكفر)[٥]،

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٨٨/٢.

(٢) الأنعام: ٦.

(٣) آل عمران: ١١.

(٤) النَّحل: ١١٢.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ٣٦٣/١٢.

ونقصد بسنّة المجازاة: أنّ كلّ عمل من أعمال الفرد أو المجتمع يترك آثاراً في الواقع الإنسانيّ الخارجيّ إنْ خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً؛ لأنّ الجزاء يكون من سنخ العمل، فنتيجةُ الشُكر الزّيادةُ، ونتيجةُ الكفرِ الهلاكُ والبوارُ والنُّقصانُ، وهكذا...

فكلُّ أثر في الكون والحياة هو نتيجة أعمال قام بها النّاس، وكلّ هلاك تعرَّضت له الأمم هو نتيجة ظلمها وخروجها عن السّنن الإلهيّة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[(١)].

فالله تعالى إنّما يأخذ النّاس بالعذاب لظلمهم: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٢)].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[(٣)].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[(٤)].

هكذا تتعرّض الأمم والشّعوب للهلاك نتيجة أعمالها الطّالحة، وذنوبها الفاضحة، تلك سنّة الله في الأمم الّتي تكذّب بالحقّ، وتصدّ عن سبيل الله بحربها

---

(١) هود: ١٠٢.

(٢) آل عمران: ١٧٧.

(٣) الأنبياء: ١١-١٤.

(٤) الحج: ٤٥.

للدّعاة إلى الله، وكثير من الآيات (تدلُّ على أنّه كان من سُنّة الله إنشاء قرن بعد قرن، وهدايتهم إلى الحقّ بإرسال رسول بعد رسول، وهي سنّة الابتلاء والامتحان، ومن سنّة القرون تكذيب الرّسول بعد الرّسول، ثم من سنّة الله ثانياً - وهي سنّة المجازاة - تعذيب المكذّبين، واتّباع بعضهم بعضاً)[١]؛ فكلّ الفساد الاجتماعيّ والفكريّ والسّياسيّ في المجتمع البشريّ هو النّتيجة الحتميّة لما جَنَتْهُ البشريّة بأعمالها الفاسدة، ومعارضتها لرسل الله، ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٢].

فقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ يدلُّ على أنَّ ظهور الفساد في الحياة جاء نتيجة لأعمال فاسدة أقدموا عليها كانت ذات عاقبة وخيمة عليهم؛ (بسبب أعمالهم الّتي يعملونها من شرك أو معصية)[٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ ﴾ (اللام للغاية، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السّيّئة، بل ليذيقهم نفس ما عملوا، وقد ظهر في صورة الوبال، وإنّما كان بعض ما عملوا؛ لأنَّ الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[٤])[٥].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٤/١٥.

(٢) الرّوم: ٤١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٩٦/١٦.

(٤) الشّورى: ٣٠.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ١٩٦/١٦.

وهذه السّنّة (سنّة المجازاة) جارية لا تتغيّر، ولا تتبدّل أبداً، ولا تنسخ كالأحكام، فالسُّنّة الجارية في الأولين جارية في من يأتي بعدهم، وهكذا:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(١).

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٢).

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٣).

وهكذا يتّضح لنا أنَّ سنن الله تعالى تجري في الآخرين كما جرت في الأوّلين، وأنَّ ما نزل بهم من نكال وعذاب هو نتيجة بغيهم وطغيانهم وتعدّيهم لحدود الله؛ (فكلّما بالغَ قومٌ في الإفساد وإلقاء الاضطراب بين النّاس، وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم)(٤).

إذن هذه السُّنن ليست بدعاً من الأمر، وإنّما هي قوانين تجري في الحاضرين كما جرت في السّابقين، وهي غير قابلة للنّسخ كالأحكام الّتي قد تتبدّل حسب مقتضيات الزّمان، وإنّما هي ثابتة لا تقبل التّحويل والتّبديل، ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾(٥).

إذن هلاك الأمم لم يكن (بغير جرم استحقّوا به الهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم، وفسادهم في الأرض، وإصرارهم حتّى لم يعد فيهم بقية من

---

(١) الأحزاب: ٦٢.

(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) الفتح: ٢٣.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ١٦/٣٤٠.

(٥) الإسراء: ٧٧.

قبول الحقّ، وإيثار الخير على الشرّ، بحيث لو بقوا زمناً آخر لما ازدادوا إلا ظلماً وفجوراً وفساداً كما قال نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[(١)])[(٢)].

وتأسيساً على هذا أمر الله تعالى عباده أن يتدبّروا في عواقب الأمم، وأن يسيروا في آثارهم، وينظروا في أعمالهم، ويدرسوا الحالات الّتي أدَّت إلى هلاكهم، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[(٣)].

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[(٤)].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[(٥)].

وفي وصيّة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «**أَيْ بُنَيّ، إِنّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمْرَ مَنْ كانَ قَبْلي، فَقَدْ نَظَرْتُ في أَعْمالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ في أَخْبارِهِمْ، وَسِرْتُ في آثارِهِمْ، حَتّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنّي بِما انْتَهى إِلَيَّ مِنْ أُمورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلّ أَمْرٍ نَخيلَتَهُ**»[(٦)]،

---

(١) نوح: ٢٧.

(٢) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٥٤/١٢.

(٣) الأنعام: ٦.

(٤) آل عمران: ١٣٧.

(٥) النّمل: ٦٩.

(٦) النّخيل: المختار المصفّى، وفي بعض النّسخ المطبوعة: جليله.

وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَميلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهولَهُ»[(١)].

وقبل ذلك قال له: «**أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ... واعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبارَ الْماضينَ، وَذَكِّرْهُ بِما أَصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلينَ، وَسِرْ في دِيارِهِمْ وَآثارِهِمْ، فَانْظُرْ ما فَعَلوا، وَعَمّا انْتَقَلوا، وَأَيْنَ حَلّوا وَنَزَلوا...»**[(٢)].

وهذه الكلمات تُصَوِّرُ الوعي التّأريخي العميق للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وتبيّن كيفية فهم التّأريخ كسنن جارية لا كقصص تمرّ على الذّهن مرور الكرام... بل لم يحدث شيءٌ إلا وفق سنّة طبيعيّة جارية في كلّ جوانب الحياة كسنّة التّمحيص والابتلاء، وسنّة المحق والإهلاك، وسنّة الازدهار والتّقدّم... وبهذا بيَّن الإمامُ عليه السلام الطَّريق إلى هذا الوعي، وهو: التَّفكير في أفكارهم وأعمالهم وحضارتهم، وعلى أيّ أساس قامت «**وَنَظَرْتُ في أَعْمالِهِمْ**»، والتّدبّر في أخبارهم، على ماذا ابتنت تلك الأخبار؟ وماذا كانت نتائجها؟ وبذلك يفهم السّائرُ المتفكّرُ في آثار الأوّلين عواملَ النّهوض والتّقدّم، وعوامل السّقوط والاندثار، ومن أبرزها هلاكهم بذنوبهم ﴿**فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ**﴾... فإنَّ هذا النَّصَّ في القرآن (وما يماثله، وهو يتكرّر كثيراً في القرآن الكريم.. إنَّما يقرّر حقيقةً، ويقرّر سُنَّةً، ويقرّر طرفاً من التَّفسير الإسلامي لأحداث التّأريخ..

إنَّه يقرر حقيقة أنَّ الذُّنوب تهلك أصحابها، وأنَّ الله هو الّذي يهلك المذنبين بذنوبهم؛ وأنَّ هذه سُنّة ماضية - ولو لم يرَها فردٌ في عمره القصير، أو جيلٌ في أجله المحدود - ولكنّها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذُّنوب؛

(١) نهج البلاغة: ٤١٩، كتاب: ٣١.

(٢) المصدر نفسه: ٤١٨، كتاب: ٣١.

وحين تقوم حياتها على الذُّنوب.. كذلك هي جانب من التَّفسير الإسلامي للتّأريخ: فإنَّ هلاك الأجيال، واستخلاف الأجيال من عوامله فعل الذّنوب في جسم الأمم؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدَّمار؛ إمّا بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التّأريخ القديم - وإمّا بالانحلال البطيء الفطريّ الطّبيعيّ، الّذي يسري في كيان الأمم - مع الزَّمن - وهي توغل في متاهة الذّنوب!

وأمامنا في التأريخ القريب - نسبيّاً - الشّواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقيّ، والدّعارة الفاشية، واتّخاذ المرأة فتنة وزينة، والتّرف، والرّخاوة، والتّلهّي بالنّعيم.. أمامنا الشّواهد الكافية من فعل هذا كلّه في انهيار الإغريق والرّومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفي الانهيار الّذي تتجلّى أوائله، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة، كفرنسا وإنجلترا كذلك على الرَّغم من القوّة والثّراء العريض)[1].

إنَّ دراسة التّأريخ البشريّ بوعي وعمق وتحليل لعوامل نهوض الحضارات وسقوطها يوقف الإنسان على حقائق ضخمة، ورؤية واضحة في مساره، فيستطيع من خلالها أن يتجنّب الخطأ الذي وقع فيه السّابقون، ويدرك الأمور الّتي بها تقدَّمت الحضارة ونهضت؛ وبذلك يرتقي درجة في سُلَّم الكمال الحضاري.

مُسَلَّمَتانِ أساسِيَّتانِ:

في إهلاك الأمم وفق النّظريّة القرآنيّة هناك مُسَلَّمَتانِ أساسِيَّتانِ:

الأولى: إنَّ الله لم يهلك أمّة من الأمم إلا بعد الإنذار والتّبليغ بإرسال

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١٣٢/٣ .

الرّسل والمصلحين في أوساطهم، يقول تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[1].

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[2].

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾[3].

الثّانية: إنّ الله تبارك وتعالى لا يهلك الأمم إذا غلب على أهلها حركة الإصلاح والتّغيير نحو الأحسن، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[4].

هاتان مُسَلّمتان قرآنيّتان، وهما: أنّ الله تعالى يبعث في الأمم رسلاً، وأنبياء، ومُبشّرين، ومُصلحين، وهداة إليه؛ ليثبتوا الحجّة على النّاس، فإذا تمرّدوا على أوامر الله، وعصوا الرّسل نزلت بهم عقوبة الله تعالى، وهكذا تسقط الدّول، وتباد الحضارات، وتقوم أخرى مكانها، كلّها تقع في سياق سنن الله تعالى، «**وَيُهْلِكُ مُلوكاً، وَيَسْتَخْلِفُ آخَرينَ**»[5].

(١) القصص: ٥٩.

(٢) الإسراء: ١٥-١٦.

(٣) الأنعام: ١٣٠-١٣١.

(٤) هود: ١١٧.

(٥) الشّيخ الطّوسي، مصباح المتهجّد: ٥٧٩-٥٨٠.

وإذا استقرأنا الآيات الكريمة بدقّة نجدها أنَّها قد أشارت إلى سبب الهلاك والإبادة وفق السّنن الطّبيعيّة الّتي تجري نتيجة أعمال النّاس خلافاً لشرعة الله تعالى، فإنَّ الأصلَ في الكون الصّلاحُ، وفي الإنسان السّلامة الفطريّة إلا أنَّ المخالفة لشرعة الله بالأعمال السّيّئة هي الّتي تفسد الفرد والمجتمع على السّواء، وتعرّضهما للهلاك والإبادة.

إذن ظهور المفاسد الاجتماعيّة بصورة عامّة، وفي كلّ مكان جاءت نتيجة عمل النّاس غير الصّالحين، ونتيجة تلك الأعمال هي إنزال العقوبات بحقّهم لسوء تصرّفهم، وانحرافهم عن جادّة الصّواب... وما ينزل بهم هو امتحان لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

وأمّا الأعمال الّتي تؤدّي إلى هلاك الأمم، فيمكن أن نشير إليها بالنّقاط الآتية، ونستشهد على ذلك بما نصَّ القرآن على ذلك:

أوّلاً: الظّلم بكلّ أنواعه سواء كان ظلم النّاس بعضهم لبعض، أو ظلم الحكّام للمحكومين، أو ظلم دولة لدولة... كلّ ذلك خلاف لسُنّة الله تعالى،

---

(١) الرّوم: ٤١.

(٢) السّجدة: ٢١.

(٣) الزّخرف: ٤٨.

فالعدل هو الأصل في الخليقة، والظّلم انحراف عن الجادّة الشّرعيّة.

وما أهلك الله أمّة، ولا شعباً، ولا أسقط دولة، ولا حطّم حضارةً قائمة إلا نتيجة ظلم أهلها، يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾(٢).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾(٣).

إذن سبب دمار الدّول والشّعوب وانهيارها هو الظّلم بكلّ أشكاله سواء كان ظلماً اقتصاديّاً كانتشار الرّبا، والاحتكار، وبخس الميزان، والسّرقة، والرّشوة، أو الظّلم الأخلاقي كانتشار الزنى، واللّواط، وشرب الخمور... الخ؛ وهذا عاملٌ مهمٌّ في التّحلّل الأخلاقيّ الّذي له الدّور الأهمّ في الانحطاط، وبالتّالي السّقوط والدّمار.

ومن هنا علينا أن نعي جيداً أنَّ حبلَ الظّلم قصيرٌ، وأنّه لا بقاء لظالم فرداً أو مجتمعاً أو دولة...

ثانياً: الإسراف: وهو تجاوز الحدّ الشّرعيّ في كلّ فعل يعمله الإنسان...

---

(١) يونس: ١٣.

(٢) الكهف: ٥٩.

(٣) القصص: ٥٨-٥٩.

واشْتُهِرَ ذلك في الإنفاق: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ﴾[١]، ولكنّ الإسراف لا يتوقّف عند الإنفاق بلا حدود معقولة، وإنّما يعمّ جميع الأمور؛ فلكلّ أمرٍ في حياة الإنسان حدودٌ، فإذا أسرف فقد خرج عن الحدّ الطّبيعيّ المرسوم له.

والمسرف هو المتجاوز الخارج عن طريق الصّواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾[٢]... و مثال ذلك الحذر والحيطة من العدوّ، وإعداد العدّة والعدد، فإذا تجاوز ذلك الحدّ تحوّل إلى قوّة تدميريّة لأهلها ولغيرهم، وصارت وسيلة للاعتداء والاستكبار كما نشهد اليوم في الدّول الاستعماريّة الّتي اتّخذت من التّسليح وسيلة للسيطرة، وحوّلت العالم إلى برميل من البارود لا ندري متى ينفجر، فيبيدها، ويدمّر الشّعوب الأخرى مثال هذا الإسراف: إن العالم صرف على التسلح في النصف الأول من القرن العشرين أربع ميلياردات دولار، وكان بالإمكان أن تصرف هذه الأموال للإطعام لكلّ النّاس على وجه الأرض لمدّة خمسين سنة.

ثالثاً: البطر: وهو حالة يدهش فيها العقل لكثرة النّعمة، فلا يؤدّي حقّها، وتؤدّي به إلى فقدان توازنه، فيصرفها في غير وجهها المعقول أو المشروع؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾[٣].

رابعاً: الفسوق: وهو الخروج عن حدود الشّرع المقدّس، وهو أعمّ من

---

(١) الفرقان: ٦٧ .

(٢) غافر: ٢٨ .

(٣) القصص: ٥٨ .

الكفر، ويقع بالكبير والصّغير من الذّنوب، وهو أحد عوامل التّدمير الاجتماعيّ والحضاريّ، حيث يؤدّي إلى الانحلال الأخلاقيّ، والفكريّ، والسّياسيّ، والاجتماعيّ، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[1].

والهداية والفسوق نقيضان لا يلتقيان، يقول تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[2].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ ﴾[3].

خامساً: التّكذيب بآيات الله تعالى: من خلال استقراء تأريخ الأنبياء عليهم السلام ومواجهة الظالمين لهم نرى أنّهم واجهوا حالة التّكذيب لهم من قبل النّاس بمرارة، والتّكذيب لآيات الله تعالى ورسله من أبشع أنواع الكفر، وهو يؤدّي إلى الهلاك والدّمار للأمم والشّعوب، يقول تعالى: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[4].

سادساً: الذّنوب: وهو معنى جامع لجميع المعاصي المتقدّمة وغيرها، وسمّي الذّنب ذنباً لما يترك من آثار سيّئة على الفرد والمجتمع تدمّر ما فيه، يقول تعالى: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾[5].

---

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) المائدة: ١٠٨.

(٣) السّجدة: ٢٠.

(٤) آل عمران: ١١.

(٥) الأنعام: ٦.

دَوْرُ الْمُصْلِحِينَ فِي حَيَاةِ الأُمَمِ:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1].

توضّح لنا هاتان الآيتان دور المصلحين في حياة الأمم، فلولا قيامهم بأداء مسؤوليّاتهم الكبرى في الإصلاح في الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والدّعوة إلى الله لهداية النّاس وإرشادهم، والأخذ بأيديهم إلى ساحل النّجاة لَجَرَتْ سُنَّة المحق والاستئصال على جميع الأمم؛ إلا أنَّ قيامهم بدور الإصلاح والتّغيير للواقع الفاسد إلى واقع سليم هو الّذي حمى الأمم من البوار والدمار؛ ففي كلّ مرحلة من مراحل التّأريخ لو قامت مجموعة منهم بالنّهي عن الفساد والظّلم لمّا تعرّضت البشريّة في بعض مراحلها لسُنَّةِ المحق والاستئصال، ولكن في كثير من الأحيان يعرض النّاس عن دعاة الله من الرّسل والأنبياء، ويصدّونهم عن نشر دعوة الحقّ؛ ولذلك عرّضوا أنفسهم للمحق والاستئصال كما مرَّ في عهد نوح وهود وصالح عليهم السلام.

ونفهم من الآية المتقدّمة أنَّ دور المصلحين هو حماية الأمم والشّعوب من الظّلم والظالمين؛ ولهذا فإنَّ الوقوفَ بوجه الظّالمين واجبٌ في دين الله، وأنَّ وجود المعارضين لخطّ الأنبياء والمصلحين أمرٌ لا بدّ منه، وأنَّ الصّراعَ قائمٌ ومستمرٌّ إلى يوم القيامة ما دام هناك حقٌّ وباطل، وما دام هناك دعاةٌ إلى الهدى، ودعاةٌ إلى الضّلال لاهثين وراء الهوى، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ

(١) هود: ١١٦-١١٧.

﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾(١).

(وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمرٌ طبيعيٌّ. فدعوة الحقّ إنّما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشريّة. فساد في القلوب، وفساد في النّظم، وفساد في الأوضاع، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون، الّذين ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلّونه من ناحية، والّذين تتّفق مشاربهم مع هذا الفساد، وتتنفّس شهواتهم في جوّه الوبيء. والّذين يجدون فيه سنداً للقيم الزّائفة الّتي يستندون هم في وجودهم إليها.. فطبيعيٌّ إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدّعوات دفاعاً عن وجودهم، واستبقاءً للجوّ الّذي يملكون أن يتنفّسوا فيه)(٢).

إنّ سبب المعارضة لخطّ الرّسالة الإلهيّة على طول التّأريخ هي الحالة التَّرَفِيَّةُ الّتي يعيشها الطّغاة، ومحاولتهم الحفاظ عليها باستغلال خيرات الأرض، وحرمان الآخرين منها، والاستعلاء عليهم بها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٣).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾(٤).

ففي هذه الآيات بيانٌ واضحٌ لسبب المعارضة لرسل الله، وهي حالة التّرف السّائدة بينهم، ومحاولة خداع النّاس أنّهم على دين آبائهم وأجدادهم.

والتّرف حالة استرخاء عقليّ وفكريّ، وميوعة نفسيّة تتولّد من حالة

---

(١) الفرقان: ٣١.

(٢) في ظلال القرآن: ١٥٩/٦.

(٣) سبأ: ٣٤.

(٤) الزُّخرف: ٢٣.

الاستغراق في النّعم الماديّة، بحيث ينسى فيها الإنسان دوره المناط فيه في الحياة الدُّنيا، فلا يعرف إلا عرشه وكرشه وشهواته، فإذا أحسَّ بخطر يداهم ذلك وقف بقوّة وتجبّر، وتجاوز كلّ الحدود الأخلاقيّة والقانونيّة من أجل الحفاظ على الحالة التّرفيّة الّتي يعيشها؛ ولهذا نرى الطّغاة في مقاومتهم لرسالة الله على مختلف الأصعدة يحتجون بأن الأنبياء والمصلحين لا يملكون الأموال، والقصور، والجاه العريض، ولا الكنوز، والحدائق الغنّاء؛ ليؤمنوا بهم؛ فهم يحسبون قيمة الإنسان بما يملك من مال وسلطان، لا بما يحمل من ملكات نفسيّة عالية، وأخلاقيّة سامية: كالعدل، والعطف، والرَّحمة.

وقد صوَّر لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحالة في حديثه عن دخول موسى عليه السلام على فرعون؛ ليدعوه إلى الله، يقول عليه السلام: «**وَلَقَدْ دَخَلَ موسى بْنُ عِمْرانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هارُونُ عليهما السلام عَلى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِما مَدارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْديهِما الْعِصِيُّ، فَشَرَطا لَهُ - إِنْ أَسْلَمَ - بَقاءَ مُلْكِهِ، وَدَوامَ عِزِّهِ، فَقالَ: أَلا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطانِ لِي دَوامَ الْعِزِّ، وَبَقاءَ الْمُلْكِ، وَهُما بِما تَرَوْنَ مِنْ حالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَساوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ! إِعْظاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ**»[1].

ومن هنا نفهم من الآيات المتقدّمة الموضوعات الآتية:

أوّلاً: إنَّ النهي عن الفساد واجبٌ شرعيٌّ على كلّ قادر عليه، بل مقاومته واجتثاثه ضرورة لا غنى عنها بحال، وأنَّ السُّكوت والتَّقاعس عن مقاومة الباطل والضّلال والكفر والنّفاق، وكلّ أنواع الفساد الأخلاقيّ والفكريّ والسّياسيّ، هو

(١) نهج البلاغة: ٣٢٠، خطبة: ١٩٢.

السّبب الرّئيس في هلاك الأمم بصورة عامّة، يقول تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[1].

فسبب اللّعن والطّرد من رحمة الله تعالى هو تركهم التّناهي عن المنكر؛ ولهذا فإنّ الأمّة الّتي تتقاعس عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لا قدسيّة لها ولا كرامة[2]، ولا بد وأن تتعرّض لسخط الله ولعنته؛ فعن الإمام العسكريّ عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن النّبيّ صلى الله عليه وآله في حديث قال: «**لَقَدْ أَوْحى اللهُ إلى جبْرَئيلَ، وأَمَرَهُ أَنْ يَخْسِفَ بِبَلَدٍ يَشْتَمِلُ عَلى الْكُفّارِ والْفُجّار، فَقالَ جبْرَئيلُ: يا رَبِّ، أَخْسِفُ بهِمْ إلا بفُلانٍ الزّاهِدِ؛ لِيَعْرُفَ ماذا يَأْمُرُهُ اللهُ فيهِ، فَقالَ: اخْسِفْ بفُلانٍ قَبْلَهُمْ، فَسأَلَ رَبَّهُ، فَقالَ: يا رَبِّ، عَرِّفْني لِمَ ذلِكَ وَهُوَ زاهِدٌ عابِدٌ؟ قالَ: مَكَّنْتُ لَهُ، وأَقْدَرْتُهُ، فَهُوَ لا يَأْمُرُ بِالْمَعْروفِ، ولا يَنْهى عَنِ الْمُنْكَرِ، وكانَ يَتَوَفَّرُ عَلى حُبِّهِمْ في غَضَبي**»، فَقالوا: «يا رَسولَ الله، فَكَيْفَ بنا، ونحن لا نقدر على إنكار ما نشاهده من منكر؟»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْروفِ، ولَتَنْهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَعِمَّنَّكُمْ عذابُ الله**»، ثمّ قال: «**مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُنْكِر بيَدِه إنِ اسْتَطاعَ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، فَحَسْبُهُ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ لِذلِكَ كارِهٌ**»[3].

---

(١) المائدة: ٧٨-٧٩.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... فَإنّي سَمِعْتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يَقولُ في غَيْرِ مَوْطِنٍ: لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ» نهج البلاغة: ٤٦٠، كتاب: ٥١.

(٣) وسائل الشّيعة: ١١/ ٤٠٦.

إذن نجاة الأمم وسعادتها لا تتحقّق إلا بالنّهي عن السوء والمنكر والأمر بالمعروف، والله تعالى يُنَجّي الّذين ينهون عن السّوء، ويأخذ الّذين ظلموا بعذاب بئيس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].

ثانياً: ليس المعيار بالقلّة والكثرة: فقد يبرّر بعض النّاس قعوده عن مواجهة تيّارات الظّلم بقلّة عدد المؤمنين، وكثرة المخالفين للحقّ، وفي تصوّر هؤلاء أنَّ القلّة والكثرة في الوسط الاجتماعيّ هي المقياس والمعيار في وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والحقيقة أنَّ هذا التّصوّر مخالف لشريعة الله وسنة رسول الله ﷺ، فنحن إذا رجعنا قليلاً إلى سيرة رسول الله ﷺ نجده قد واجه قريش بتلك الثُّلّة المؤمنة القليلة العدد، وبها أسقط الإمبراطوريّتين الفارسيّة والرّوميّة، وأنشأ دولة الإسلام، ومن بعده أهل بيته الطّاهرين عليهم السلام لا سيّما سبطه سيد الشّهداء عليه السلام، فقد أبطل كلّ تصورات التّبرير بموقفه العظيم يوم الطّفّ، وواجه بتلك القلّةِ القليلةِ جيوشَ الشّرك والنّفاق، وأعطى دروساً لن يزول أثرها إلى يوم القيامة... وهذا هو ديدن العظماء على طول خط التّأريخ، فأهل الحقّ والخير دائماً هم قلّة، وبهذه القلّة يدفع الله البلاء عن البشريّة أجمع، ويصلح شأنها... وإذا اختفت هذه القلّة تعرّض المجتمع إلى البلاء المبرم، والعذاب الشّديد، وربّما إلى المَحْق والاستئصال، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

---

(١) الأعراف: ١٦٤-١٦٥.

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[(٢)].

إذن بهذه القلّة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر يحمي الله تبارك وتعالى كل البشرية، ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يُصَلّي مِنْ شيعَتِنا عَمَّنْ لا يُصَلّي مِنْ شيعَتِنا، وَلَوْ أَجْمَعوا عَلى تَرْكِ الصَّلاةِ لَهَلَكوا، وَإِنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَصومُ مِنْهُمْ عَمَّنْ لا يَصومُ مِنْ شيعَتِنا، وَلَوْ أَجْمَعوا عَلى تَرْكِ الصِّيامِ لَهَلَكوا، وَإِنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يُزَكّي مِنْ شيعَتِنا عَمَّنْ لا يُزَكّي مِنْ شيعَتِنا، وَلَوْ أَجْمَعوا عَلى تَرْكِ الزَّكاةِ لَهَلَكوا، وَإِنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَحُجُّ مِنْ شيعَتِنا عَمَّنْ لا يَحُجُّ، وَلَوْ أَجْمَعوا عَلى تَرْكِ الْحَجّ لَهَلَكوا، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾**»[(٣)].

فلو كانت القلّة والكثرة هي المعيار في المواجهة بين الحقّ والباطل لوجب على الأنبياء والمرسلين وجميع المصلحين أن يتوقّفوا عن سيرهم وحركتهم، ولتركوا الحبل على الغارب، وهذا لم يفعله أحدٌ منهم أبداً.

---

(١) البقرة: ٢٥١.

(٢) الحجّ: ٤٠.

(٣) تفسير العيّاشي: ١/١٥٥.

إذن فليست الكثرة هي الغالبة، ولا القلّة هي المخذولة دائماً، وقد قال الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

الإِثْمُ الظّاهِرُ وَالْباطِنُ:

يقول تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾[2].

للمفسرين أقوال مختلفة في تفسير الإثم الظاهر والإثم الباطن، فقيل: أن الظاهر أفعال الجوارح، والباطن أفعال القلوب، وقيل الظاهر هو الزنا والباطن اتخاذ الأخدان، وقيل الظاهر المعصية في العلانية، والباطن ما يعمل في السر.

وقال السّيّد الطّباطبائي: «إنّ المراد بظاهر الإثم: المعصية الّتي لا ستر على شؤم عاقبته، ولا خفاء في شناعة نتيجته، كالشّرك، والفساد في الأرض، والظّلم، وبباطن الإثم ما لا يُعرف منه ذلك في بادئ النّظر كأكل الميتة والدّم ولحم الخنزير، وإنّما يتميّز هذا النّوع بتعريف إلهي، وربّما أدركه العقل، هذا هو الّذي يعطيه السّياق من معنى ظاهر الإثم وباطنه»[3].

اسْتِصْغارُ الذَّنْبِ:

من أخطر المخاطر على مستقبل الإنسان الدّنيوي والأخروي هو استصغار الذّنوب، وهو النّظر إلى الصَّغيرة منها على أنّها لا أهميّة لها، أو أنّه يتمنّى لو لم

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) الأنعام: ١٢٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٣/٧.

يؤاخذ إلا بها[١]؛ فإن هذا يُحَوّل الذّنوب الصّغيرة إلى آثام كبيرة، ورد في حديث زيد الشّحام قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **اتَّقوا الْمُحَقَّراتِ مِنَ الذُّنوبِ؛ فَإِنَّها لا تُغْفَرُ**، قلت: ما المُحَقَّرات؟ قال: **الرَّجُلُ يُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيَقولُ: طوبى لي لَوْ لَمْ يَكُنْ لي غَيْرَ ذلِكَ**»[٢].

ومن هنا ورد الحثّ المتواصل للمؤمنين أن ينظروا إلى الأعمال الصّالحة بالاستقلال مهما كَثُرَتْ؛ وقد نبّه رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه على ذلك بمثال دقيق.

جاء عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله نَزَلَ بأَرْضٍ قَرْعاءَ، فَقالَ لأَصْحابِهِ: ائْتوا بِحَطَبٍ، فَقالوا: يا رَسولَ الله، نَحْنُ بَأَرْضٍ قَرْعاءَ، ما بها مِنْ حَطَبٍ، قالَ: فَلْيَأْتِ كُلُّ إنْسانٍ بما قَدَرَ عَلَيْهِ فَجاؤوا بِهِ حَتّى رَمَوا بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ، فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: هكَذا تَجْتَمِعُ الذُّنوبُ، ثُمَّ قالَ: إيّاكُمْ وَالْمُحَقَّراتِ مِنَ الذُّنوبِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ طالِباً، أَلا وَإِنَّ طالِبَها يَكْتُبُ ﴿مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٣]**»[٤].

صَيْرورَةُ الصّغائِرِ كَبائِرَ:

ذكر العلماءُ أنَّ الذُّنوب الصَّغائر تصير ذنوباً كبيرة في حالات:

(منها): الإصرار على الذّنب بمعنى تكراره، يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «لا

---

(١) فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**مِنَ الذُّنوبِ الّتي لا تُغْفَرُ قَوْلُ الرَّجُلِ: يا لَيْتَني لا أُؤاخَذُ إلا بِهذا**»، كتاب الخصال للشّيخ الصّدوق: ٢٤/١.

(٢) الكافي: ٧٠٥/٣-٧٠٦، ح/٢٤٦٧.

(٣) يس: ١٢.

(٤) الكافي: ٧٠٦/٣-٧٠٧، ح/٢٤٦٩.

صَغيرَةَ مَعَ الإصْرارِ، وَلا كَبيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفارِ»[١].

(ومنها): استصغار الذّنب الصّغير عند ربّ كبير؛ ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن ينظر إلى معصيته بمقدار ما ينظر إلى من عصى، فمن يعرف عظمة الله تعالى، ويشعر برقابته، ويحسّ بهيمنته لا يستصغر ذنباً يفعله في حضرته.

(ومنها): السّرور والارتياح بفعل الصّغيرة، وإظهار الفرح بها دون أن يندم، ويأسف على ذلك، وهذا يعبّر عن مدى خسّة النَّفس ورذالتها.

(ومنها): عدم التّستّر على المعصية والتّجاهر بها.

(ومنها): (أن يكون مرتكب الصّغيرة عالماً كبيراً يقتدي به النّاس، فارتكابه للصّغيرة يصير سبباً لإشاعة المنكر، حيث إنَّ النّاس يتّبعونه ويقتدون به، فيصير هذا المنكر الصّغير في نظرهم معروفاً)[٢].

تَقْسيمٌ آخَر لِلذُّنوبِ مِنْ حَيْثِ التَّأْثير:

١- الذُّنوب الّتي تهتك العصم:

إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل على الإنسان جنن تستر عوراته، فإذا ما أذنب هتكت بعض تلك العصم حتى يتجرّد، قال الشّيخ المجلسي: «قوله عليه السلام: «**الّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ**» المراد به إمّا رفع حفظ الله وعصمته عن الذّنوب بالتّخلية بينه وبين الشَّيطان والنّفس، وإمّا برفع ستره الّذي ستره به عن الملائكة والثّقلين كما في الأخبار: «**أَنَّ اللهَ تَعالى يَسْتُرُ عَبْدَهُ بِسِتْرٍ حَتّى إذا تَمادى في**

(١) الكافي: ٧٠٨/٣، ح/٢٤٧٠.

(٢) السّيّد البجنوردي، القواعد الفقهيّة: ٣٦٦/٧.

الْمَعاصي، يَقولُ اللهُ تَعالى: ارْفَعوا السِّتْرَ عَنْهُ، فَيَفْضَحَهُ وَلَوْ في جَوْفِ بَيْتِهِ، وَيلْعَنَهُ مَلائِكَةُ السَّماءِ وَالأَرْضِ»، والحمل على الأوّل أولى؛ ليكون كشف الغطاء تأسيساً»[(١)].

وأما أنواع الذّنوب الّتي تهتك العصم، فقد جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «**الذُّنوبُ الّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ: شُرْبُ الْخَمْرِ، وَاللَّعِبُ بِالْقِمارِ، وَتَعاطي ما يُضْحِكُ النَّاسَ مِنَ اللَّغْوِ وَالْمُزاحِ، وَذِكْرُ عُيوبِ النّاسِ، وَمُجالَسَةُ أَهْلِ الرَّيبِ**»[(٢)].

٢- الذُّنوب الّتي تنزل النّقم:

إنّ لله تعالى أوامر ونواهي، وقد أراد من عباده أن يستجيبوا لأوامره، وينتهوا عن نواهيه، فإذا لم يفعلوا نَقِمَ عليهم لذنوبهم الّتي خالفوا بها أوامره تعالى، ورد في الحديث الشّريف عن الإمام الرِّضا عليه السلام: «**أَوْحى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إلى نَبيّ مِنَ الأَنْبياء: إذا أُطِعْتُ رَضيتُ، وَإِذا رَضيتُ بارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتي نِهايَةٌ، وَإِذا عُصيتُ غَضِبْتُ، وَإِذا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتي تَبْلُغُ السّابِعَ مِنَ الْوَراءِ**»[(٣)].

كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ظُلْمُ الْيَتامى وَالأَيامى يُنْزِلُ النِّقَمَ، وَيَسْلُبُ النّعَمَ أَهْلَها**»[(٤)].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٥٣/٨٧.

(٢) معاني الأخبار: ٢٧١.

(٣) الكافي: ٦٨١/٣، ح/٢٤٣٦.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٠٩، ح/٩٤٠٣.

٣- **الذُّنوب الّتي تغيّر النّعم**: تقدّم البحث عنها.

٤- **الذُّنوب الّتي تحبس الدّعاء**: ورد فيها أنَّ الذَّنب الّذي يحبس الدُّعاء هو عقوق الوالدين، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**الذُّنوبُ... الّتي تَرُدُّ الدُّعاءَ وَتَظْلِمُ الْهَواءَ عُقوقُ الْوالِدَيْنِ**»[1].

وفي رواية أخرى عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وَالذُّنوبُ الّتي تَرُدُّ الدُّعاءَ: سوءُ النِّيَّةِ، وَخُبْثُ السَّريرَةِ، وَالنِّفاقُ مَعَ الإخْوانِ، وَتَرْكُ التَّصْديقِ بالإجابَةِ، وَتَأْخيرُ الصَّلَواتِ الْمَفْروضاتِ حَتّى تَذْهَبَ أَوْقاتُها، وَتَرْكُ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَةِ، وَاسْتِعْمالُ الْبِذاءِ، وَالْفُحْشِ في الْقَوْلِ**»[2].

وُجوبُ التَّوَقّي مِنَ الذُّنوبِ:

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[3].

إنَّ الإنسانَ في كلّ لحظة معرّضٌ لارتكاب الذّنوب، فهو عرضة لكلّ عارض؛ لذلك فهو بحاجة شديدة إلى يقظة دائمة، وفطنة قائمة، وحجاب يحجب بينه وبين ارتكاب الذّنوب، فلا بد أن يكون مراقباً لنفسه، ماسكاً بزمامها، أعني إخضاع جماح النَّفس لحكومة العقل، أي أن يكون الإنسان عارفاً بحيل

(١) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٧٦٧/٢.

(٢) معاني الأخبار: ٢٧١.

(٣) غافر: ٩.

النَّفس؛ ليكون العقل هو الجهاز المسيطر على الغرائز - فإنَّ النّفس في كثير من الأحيان تدخل صاحبها في زوايا الخداع والتّبرير - وليكون ذا مناعة قويّة تجعله في مأمن من هجوم الجراثيم المعنويّة، هذه المناعة هي (**التَّقوى**)؛ ولذلك جاء عن أبي عبد الله عليه السلام: «**اتّقوا الْمُحَقَّراتِ...**» كما تقدّم.

ويقول صلى الله عليه وآله: «**عَجَبٌ لِمَنْ يَحْتَمي مِنَ الطَّعامِ مَخافَةَ الدّاء، كَيْفَ لا يَحْتَمي مِنَ الذُّنوبِ مَخافَةَ النّار**»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**تَوَقّوا الذُّنوبَ، فَما مِنْ بَلِيَّةٍ، وَلا نَقْصِ رِزْقٍ إلا بِذَنْبٍ حَتّى الْخَدْش وَالْكَبْوَة وَالْمُصيبَة، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾**[٢]»[٣].

وعنه عليه السلام: «**اتَّقوا مَعاصِيَ اللهِ في الْخَلَواتِ؛ فَإِنَّ الشّاهِدَ هُوَ الْحاكِمُ**»[٤].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٤٧، ح/٢٦٥، وترتيب الأمالي: ٦٦١/٦، ح/٣٦٠٤.

(٢) الشّورى: ٣٠.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٦١٦/٢.

(٤) نهج البلاغة: ٥٤٠، قصار الحكم: ٣١٥.

الْمَصادِرُ وَالْمَراجِعُ:

١- القرآن الكريم، كتاب الله تعالى.

٢- أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرّسالة الإسلاميّة، مجموعة من محاضرات ومقالات سماحة آية الله العظمى الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر قدس سره، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر قدس سره، انتشارات دار الصّدر، الطّبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

٣- آثار الذُّنوب.

٤- آداب الصّلاة، الإمام الخمينيّ، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ، الشّؤون الدّوليّة، طهران.

٥- الآداب المعنويّة للصّلاة، الإمام الخمينيّ، ترجمة: العلامة أحمد الفهريّ، دار طلاس، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٦- الاحتجاج، الشّيخ الطّبرسي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، النّجف الأشرف، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٧- إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ (٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٨- الاختصاص، الشّيخ المفيد (٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، السّيّد

محمود الزّرندي، دار المفيد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٩- اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّي)، الشّيخ الطّوسي، تصحيح وتعليق: المعلّم الثّالث: مير داماد الأسترابادي، تحقيق: السّيّد مهدي الرّجائيّ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، ١٤٠٤هـ.

١٠- الأخلاق عند الإمام الصادق عليه السلام، آية الله العظمى الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، نشر وتوزيع: مؤسّسة الشّيخ محمّد أمين زين الدّين قدس سره للمعارف الإسلامية، النّجف الأشرف، دار الأميرة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١١- الأربعون حديثاً، الإمام الخمينيّ، تعريب: السّيّد محمد الغرويّ، مؤسسة دار الكتاب الإسلاميّ.

١٢- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشّيخ المفيد (٤١٣هـ) ، نشر وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٣- أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ابن الأثير (٦٣٠هـ)، تحقيق وتعليق: محمّد ابراهيم البنّا، محمّد أحمد عاشور، محمود عبد الوهّاب فايد، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م.

١٤- الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته، آية الله العظمى الشّيخ محمّد أمين زين الدّين، نشر وتوزيع: مؤسّسة الشّيخ زين الدّين قدس سره للمعارف الإسلاميّة، النّجف الأشرف، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٥- أصول علم النّفس، دكتور أحمد عزّت راجح، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطّبعة السّابعة، ١٩٦٨م.

١٦- أعلام الدّين في صفات المؤمنين، الحسن بن محمّد الدّيلمي، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم.

١٧- أعيان الشّيعة، السّيّد محسن الأمين، حقّقه وأخرجه: حسن الأمين، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت.

١٨- إقبال الأعمال، السّيّد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٩- اقتصادنا، الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر، النّاشر: دار الصّدر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٢٠- الأمالي، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدّراسات الإسلاميّة، مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢١- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، مؤسّسة البعثة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٢٢- الإنسان ذلك الكائن الفريد، جون لويس، ترجمة: الدّكتور صالح جواد الكاظم، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٦م.

٢٣- الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل، تعريب: شفيق أسعد فريد، منشورات: مؤسّسة المعارف، بيروت.

٢٤- أنصار الحسين، الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، الدّار الإسلاميّة، بيروت، الطبعة الثّانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٢٥- أوصاف الأشراف، الشّيخ نصير الدّين الطّوسي، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثّقافيّة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٢٦- بحار الأنوار، المحدّث الشّيخ محمّد باقر المجلسي (١١١١هـ)، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الرابعة، ١٣٦٢هـ. ش.

٢٧- البلد الأمين والدّرع الحصين، الشّيخ تقيّ الدّين الكفعميّ (٩٠٠هـ)، قدّم له وعلّق عليه: علاء الدّين الأعلمي، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م .

٢٨- البيان والتّبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة السّابعة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٩- تاريخ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبري (٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التّراث، بيروت.

٣٠- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: محبّ الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣١- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

٣٢- التّبيان في تفسير القرآن، شيخ الطّائفة الطّوسي (٤٦٠هـ)، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان.

٣٣- تحف العقول عن آل الرّسول، ابن شعبة الحرّاني، منشورات المكتبة والمطبعة الحيدريّة في النّجف، الطّبعة الخامسة، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.

٣٤- التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم، المحقّق المفسّر العلامة المصطفويّ، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، القاهرة، لندن، دار الكتب

العلمية بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٣٥- تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ)، مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

٣٦- ترتيب الأمالي، الشّيخ محمّد جواد المحمودي، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، الطبعة الثّانية، ١٤٣٠هـ.

٣٧- تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي، المحقّق: مصطفى الدّرايتي، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى.

٣٨- تفسير بيان السّعادة في مقامات العبادة، سلطان علي شاه، ترجمة: محمّد رضا خاني، حشمت الله رياضي، مركز جامعة بيام نور للطّباعة والنّشر، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٩- تفسير العيّاشي، المحدّث محمد بن مسعود ابن عياش، تصحيح وتعليق: السّيّد هاشم الرّسولي المحلاتي، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٤٠- تفسير القرآن الكريم، صدر المتألّهين صدر الدّين الشّيرازيّ، انتشارات بيدار، قم، الطّبعة الثّانية.

٤١- تفسير القمي، عليّ بن إبراهيم القمّي، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف - قم المقّدسة، الطّبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.

٤٢- التّفسير الكبير، الفخر الرّازي، الطّبعة الثّالثة.

٤٣- تفسير المراغي، أحمد المراغي، دار الفكر.

٤٤- تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق: د. عبد الله محمود شحاتة، مؤسّسة التّأريخ العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤٥- تفسير المنار، محمّد رشيد رضا، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

٤٦- تفسير من وحي القرآن، آية الله العظمى السّيّد محمد حسين فضل الله، دار الملاك، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٤٧- تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر، (مجموعة ورّام)، ورّام ابن أبي فراس المالكيّ (٦٠٥هـ)، مكتبة الفقيه، قم، إيران.

٤٨- التّوحيد، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: المحقّق البارع: السّيّد هاشم الحسيني الطّهرانيّ، مؤسسة النّشر الإسلامي التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ١٣٩٨هـ.

٤٩ – ثقافة الدّعوة الإسلاميّة، منشورات «حزب الدّعوة الإسلاميّة»، الطّبعة الثّانية، ١٤٠١هـ.

٥٠- جامع السّعادات، الشّيخ محمد مهدي النّراقي (١٢٠٩هـ)، تصدّى لنشره والتّعليق عليه وتصحيحه: السّيّد محمّد كلانتر، منشورات جامعة النجف الدّينية، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م.

٥١- الجامع الصّغير في أحاديث البشير النّذير، جلال الدّين السّيوطي (٩١١هـ)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٥٢- الجامع لأحكام القرآن، محمّد بن أحمد القرطبيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٥٣- جهان بيني إسلامي للمفكّر الإسلامي الشّهيد مرتضى مطهّري قدس سره باللّغة الفارسية.

٥٤- الجواهر السّنيّة في الأحاديث القدسيّة، الحرّ العاملي (١١٠٤هـ)، نشر يس، الطّبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٥٥- الحرب النّفسيّة معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، الطّبعة الثّانية، ١٩٦٧م.

٥٦- الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ، د.حامد ربيع، دار واسط للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بغداد، ١٩٨٩م.

٥٧- دراسة في المشاكل الأخلاقيّة والنّفسيّة، مجتبى الموسويّ اللاريّ، تعريب: محمّد هادي اليوسفي الغرويّ، مطابع مكتب نشر الثّقافة الإسلاميّة، الطّبعة الثّالثة، محرّم، ١٤٠٥هـ.

٥٨- الدّرجات الرّفيعة في طبقات الشّيعة، السّيد علي خان الشّيرازي (١١٣٠هـ)، مؤسّسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٥٩- الدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، جلال الدّين السّيوطي (٩١١هـ)، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

٦٠- الدّعاء عند أهل البيت عليهم السلام (رسائل في الدّعاء والعرفان عند أهل البيت عليهم السلام)، الشّيخ محمّد مهدي الآصفي، مراجعة: جمع من المحقّقين، مركز الطّباعة والنّشر التّابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٦١- دعائم الإسلام، القاضي النّعمان المغربي (٣٦٣هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م.

٦٢- ديوان الإمام الشّافعي، اعتنى به: عبد الرّحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٦٣- ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتّعليق عليه: حسن كامل

الصّيرفي، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة الثّالثة.

٦٤- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدّم له: الأستاذ علي حسن فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٦٥- ديوان عنترة بن شدّاد، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٦٦- ذكرى الشّيعة في أحكام الشّريعة، الشّهيد الأول (٧٨٦هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٧- الذّنوب الكبيرة، السّيّد عبد الحسين دستغيب، ترجمة: صدر الدّين القبّانچي، مؤسّسة دار الكتاب للطّباعة والنّشر، قم، ١٤٠٤هـ.

٦٨- رسائل الشّهيد الثّاني قدس سره، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

٦٩- رسالة لب اللّباب في سيرة وسلوك أولي الألباب، السّيّد محمد حسين الطّهراني، ترجمة ونشر: دار الاعتصام، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٧٠- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات، الميرزا محمّد باقر الخوانساري، عنيت بنشره مكتبة إسماعيليان، قم، إيران، ١٣٩٠هـ.

٧١- روضة الواعظين، الفتّال النّيسابوري (٥٠٨هـ)، منشورات الرّضي، قم.

٧٢- سرّ الصّلاة معراج السّالكين وصلاة العارفين، الإمام الخمينيّ، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قدس سره، قسم الشّؤون الدّوليّة، الطّبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٧٣- سنن ابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

٧٤- سنن التّرمذيّ (٢٧٩هـ)، تحقيق وتصحيح: عبد الوهّاب عبد اللّطيف، دار الفكر للطّباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٧٥- سنن النّبيّ ﷺ، العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائي، مع ملحقات الشّيخ محمّد هادي الفقهي، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٢هـ.

٧٦- السّيرة النّبويّة، ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الرّائد العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٧٧- السّيرة النّبويّة، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السّقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت.

٧٨- الشخصيّة النّاجحة، يوسف ميخائيل أسعد، نهضة مصر، القاهرة.

٧٩- شرح ديوان المتنبّي، عبد الرّحمن البرقوقي، المطبعة الرّحمانية بمصر، ١٣٤٨هـ، ١٩٣٠م.

٨٠- شرح رسالة الحقوق، السيد حسن القبّانچي، مؤسّسة إسماعيليان للطّباعة والنّشر، قم، ١٤٠٦هـ.

٨١- شرح صحيح مسلم، النّووي (٦٧٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٨٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

٨٣- شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة، الدّكتور أحمد سامي زكي منصور، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثّانية والثّلاثون، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٨٤- الشّيخ الأنصاري وتطوّر البحث الأصولي، تحقيق ونشر: مؤسسة النّشر الإسلامي، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٨٥- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٨٦- صحيفة الإمام، تراث الإمام الخمينيّ قدس سره، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قدس سره، الشّؤون الدّوليّة، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٨٧- الصّحيفة السّجاديّة الكاملة، من إنشاء الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، بتحقيق وتنسيق: علي أنصاريان، سفارة الجمهوريّة الإسلامية الإيرانيّة، دمشق، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩.

٨٨- صفات الشّيعة، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، كانون انتشارات عابدي، طهران.

٨٩- صلح الحسن عليه السلام، الإمام الشّيخ راضي آل ياسين، الطّبعة الثّالثة، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٩٠- الطّبقات الكبرى، محمّد بن سعد (٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت.

٩١- عالم الأرواح، محمّد عبد الهادي حيدر، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٢م.

٩٢- عبد الصّاحب دخيل سيرة قائد وتأريخ مرحلة، فائق عبد الكريم، دار العارف، بيروت، ٢٠٠١م.

٩٣- عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي، ابن فهد الحلّي (٨٤١هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، إيران، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٥هـ.

٩٤- علل الشرائع، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، انتشارات كلمة الحق، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٩٥- عمدة القاري، العيني (٨٥٥هـ)، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

٩٦- عوالئ اللّئالي العزيزيّة في الأحاديث الدّينية، ابن أبي جمهور الإحسائيّ، تحقيق: الحاج آقا مجتبى، مطبعة سيّد الشّهداء، قم، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٩٧- عيون أخبار الرِّضا عليه السلام، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، عني بتصحيحه وتذييله: الأستاذ الفاضل السّيّد مهدي الحسينيّ اللاجورديّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٣هـ. ش.

٩٨- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق: الدّكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٩٩- الفتاوى الواضحة، آية الله العظمى الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر قدس سره، انتشارات دار الصّدر، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ.

١٠٠- الفروق اللّغويّة، أبو هلال العسكري، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

١٠١- فلاح السّائل، السّيد ابن طاووس (٦٦٤هـ)، مركز الإعلام الإسلاميّ، قم المقدّسة.

١٠٢- فلسفتنا، آية الله العظمى الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالميّ للإمام الشّهيد الصّدر قدس سره، انتشارات دار الصّدر، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ.

١٠٣- الفوائد الرّجاليّة (رجال السّيّد بحر العلوم)، آية الله العظمى السّيّد محمّد المهدي بحر العلوم، حقّقه وعلّق عليه: محمّد صادق بحر العلوم، حسين

بحر العلوم، منشورات مكتبة الصّادق، طهران، ايران.

١٠٤- في رحاب القرآن، آية الله الشّيخ محمّد مهدي الآصفي، مركز الطّباعة والنّشر التّابع لمكتب الإعلام الإسلامي، الطّبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٠٥- في رحاب نهج البلاغة، الشّهيد الشّيخ مرتضى مطهّري، ترجمة: هادي اليوسفي، دار التّبليغ الإسلامي، ودار التّعارف للمطبوعات، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٠٦- في ظلال القرآن ، سيّد قطب، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

١٠٧- قرب الإسناد، الشّيخ الحميري، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٠٨- القواعد الأساسيّة للغة العربيّة، أحمد الهاشمي، دار الفكر.

١٠٩- القواعد الفقهيّة، السّيّد محمّد حسن البُجنوردي، تحقيق: مهدي المهريزي، محمد حسين الدّرايتي، انتشارات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١١٠- القواعد والفوائد، الشّهيد الأوّل (٧٨٦هـ)، تحقيق: السّيّد عبد الهادي الحكيم، منشورات مكتبة المفيد، قم، إيران.

١١١- الكافي، ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ)، تحقيق ونشر: قسم إحياء التّراث، مركز بحوث دار الحديث، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٤هـ

١١٢- كتاب الأمالي، شيخ الطّائفة الطّوسي (٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: بهراد الجعفري، وعلي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة

الأولى، ١٣٨٠هـ.ش .

١١٣- كتاب الخصال، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، ١٤٠٣هـ.

١١٤- كتاب الوافي، الفيض الكاشانيّ، التّحقيق والتّعليق والتّصحيح والمقابلة مع الأصل: ضياء الدّين الحسيني، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أصفهان، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١١٥- الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، محمود بن عمر الزّمخشري (٥٢٨هـ)، رتّبه وضبطه وصحّحه: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١١٦- كشكول البهائي، الشّيخ البهائي، دار المرتضى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١١٧- كنز العمّال في سنين الأقوال والأفعال، المتّقي الهندي (٩٧٥هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١١٨- كنز الفوائد، أبو الفتح الكراجكي (٤٤٩هـ)، مكتبة المصطفوي، قم، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٩هـ ش.

١١٩- كيف تتعامل مع النّاس، ديل كارنيجي، الأهلية للنّشر والتّوزيع، عمان، المملكة الأردنيّة الهاشميّة، الطّبعة العربيّة الأولى، ٢٠٠١م.

١٢٠- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.

١٢١- مباحث الأصول، تقريراً لأبحاث سماحة آية الله العظمى الشّهيد

السّيّد محمّد باقر الصّدر، السّيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ، مطبعة مركز النّشر، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٢- المجازات النّبويّة، الشّريف الرّضي (٤٠٦هـ)، علّق عليه ووضع حواشيه: كريم سيّد محمّد محمود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

١٢٣- مجمع البحرين، الشّيخ فخر الدّين الطّريحي (١٠٦٥هـ)، تحقيق: السّيّد أحمد الحسيني، المكتبة المرتضويّة، طهران، ١٣٦٢هـ. ش.

١٢٤- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسيّ، دار المعرفة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٢٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ابن حجر الهيثميّ (٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

١٢٦- المحاسن، أحمد بن محمّد البرقيّ، تحقيق: السّيّد مهدي الرّجائي، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٢٧- المحاسن والأضداد، عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، حقّقه وقدّم له: فوزي عطوي، ١٩٦٩م.

١٢٨- محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء، الرّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، انتشارات المكتبة الحيدريّة، قم المقدّسة، ١٤١٦هـ.

١٢٩- المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، الفيض الكاشاني (١٠٩١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النّشر الإسلامي التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الثّانية.

١٣٠- مختصر أخبار شعراء الشّيعة، المرزبانيّ الخراسانيّ (٣٨٤هـ)، تحقيق: الشيخ محمّد هادي الأميني، شركة الكلينيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م .

١٣١- مختصر المعاني، العلامة التّفتازاني، انتشارات مصطفوي، قم.

١٣٢- المدرسة القرآنيّة، الإمام الشّهيد السّيّد محمّد باقر الصّدر، إعداد وتحقيق: لجنة التّحقيق التّابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشّهيد الصّدر، دار الصّدر، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٣٣- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرّسول، العلامة المجلسي (١١١١هـ)، إخراج ومقابلة وتصحيح: السّيّد هاشم الرّسولي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ.

١٣٤- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النّوري (١٣٢٠هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٣٥- المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، محمّد بن أحمد بن منصور الأبشيهي (٨٥٤هـ)، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٣٦- مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان.

١٣٧- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، الشّيخ عليّ الطّبرسيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٣٨- مصباح الشّريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٣٩- مصباح المتهجّد، الشّيخ الطّوسي، مؤسّسة فقه الشّيعة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٤٠- المصباح المنير، المقري الفيّومي (٧٧٠هـ)، منشورات دار الهجرة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٤١- مطالب السّؤول في مناقب آل الرّسول عليهم السلام، محمد بن طلحة الشّافعي (٦٥٢هـ)، تحقيق: ماجد بن أحمد العطيّة.

١٤٢- معارف الرّجال في تراجم العلماء والأدباء، الشّيخ محمّد حرز الدّين، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النّجفي، قم، ١٤٠٥هـ.

١٤٣- معاني الأخبار، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، عُنِيَ بتصحيحه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة، ١٣٧٩هـ.

١٤٤- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطّبراني، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السّلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٤٥- مفردات ألفاظ القرآن، الرّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، الأميرة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٤٦- مقتل الحسين عليه السلام، السّيّد عبد الرزاق المقرّم، مكتبة آل علي عليه السلام، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٤٧- مكارم الأخلاق، الشّيخ الطّبرسي (٥٤٨هـ)، منشورات الشّريف الرَّضي، الطّبعة السّادسة، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

١٤٨- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، تحقيق وفهرسة: الدّكتور يوسف البقاعي، دار الأضواء، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

١٤٩- منية المريد، الشّهيد الثّاني (٩٦٥هـ)، تحقيق: رضا المختاري، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٥٠- مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن، آية الله العظمى السّيّد عبد الأعلى السّبزواري، مؤسسة المنار، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٤هـ.

١٥١- موسوعة الغدير في الكتاب والسّنّة والأدب، الشّيخ عبد الحسين الأمينيّ، تحقيق: مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم، الطبعة الثّالثة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

١٥٢- موعد اللّقاء، رسائل سماحة الإمام الخمينيّ قدس سره إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيد أحمد الخمينيّ رحمه الله، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، الشّؤون الدوليّة، الطّبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٥٣- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائي، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليّان، الطّبعة الثّالثة، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

١٥٤- نثر الدّرّ، منصور بن الحُسين الآبي (٤٢١هـ)، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

١٥٥- نظرات في الإعداد الروحي، الشّهيد الشّيخ حسين معن، مركز الإمام الباقر عليه السلام، قم، الطّبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.

١٥٦- نظم درر السّمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسّبطين، محمد الزّرندي الحنفي (٧٥٠هـ)، الطّبعة الأولى، ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م.

١٥٧- النّهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، مؤسسة إسماعيليان، قم، الطبعة الرابعة.

١٥٨- نهـج البلاغـة، المختـار مـن كـلام أميـر المـؤمنين عليه السلام، لجامعـه: الشّريف الرّضي (٤٠٦هـ)، تحقيق: السّيّد هاشم الميلاني، العتبة العباسيّة المقدّسة، كربلاء المقدسة، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٥٩- نهج البلاغة الثّاني، جمعه ورتّبه الشَّيخ جعفر الحائريّ، دار الهجرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ

١٦٠- نهج البلاغة نبراس السّياسة ومنهل التّربية، مجموعة بحوث ومقالات لعدّة من العلماء والمفكّرين، مطبعة سلمان الفارسيّ، قم، ١٤٠٤هـ.

١٦١- نهج الصّباغة في شرح نهج البلاغة، الشّيخ محمّد تقي التّستري، منشورات مكتبة الصّدر، طهران، د.ت .

١٦٢- النّوادر، فضل الله الرّاوندي (٥٧١هـ)، تحقيق: سعيد رضا علي عسكري، دار الحديث الثّقافية، قم، الطبعة الأولى.

١٦٣- الهوى في حديث أهل البيت عليهم السلام، الشّيخ محمّد مهدي الآصفي، مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام، النّجف الأشرف، الطّبعة السّادسة، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م .

١٦٤- وسائل الشّيعة إلى تحصيل مسائل الشّريعة، الحرّ العامليّ (١١٠٤هـ)، تحقيق: الشّيخ عبد الرّحيم الرّباني الشّيرازيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٦٥- وفيّات الأعيان، ابن خلكان (٦٨١هـ)، حقّقه: الدكتور إحسان عباس، منشورات الشّريف الرّضي، قم، ١٣٦٤هـ ش.

الفِهْرَسْتُ:

البحث الحادي عشر: الحِلْم ٩
دواعي الحلم ١٣
فوائد الحلم ١٥
الحلم دلالة العقل ١٩
التّلازم بين الحلم والعلم ١٩
كيف يكتسب الإنسانُ الحِلْمَ؟ ٢٠

البحث الثّاني عشر: العفو ٢٣
لماذا أكّد الإسلام على العفو؟ ٢٦
دلالات العفو ٢٨
آثار العفو ٢٩

البحث الثّالث عشر: الكلمة الطيّبة والكلمة الخبيثة ٣٣
خصائص الكلمة الطيّبة ٤٢
الحسن والجمال ٤٣

المعروف ٤٨
السّداد ٥٠
البلاغة ٥١
اللّيونة (المرونة) ٥٣
الفرق بين الكلمة الطيّبة والكلمة الخبيثة ٥٧

البحث الرّابع عشر: خطورة اللّسان ٦١
خواص اللّسان ٦٤
الصَّمت والكلام ٦٩
القلب واللّسان ٧٢
من آفات اللّسان ٧٣
حدّ التّدخّل فيما لا يعني ٧٤

الباب الثّالث: مساوئ الأخلاق

البحث الأوّل: الأهواء والميول النّفسيّة في القرآن ٧٩
مصادر الحركة في نفس الإنسان ٨١
تفسير الهوى ٨٣
خصائص الهوى ٨٤
دور الهوى في حياة الإنسان ٨٧
لماذا خلق الله الهوى عند الإنسان؟ ٨٧
لماذا نهى الإسلام عن اتّباع الهوى ٩٠

مفاسد اتّباع الهوى ٩٣
مثال علماء السّوء ٩٧
نتائج اتّباع الهوى ١٠٠
مخاطر الهوى ١٠١
ماذا يخرّب الهوى من الإنسان؟ ١٠٣
المراحل التخريبيّة للهوى ١٠٧

البحث الثّاني: الغضب ١١١
تعريف الغضب ١١٣
الغضب المذموم ١١٤
مفاسد الغضب ١١٤
ضرورة الغضب ١١٧
علاج الغضب ١١٩

البحث الثّالث: الحسد ١٢٣
مراتب الحسد أربعة ١٢٨
أسباب الحسد ١٢٨
آثار الحسد ١٣٠
لماذا التّحاسد بين الأقران والأقارب؟ ١٣٣
علاج الحسد ١٣٥

البحث الرّابع: التّكبّر	**١٣٩**
بواعث التّكبّر	١٤٥
ظواهر التّكبّر	١٤٦
بماذا يستكبر الإنسان؟	١٤٧
أوّلاً: العلم	١٤٨
ثانياً: العبادة	١٥٠
ثالثاً: التّكبّر في النّسب والحسب	١٥١
رابعاً: التّكبّر بالمال	١٥٢
التّكبّر يسبّب الهلاك	١٥٤
آثار التّكبّر	١٥٨
درجات التّكبّر	١٦٠
أوّلاً: التّكبّر على الله عزّ وجلّ	١٦٠
ثانياً: التّكبّر على الرّسل والأنبياء عليهم السلام	١٦٢
ثالثاً: التّكبّر على عباد الله	١٦٣
علاج التّكبّر	١٦٥
البحث الخامس: العجب	**١٧١**
أسباب العجب	١٧٧
أقسام العجب	١٧٩
مراتب العجب	١٨٠
علاج العجب	١٨١
آيتان في العجب	١٨٢

قاعدة تحتاج إلى تأمّل ١٨٧
تحسيس النّفس بالتّقصير ١٨٩
مصائب الأنا ١٩٣
الطريقة الإسلاميّة في معالجة الأنا ١٩٦
الشُّكر تعلّقٌ بالله والسُّكر تعلّق بالذّات ١٩٩

البحث السّادس: الغرور ٢٠٥
أسباب الغرور ٢٠٨
علامات المغرور ٢١١
ما يغترّ به الإنسان ٢١٤

البحث السّابع: الرّياء ٢٢٥
لماذا يحبّ الإنسانُ المدحَ؟ ٢٢٨
المجالات الّتي يرائي بها الإنسانُ ٢٣١
أسبابُ الرِّياء ٢٣٢
علاج الرّياء ٢٣٣
بيان مخاطر الرّياء في حياة الإنسان ٢٣٤

البحث الثّامن: الحقد ٢٣٩
أسباب الحقد ٢٤٢
آثار الحقد ٢٤٣

الفرق بين الحقد وكظم الغيظ ٢٤٦
خصائص الحاقد ٢٤٦
هل يحقد المؤمن؟ ٢٤٨
علاج الحقد ٢٥٢

البحث التّاسع: أخطار الغفلة ٢٥٥
تعريف الغفلة ٢٥٨
أخطار الغفلة ٢٥٩
أسباب الغفلة ٢٦١
عواقب الغفلة ٢٦٤

البحث العاشر: سوء الظّنّ ٢٦٩
أسباب سوء الظّنّ ٢٧٢
الآثار التي تترتّب على سوء الظّنّ ٢٧٣
علاج سوء الظّنّ ٢٧٥
كيف نتقي مضاعفات حسن الظّنّ؟ ٢٧٨

البحث الحادي عشر: آثار الذّنوب ٢٨١
ما هو الذّنب؟ ٢٨٣
الذّنب بين الشّريعة والقانون ٢٨٤
الذّنوب إفرازات أمراض القلوب ٢٨٦

آثار الذّنوب ٢٨٧
سنّة الله في إهلاك الأمم ٢٩٥
مُسَلَّمَتان أساسيّتان ٣٠١
دور المصلحين في حياة الأمم ٣٠٧
الإثم الظّاهر والباطن ٣١٣
استصغار الذّنب ٣١٣
صيرورة الصّغائر كبائر ٣١٤
تقسيم آخر للذّنوب من حيث التّأثير ٣١٥
وجوب التّوقي من الذّنوب ٣١٧

المصادر والمراجع ٣١٩
الفهرست ٣٣٧